محمد محي

رمسيس الثاني

القصة الكاملة

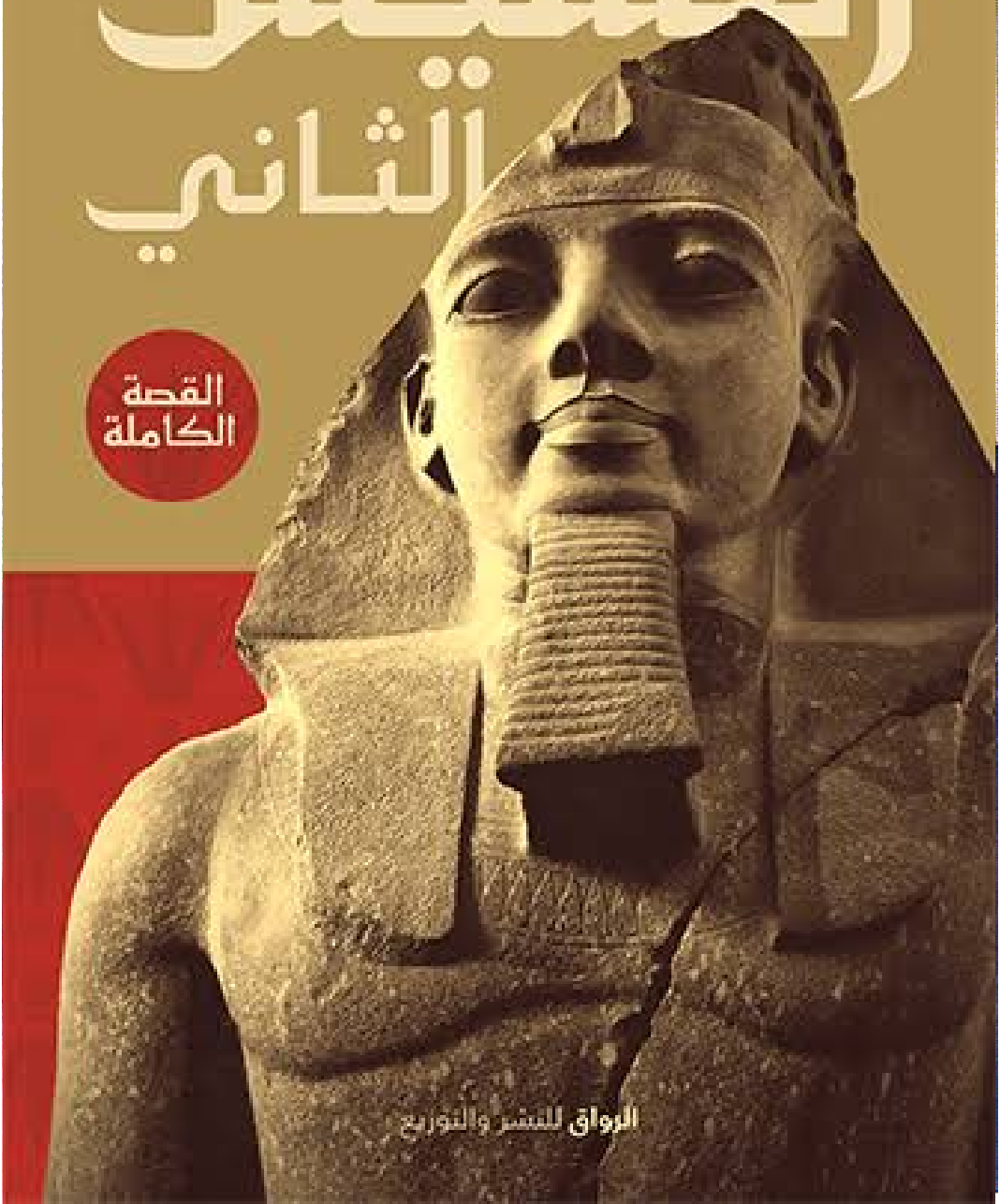

الرواق للنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى روح أمي الغالية «نادية»، التي انفطر قلبي برحيلها عن عالمنا، بعد ساعات من انتهائي من هذا الكتاب، وكانت أول مَن سيقرؤه.. إلى أبي الحاج «محيي» الذي تركني وحيدًا منذ عشر سنوات، ولولاهما لما كنت.. إلى روحهما الطاهرة وسيرتهما العطرة التي ستبقى أبد الدهر.

إلى إخوتي: «إبراهيم»، و«فاطمة»، و«إسراء».. سندي في هذه الدنيا.

إلى زوجتي الحبيبة «مروة».. رفيقة الدرب.. حبيبة العمر، التي وقفت جواري كثيرًا، وتعبت في مساعدتي لكتابة هذا الكتاب أضعاف ما تعبت.

إلى «ريناي» ابنتي الوحيدة التي أعيش لأجلها، ويساعدني وجودها على تحمُّل هذه الحياة.

إلى صديقي د. حامد محمد، والذي لولا ترشيحه لما خرج هذا العمل إلى النور.

إلى جروب «كمت»، ورفاق رحلة التعريف بتاريخنا العظيم..

إليهم جميعًا أُهدِي أول كتبي.

محمد محيي

مقدمة

ترددت كثيرًا قبل كتابة هذا العمل..

منذ زمن طويل وأنا أود تحقيق الحلم بكتابة عمل يليق بمصر وتاريخها العظيم، ومع وقوع الاختيار على «رمسيس الثاني» ليكون عنوان هذا العمل؛ توقفت كثيرًا عند بعض الصعوبات والتساؤلات..

مَن أنا لأكتب فيما كتب عمالقة عالم الرعامسة؟

لست أملك غزارة علم وتمكُّن «كتشن»، و«جاردنر»، و«تشرني»، و«مونتييه»، و«كونتز»، و«لالويت»، وغيرهم من الأساتذة الكبار.

ولا رشاقة قلم «كريستيان نوبلكور»، أعظم من كتبت في حب «رمسيس الثاني».

ولا هيام «شادي عبد السلام» آخر المصريين القدماء في عصرنا الحديث.

ولا وطنية «عبد الحليم نور الدين»، و«سليم حسن»، وغيرهم الكثيرون من أعظم علماء الآثار المصريين، الذين ذابوا عشقًا في تراب هذا الوطن، والذين لن تكفي صفحات هذا الكتاب مجتمعة لذكر أفضالهم عليَّ وعلى بلادنا الغالية.

حقيقةً لا أجد سببًا لذلك سوى محاولة إضافة قدر ـ ولو يسير ـ لذلك الجبل الحضاري المسمى «رمسيس الثاني».

ذلك الملك الذي تعلمت منه معنى أن تكون مصريًا، وأن تكرس حياتك لرفعة هذا الوطن الذي لا نملك سواه.

ترددت كثيرًا من أين أبدأ سطوري.

قادش؟

من الميلاد إلى الممات؟

حتى استقر ذهني على تتبُّع رحلة «رمسيس» منذ نشأة أسرته في الشرقية وحتى عامنا الحالي ٢٠٢١؛ لتكون رحلة موثقة عبر الزمن، نعرف معًا عن ظروف نشأته، وأوضاع مصر قبل وبعد توليه ملكها.

سنخوض معًا رحلة عبر الزمان والمكان؛ للتعريف بهذا الملك العظيم وأسرته وأيامه، وما حلَّ به وبسيرته؛ حتى يومنا هذا لنحاول توضيح حقائق، ودحض افتراءات، ورؤية هذا

الجبل الشامخ بعيون مصرية خالصة لا يغلب عليها الهوى، وإنما ما يتطابق مع الحقائق التاريخية التي لولاها لما فهمنا تاريخنا العظيم.

ما إن يُطرَح اسم «رمسيس الثاني» حتى تتباين ردود الأفعال ما بين منبهر محب، وما بين كاره مشكك، وفي جميع الأحوال يظل «رمسيس الثاني» هو أكثر الملوك الذين أثير حولهم الجدل على مر العصور.

يبدأ الكتاب بمشهدين من عصور مختلفة؛ الأول: لواحد من أهم الكشوف الأثرية على الإطلاق، والثاني: لسابقة فريدة من نوعها واستقبال ضيف فوق العادة بالعاصمة الفرنسية باريس.

في الفصل الأول: نتعرف إلى مسرح الأحداث منذ طرد الهكسوس من أرض مصر، وحتى بزوغ نجم عائلة «رمسيس الثاني».

في الفصل الثاني: نخوض معًا رحلة مومياء «رمسيس الثاني» في عصرنا الحديث وأوجاعه وآلامه، ورحلته الطويلة التي ستنتهي على الأرجح بنهاية العام ٢٠٢١- مع استقرار مومياءه في المتحف القومي للحضارة المصرية، وبالتوازي نوضح ما أثير عن «رمسيس» من خرافات وتُهم ومطاردات العبرانيين له التي لا تنتهي.

الفصل الثالث: يتناول نشأة «رمسيس» وطفولته في قصر أبيه «سيتي الأول»، وتأهيله ليكون ملك مصر حتى يحكم منفردًا، ويُحكِم قبضته على مفاصل الدولة المصرية؛ ليبدأ رحلة استعادة إمبراطورية أسلافه العظام.

الفصل الرابع: يتناول معركة قادش؛ واحدة من أعظم المعارك الحربية في تاريخ مصر، وطبيعة العلاقات المصرية الحيثية التي أصبحت في تناغم مع توقيعهما لأول معاهدة سلام في التاريخ، وما تلا تلك المعاهدة من علاقات مصرية- حيثية على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى القديم.

الفصل الخامس: نسبر أغوار مملكة «رمسيس» وأحوال البلاد والعباد في عصره؛ أبنائه وزوجاته، أعماله ومنشآته، وحياته الأسرية.

الفصل السادس: نعود لمغامرة مشوقة ما بين «رمسيس» وعائلته، والمفسدين في الأرض والأفاقين الذين أزعجوهم من سباتهم الطويل، وقطعوا رحلتهم الأبدية لنيل الخلود.

أما الختام فسنعيش مع «رمسيس» آخر لحظات حياته؛ لنودعه الوداع الذي لن يكون الأخير.

أقدم لكم رؤيتي المتواضعة عن عصر «رمسيس الثاني» الابن البار لمصر.

محمد محيي

القاهرة ٣٠/١٢/٢٠٢٠

تمهيد

(من وادي الملوك إلى باريس)

الأخـويـن

١٨٧١

(وادي بيبان الملوك)

يمشي رجلان تحت شمس الوادي الحارقة، يتقدمهما أغنام قليلة، ذوا بشرة لوحتها الشمس، وملامح وكأنها منحوتة في الصخر، جلابيب ثقيلة وعمامات، رغم حرارة الجو، كعادة سكان صعيد مصر، يتفحصان ما يمرّان عليه من تضاريس الوادي بعين خبيرة محترفة، وكأنهما يبحثان عن شيء في رحلة متكررة اعتادا عليها منذ زمن.

اثنان من شباب قرية «الجرنة»؛ كما يطلق عليها ساكنوها باللهجة المحلية، أكبرهم سنًا هو شيخ قبيلته؛ على الرغم من صِغَر سنه، مهيب الملامح، جاد، هذا وجه لا يضحك إلا نادرًا.

تتوقف مسيرتهما خلف معبد الملكة «حتشبسوت» في أحضان الجبل، يجلس الأصغر سنًا، ويتكئ على إحدى الصخور، بينما الآخر يتفقد أغنامهما القليلة، بينما يتجاذب أطراف الحديث مع الشاب الآخر، كانا يأملان في العثور على شيء مهم اليوم، ولكن كالعادة يبدو أن الرحلة بلا طائل، ولكن مهلًا.. هناك عنزة ناقصة!

- يوجه حديثه للرجل الجالس الذي يتضح أنه شقيقه: «محمد، فيه واحدة ناقصة».

- يجيبه أخوه: «بص عليها كويس يا أحمد، أكيد ما راحتش بعيد»!

يذهب الرجل في إثرها، ويبحث طويلًا حتى تلهبه حرارة الشمس الجهنمية؛ فيرتفع صوته في سباب سمعه الوادي بأكمله لتلك العنزة الحمقاء التي اختارت أسوأ وقت ممكن لتتوه.

يتسلق صخور جبال الدير البحري إلى نقطة عالية؛ لتمكنه من الرؤية بشكل أوسع، ويلقي بناظره بعيدًا؛ فلا يجد شيئًا! أين ذهبت تلك الملعونة؟!

باااااء.. يخترق أذناه الصوت فيرهف السمع لبرهة ليتكرر النداء: «باااااء، باااااء».

تلك اللعينة موجودة في مكان قريب! يتتبع مصدر الصوت الذي أصبح واضحًا تمامًا مع وصوله إلى نقطة أعلى، ما إن يصل إليها حتى يخطو أولى خطواته؛ فيجد نفسه أمام بئر مظلم يبدو وكأنه بلا قرار!

يستند بظهره إلى صخور الجبل ويحدق لأسفل في زاوية شبه مستحيلة؛ ليظر داخل البئر فلا يرى سوى ظلام دامس يخرقه صوت العنزة واضحًا هذه المرة «باااااء، باااااء».

إنها بالأسفل بلا شك!

«يا محماااااااااااد، محماااااااااد».. ينادي «أحمد» على أخيه هذه المرة، الذي ما إن يلتقط نداء أخيه حتى يهرع إليه؛ ظنًا منه أنه بصدد مصيبة.

«خبر إيه عاد؟! مالك؟!».

يشير أخاه إلى الحفرة دون أن ينطق بكلمة واحدة، بدوره يصمت شقيقه لثوانٍ قليلة، لم يحتج أكثر منها ليفهم ما حدث، ينظر للأسفل بعين خبيرة يتفحص البئر، ومن ثَمَّ يتخذ قراره، فيلتفت لأخيه:

«محتاجين حبل وشعلة».

فيجيبه أخوه فورًا: «فيه ثانية يكونوا عندك».

يمر الكثير من الوقت يتأمل فيه محمد تلك البئر العجيبة، بينما تدور في عقله مئات الأفكار المتعلقة بالموتى.. والذهب.. حتمًا لا بد أن يكون هناك ذهب!

يقطع أفكاره وصول أحمد ومعه الحبل، ويبدأ في لفه حول صخرة قريبة، ثم حول خصره من أحد طرفيه ويقف كوتد يثبت ذلك الطرف، بينما يعطي الطرف الآخر لأخيه.

يلتقط محمد طرف الحبل، ويبدأ في النزول بسهولة وسلاسة توحي بخبرة واسعة في تلك الأمور.

«أول ما أنزل اخدِفلي الشعلة».

ما إن ينزل محمد بضعة أمتار حتى تبتلعه ظلمات البئر، بينما صوت العنزة لا يزال يتردد من الأسفل، بينما أحمد بالأعلى ينتظر أن يتوقف سحب أخيه للحبل، تمر اللحظات بطيئة حتى يشعر أحمد أن أخاه بلغ قاع البئر، وبحسبة بسيطة قدّر أحمد أن عمق تلك البئر يتجاوز عشرة أمتار.

«كفاية كده، احدفلي الشعلة».

يلقيها «أحمد» لأخيه، الذي يلتقطها في الأسفل في ظلام دامس، ويشعلها ليبدأ في استكشاف المكان.

تمر اللحظات في الأعلى التي تتحول بسرعة إلى دقائق تطول كثيرًا، حتى يقلق «أحمد»

على أخيه؛ فيبدأ في ندائه الذي كاد أن يصبح لازمة لديه «يا محمااااااااد».

بينما محمد في الأسفل ما إن يشعل شعلته حتى يرى العنزة أمامه التي تستقبله «باااااء»، يدفعها جانبًا بغير اكتراث، ويواصل التقدم داخل ذلك المكان العجيب.

هذا مكان لم تطأه قدم منذ مئات.. لا بل آلاف السنين، الأرض متربة بشدة، والجدران صخرية خشنة غير مزينة بأي نقوش، أشبه بتكوين صخري طبيعي داخل الجبل.

ولكن.. ما هذا؟

يوجه شعلته في ذلك الاتجاه ليرى أمامه نفقًا.. نفقًا منحوتًا بفعل البشر بلا شك، نفقًا يبدو أنه يؤدي إلى غرف تحت الأرض!

يبدأ في استكشاف النفق بعد اجتيازه للمدخل، وما إن يخطو عدة خطوات؛ حتى يرتطم بجسم خشبي على الأرض؛ فيتعثر وتسقط منه الشعلة على الأرض، يهم واقفًا، وهو يبسمل ويحوقل ليرى مشهدًا يتفوق على أشد أحلامه جموحًا.

أضخم مجموعة من التوابيت رآها في حياته.. هذا كنز.. كنز مهول أشبه بكنوز علي بابا، كنز تزين رءوس توابيته الكوبرا، هذا كنز للملوك، لقد ابتسم القدر لهما أخيرًا، ويبدو أنهما في طريقهما لأن يكونوا من الأثرياء، ولكن هذا سيقترن بسر.. سر سيحفظه هو وأخوه وأهل قريته تحت طائلة الموت.. يقطع سيل أفكاره صراخ أخيه من الأعلى: «يا محمااااااااد».

«في السنوات العشر الماضية، كانت هناك شكوك أن عربان طيبة -والذين مهنتهم الأساسية نبش القبور وسرقة المومياوات- قد وجدوا قبرًا ملكيًا؛ حيث جلبت مقتنيات وآثار نادرة إلى أوروبا كل موسم عن طريق السائحين، ومع مرور الوقت أصبح هذا الشك مؤكدًا».

(الكاتبة البريطانية إميليا ب. إدواردز ١٨٨٢)(1).

رحلة إلى باريس!

٢٦ سبتمبر ١٩٧٦

في ساعة مبكرة من يوم بلغت فيه سرعة الرياح مبلغًا كبيرًا، تخرج شاحنة من المتحف المصري، قام العمال بتحميل صندوق خشبي بداخلها في دقة وحرص بالغين توحيان بأهمية محتوياته، وفور تجاوزها بوابة المتحف الرئيسة ظهر الموكب الأمني المصاحب لها بقيادة ضابط مصري يُدعى «رمسيس»، ما إن يتأكد أن كل شيء على ما يرام حتى أعطى الإشارة بالتحرك.

تدوي صافرات سيارات ودراجات الشرطة النارية في شوارع العاصمة؛ فتعطي للموكب هيبة تستوقف بعض المارة متسائلين عن طبيعة ووجهة ذلك الموكب.

تنتهي الرحلة في زمن قصير بالوصول إلى مطار القاهرة، وبينما يقوم العمال بتفريغ الشحنة، يعمل الموظفون على إنهاء إجراءات السفر بسرعة شديدة، لينتهي المشهد بدخول الصندوق إلى طائرة من طراز «بروجيه» الفرنسية.

يصعد على متن الطائرة بعض الأشخاص من مصريين وأجانب، كان أكثرهم لفتًا للأنظار سيدة أوروبية ببنيتها الضئيلة وشعرها الأشيب القصير ومناظيرها الطبية الكبيرة التي تلتهم نصف وجهها، كانت آخر من يدخل إلى الطائرة التي ما إن انغلق بابها حتى بدأت الطائرة في عملية إقلاع مرنة؛ على الرغم من سرعة الرياح حتى تترك عجلاتها الأرض وتحلق في سماء القاهرة.

مع مرور دقائق على التحليق تنخفض سرعة الرياح بشكل ملحوظ، لتهيئ جوًا مثاليًا للطيران على عكس المتوقع من بداية اليوم، فيدوي صوت تلك السيدة بداخل الطائرة تخاطب الموجودين: «معجزة أخرى!».

تلقي جملتها دون انتظار رد، وبسرعة تشق طريقها لتصل إلى قمرة القيادة لتخاطب ربان الطائرة، وتطلب منه طلبًا غريبًا بعض الشيء: «من فضلك، هل يمكننا التحليق فوق أهرامات الجيزة؟».

يستجيب الربان لهذا الطلب وكأنه يتوقعه، وبعد دقائق قليلة تحلق الطائرة فوق الأهرامات، بينما وجه أبي الهول يظهر من بعيد، وكأنه يبتسم ابتسامة وداع أخيرة للطائرة ومسافريها.

وما إن تتأكد السيدة أن طلبها قد نُفِّذ على أكمل وجه؛ تجلس على مقعدها بجوار رجل

مصري الملامح، وهو المرمم المصري د. شوقي نخلة.

تدور بينهما مناقشات علمية طويلة عن المحتويات الثمينة للصندوق الذي يرافقهما على متن الطائرة، ويراجعان معًا بعض الإجراءات، وما إن تنتهي محادثتهما حتى تجلس تلك السيدة في صمت تسرح بخيالها بعيدًا، وفي ذهنها آلاف الأفكار مع تلك الرحلة -رحلة العمر- التي حلمت بها طويلًا.

مع حلول الخامسة مساءً في نفس اليوم -وفي الموعد المحدد مسبقًا للوصول- تلوح الطائرة في أفق مطار «لو بورجييه» في العاصمة الفرنسية «باريس»، بينما موظفو المطار في حالة تأهُّب قصوى والأمن يمنع الصحفيين من التزاحم.

تتصدر المشهد «أليس سونييه» مبعوثة الرئيس الفرنسي «ديستان»، والجنرال «حافظ إسماعيل» سفير مصر في فرنسا؛ في انتظار هبوط الطائرة.

تمر الدقائق، والحضور جميعًا في صمت.. والطائرة تبدأ في الهبوط حتى تتوقف تمامًا بأرض المطار، كان توقُّفها هو السكون الذي يسبق العاصفة؛ فتصيب الصحفيين صرعة التصوير ويسطع فلاش الكاميرات من كل مكان، صاحب ذلك أغرب شيء يمكن توقُّعه!

يتقدم الحرس الجمهوري الفرنسي ليقترب من مهبط الطائرة التي يفتح الفنيون الجزء السفلي منها ليظهر صندوق!

ما إن يخرج من الطائرة حتى يأخذ الحرس الجمهوري وضع المراسم البروتوكولية، فيضع كل منهم سيفه بالقرب من كتفه، وتبدأ مراسم استقبال الملوك والرؤساء!

يصاحب المراسم دوي الطلقات النارية مع الموسيقى العسكرية الحماسية التي أحالت المشهد إلى أوركسترا ملحمية في أحضان عاصمة النور.

ولكن في عقل تلك السيدة الغامضة المرافقة للوفد يتردد نداء من نوع آخر، نداء كان يتردد لصاحب الجسد الذي يرقد داخل ذلك الصندوق وهو على قيد الحياة:

(حورس الصقر.. الثور القوي، محبوب العدالة، المنتمي للسيدتين، حامي مصر، قاهر الأراضي الخاسئة، حورس الذهبي ثري السنين، عظيم الانتصارات، ملك مصر العليا والسفلى «وسر ماعت رع ستب إن رع» «رمسيس» محبوب آمون)(2).

«رمسيس» محبوب آمون؟!

اجتمع هؤلاء في ذلك اليوم لاستقبال مومياء «رمسيس الثاني» الذي وصل إلى «باريس» في رحلة علاجية لحمايته من فطريات تهدد مومياءه بالفناء(3)، غادر «رمسيس» أرض الوطن لأول مرة منذ آلاف الأعوام، وبناءً على أوامر من الرئيس الفرنسي «ديستان»؛ جرى تأدية مراسم الاستقبال الملكي له(4).

أما تلك السيدة المرافقة للوفد؛ فهي عالمة الآثار الفرنسية «كريستيان ديروش نوبلكور» التي ذاع صيتها كأول امرأة تتولى بعثة أثرية للتنقيب في أرض مصر، والتي لعبت دورًا كبيرًا في إنقاذ آثار النوبة مع بناء السد العالي في عهد الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر»، ومع توليها أمانة متحف «اللوفر» في باريس؛ استطاعت - بمعجزة حقيقية، وبمساعدة الرئيس الفرنسي «جيسكار ديستان»- إقناع الرئيس «السادات» بتلك الرحلة العلاجية لمومياء «رمسيس»؛ في محاولة لإنقاذها بأحدث التقنيات المتاحة وقتها.

تبدأ الشاحنة المجهزة في الالتحام بباب الطائرة الخلفي لاستقبال مومياء «رمسيس»، بينما تجيب «نوبلكور» عن أسئلة الصحفيين في ثقة وهدوء، حتى ينتهي الفنيون من وضع المومياء في الشاحنة التي ستنطلق بهم إلى «متحف الإنسان» في باريس.

تصعد «نوبلكور» والوفد المرافق إلى الشاحنة المخصصة لنقل المومياء، يرافقها سيارات الحراسة وعربات الإسعاف في موكب مهيب يخترق شوارع «باريس» التي يشهد جماهيرها ذلك الحدث الفريد، فتجذب «نوبلكور» أطراف الحديث:

والآن أيها السادة الكرام، هل تودون أن ترافقوني أنا وجلالته في جولة بميدان الكونكورد؟ في حالة إن كنتم لا تعلمون؛ فإن لـ«رمسيس» مسلة تقع في منتصف ميدان «كونكورد».. فلتكن هذه لفتة ولاء لجلالته(5).

لا يلاقي اقتراحها أي اعتراض من الموجودين؛ فيبدأ الموكب بالفعل في التوجُّه للمسلة التي كانت تزين واجهة معبد الأقصر يومًا ما حتى أهداها «محمد علي» -في غفلة من الزمن- لفرنسا، ويبدو وكأن الزمن توقف لوهلة واحتبست الأنفاس في صمت طويل؛ إجلالًا لتلك اللحظة، مع دوران الموكب حول المسلة ليراها «رمسيس» لأول مرة منذ ٣٢٠٠ عام منذ رحل عن عالمنا.

يصل الموكب إلى «متحف الإنسان» في قلب العاصمة الفرنسية ليبدأ فصلًا جديدًا من تلك الزيارة الاستثنائية التي على الرغم من بداياتها البراقة والاحترام الواضح لزيارة «رمسيس»؛

فإن سطور النهاية ستحمل مفاجأة مأساوية سيتذكرها التاريخ طويلًا وإلى الابد.

---

1 Ikram, S. 2018. "From Thebes to Cairo: the Journey, Study, and Display of Egypt's Royal Mummies, Past, Present and Future", inPolymatheia. Studi classici offerti a Mario Capasso I Paola Davoli and Natasha Pelle, eds. Lecce: Pensa Multimedia, 867 - 83. P 03.

2 ألقاب تتويج "رمسيس" الثاني.

3 The New York Times, The Mummy of Ramses II is Flown To Paris for Treatment of Decay, September 27, 1976, Page 7.

4 The New York Times, Paris Mounts Honor Guard For a Mummy, September 28, 1976.

5 Ramses II , The great Journey, Documentary, https://www.imdb.com/title/tt6830934/.

الفصل الأول: الإمبراطورية المصرية من الغروب إلى الشروق مرة أخرى

صراع على عرش «كِمِت»

أرض «كِمِت».. ١٢٢٥ ق. م تقريبًا

الأحداث على أوجها والمستقبل غير واضح.. ملك مصر قد مات والفوضى تضرب البلاد، تلك الأرض التي كانت تحكم العالم أصبحت مطمعًا للكل، والعالم كله يترقب ما سيحدث، وأمير من بلاد الحيثيين قادم إلى أرض مصر في مهمة سرية؛ بناءً على رسالة أغرب من الخيال وصلت من مصر.

عندما سمع المصريون بالهجوم على «أمقا» كانوا خائفين، بالإضافة إلى ذلك فإن ملكهم «نبخورووريا» قد مات، وأرسلت (الملكة) «داكبامانزو» رسولًا إلى «شبيلوليوما» (ملك الحيثيين) قائلة: «زوجي توفِّي، وليس لي ابن، ولكنهم يقولون: إن لديك العديد من الأبناء، إذا أرسلت لي واحدًا من أبنائك سيصبح زوجي، أنا لا أريد لأحد من حاشيتي (خدمي) أن يصبح زوجي.. أنا خائفة.

عندما سمع «شبيلوليوما»؛ بذلك استدعى المجلس، وقال لهم: «لم يحدث لي مثل هذا من قبل أبدًا»، وأرسل الياور «خاتوشازيتي» إلى مصر قائلًا: «اذهب فلتأتِ لي بالأخبار الصادقة، ربما كانوا يخدعوني، ربما كان هناك ابن لملكهم؛ لا بد أن تعود لي بالقول الفصل».

«لماذا تتحدث إليَّ هكذا، وتقول خدعوني؟ إن كان لي ابن؛ هل كنت سأكتب لك عاري وعار بلادي بهذا الشكل؟! أنت لم تثق بي، بل وتتحدث إليَّ بهذا الأسلوب، الذي كان زوجي قد مات ولا ابن لي، ولا أريد أن أتخذ أحدًا من حاشيتي ليكون زوجي، أنا لم أكتب لأي بلد آخر، ولكني كتبت لك! إن لك العديد من الأبناء فابعث لي واحدًا منهم ليكون لي زوج، ولكن في أرض مصر سوف يصبح ملكًا».

رسائل متبادلة بين ملكة مصر والقصر الحيثي(6).

بهذه المحادثة والقصة العجيبة من وثائق الحيثيين بدا وكأن مصر على شفا حفرة متقدة من النيران؛ فملكها مات وأرملته ترسل لملك الحيثيين تلح عليه في إرسال أحد من أبنائه؛ ليكون ملك مصر القادم، بل إن المبعوث المصري قد أكد الرسالة والقصة بأكملها، ليضع «شوبيلوليوما» ملك «خاتوشا» في موقف لا يُحسد عليه.

هذه فرصة العمر، ولن تتكرر أبدًا!

أمير حيثي يصبح ملك مصر؟!

ستكون هذه سابقة هي الأولى من نوعها في التاريخ!

ماذا لو كانت خدعة؟

سيتخذ المصريون ابنه رهينة، وربما يحدث ما هو أسوأ!

تُرَى ماذا يفعل؟

ستترك «شبيلوليوما» في حيرته لبعض الوقت، ونعود معًا بالزمن إلى الوراء؛ لنجيب عن سؤال أهم: كيف حدث هذا من البداية؟

مولد إمبراطورية (من «أحمس الأكبر» وحتى «أمنحتب الثالث»)

عندما قام الملك «أحمس الأكبر» بطرد الهكسوس (حكام الأراضي الخاسئة) من أرض مصر؛ تحوَّل من أمير مدينة طيبة (الأقصر) إلى ملك مصر العليا والسفلى، ليعطي مصر قِبلة الحياة من جديد، ولتشهد معه بداية مولد جديد لفترة مضيئة في تاريخ مصر.

أدرك المصريون وقتها أن العالم قد تغير، وأن مَن كانوا يرونهم في مرتبة أدنى منهم استطاعوا إخضاع أرض مصر؛ لذلك توجهت أنظارهم نحو تأمين الحدود؛ خاصةً من جهة الشرق؛ لضمان عدم تكرار مأساة الهكسوس بأي ثمن.

ومن بعد «أحمس» توالى على عرش مصر العديد من الملوك الأشداء الذين لم يتوانوا في الدفاع عن الحدود ضد أي معتدٍ، فنجد «تحتمس الأول» في عامه الثاني من الحكم يفتخر بامتداد حدوده للفرات، أنجب ذلك الملك العظيم ابنة كانت هي كل ما يملك، اسمها «حتشبسوت»، شجاعة متوقدة الذكاء مثل أبيها، روت لنا عن نفسها؛ أن أباها أرادها أن تكون ملكة من بعده، ولكن أباها في النهاية أنجب ابنًا آخر، وهو «تحتمس الثاني»، والذي أصبح أخا «حتشبسوت» غير الشقيق، ومن ثَمَّ تزوجها؛ ليصبح هو ملك مصر من بعد أبيهما، وتصبح هي ملكتها.

تنجب له «حتشبسوت» ابنة، وهي الأميرة «نفرو رع»، ويُنجب هو من زوجة أخرى ابنًا أطلق عليه «تحتمس»، وبعد مرور وقت قصير جدًا يتوفى «تحتمس الثاني»، تاركًا التركة بين يدَي ابنه الطفل الصغير «تحتمس»، وعمته «حتشبسوت» الوصية على عرش ذلك الطفل، ولكن «حتشبسوت» ابنة الصنديد «تحتمس الأول» لم تتخلَّ عن حلم حياتها؛ فأعلنت نفسها ملكة مُطلقة على عرش مصر، وعندما وصل الأمير الصغير «تحتمس» إلى مرحلة الشباب؛ اشترك مع عمته وزوجة أبيه في فترة حكم مشترك، حتى تُتوفى هي الأخرى بعد فترة حكم تجاوزت عشرين عامًا قضتها مصر في سِلم ورخاء، لتلقي التركة على عاتق الأمير الشاب «تحتمس» الذي ستعرفه كتب التاريخ باسم «تحتمس الثالث».

أما خارج الأراضي المصرية؛ فكانت القلاقل تضرب آسيا بأكملها، ولكنهم اجتمعوا على هدف واحد، وهو النيل من مصر، والإطاحة بملكها الشاب «تحتمس الثالث» من على العرش، سيشنون عليها حربًا ضروسًا أوقد نيرانها فلول الهكسوس الذين لم ينسوا المذلة التي لاقوها على يد «أحمس الأكبر» منذ أجيال.

بشجاعة يُحسَد عليها قرر «تحتمس» أن الانتظار جبن، والهجوم هو خير وسيلة للنصر، وهذا ليس بغريب عليه؛ فهو ذلك الشاب الذي قضى طفولته وريعان شبابه في الجندية؛

حتى صار أبرع الجنود، وقائد جيوش مصر. إذا كانت الأخبار تقول: إن التحالف الآسيوي مجتمع في مدينة «مجدو»، فليذهب هو بنفسه إليهم، ولن يتخذ طريقًا سهلة، فلتكن مسيرة الجيش عبر ممر ضيق مكشوف يُدعى «عارونا».. لن يتوقع العدو مروره من هناك، وقد كان لهذا القرار وقع الصاعقة على جنرالات وقادة الجيش الذين رأوا في قرار «تحتمس» الذهاب إلى «مجدو»، بل وسلك ممر «عارونا» الضيق الذي يسع -بالكاد- عدد أفراد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة بمثابة انتحار فعلي.

وهنا دوّن لنا التاريخ مقولتهم له: «لا تدعنا نسلك هذا الطريق الصعب»، ولكن «تحتمس» كان واثقًا من قراره، مؤمنًا بقدراته، وبالفعل يوم وصول الجيش المصري إلى «مجدو» كان الهول في انتظار الأعداء الذين لم يجدوا وقتًا للكر ولا للفر، ولكن للفرار.. كان وصول الجيش المصري من هذه الطريق مستحيلًا، وقد حدث ووصل «تحتمس» إلى مجدو، وبيده عنصر المباغتة، ومن ثَمَّ النصر الحاسم.

وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ انشغل جنود جيش مصر في جمع الأسلاب والغنائم؛ على الرغم من إصرار «تحتمس» على مواصلة القتال، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وفرت الفلول تحتمي بقلعة «مجدو» التي استغرق حصارها ٦ أشهر كاملة؛ حتى استسلمت ووقعت في أيدي الجيش المصري.

بسقوط «مجدو» أصبح «تحتمس الثالث» رسميًا هو إمبراطور مصر المتوج الذي يحكم أواسط أفريقيا وجزءًا كبيرًا من آسيا، ويأتي الآسيويون أنفسهم إلى مصر ليتمصروا فيصبح ولاؤهم لها، بينما في أفريقيا لم يختلف الحال فابن الملك في كوش (لقب الموظف المصري المشرف على النوبة) يتحكم في الشئون المصرية في أفريقيا، ولتصبح مصر من بعده أقوى أمة في العالم، إمبراطورية تم تدعيم أركانها بسبع عشرة حملة عسكرية، كل واحدة منها خاض خلالها العديد من المعارك، ليصبح المثل الأعلى لكل من سيأتي بعده على عرش مصر.

لم يمر وقت طويل من بعد «تحتمس الثالث» فبعد أقل من جيلين يلوح في الأفق بوادر ممالك فتيّة ستنافس أو حتى تصبح ندًا لمصر في المستقبل، وتوالت الرسائل على قصر الإمبراطور من رعاياه وحلفائه وخدَمِه المُخلِصين.

«إلى الملك، سيدي، شمسي، هكذا أنا «لبعايو» (من كنعان) خادمك، التراب الذي تدوسه، أسجد عند قدمي مولاي سبع مرات، سبع مرات. لقد أطعت الأوامر التي كتبها إليّ الملك، لقد أطعت أوامر سيدي الملك التي كتبها لي على اللوح، أنا خادم الملك مثل أبي وجدي، خادم للملك منذ زمن بعيد.

من أنا ليفقد الملك أرضه بسببي؟

الحقيقة أنني خادم مخلص للملك، أنا لست متمردًا ولا متقاعسًا عن الواجب، أنا لم أمتنع عن دفع الجزية، لم أمتنع عن أي شيء طلبه مني المبعوث (المصري).

إذا كتب الملك يطلب زوجتي كيف أمنعها؟ وإذا طلب مني أن أغرس خنجرًا من البرونز في قلبي وأموت، فكيف لا أستطيع أن أنفذ أوامر الملك؟»(7).

بمرور السنين استمر سلطان مصر فتيًا في آسيا، ومع تولي الملك «أمنحتب الثالث» ـ ثامن ملوك الأسرة الثامنة عشرة ـ عرش مصر وصلت الإمبراطورية المصرية إلى أقصى اتساع لها، وبلغت مصر من الثراء مبلغًا غير مسبوق في تاريخها، الذهب كان مثل التراب، والهدايا لا تنقطع بين مصر ورعاياها وحلفائها، وما يمكن تحقيقه بالحرب في سنوات يمكن تحقيقه فوزًا وبشكل أسهل بالسياسة والمال والذهب الذي لا ينفد.

وقد تركت لنا تلك الفترة كنزًا تاريخيًا وهو مجموعة المراسلات بين مصر ورعايها وحلفائها في آسيا والتى عرفت بعد ذلك برسائل «تل العمارنة» الغزيرة في العدد والتفاصيل والتي حكت لنا وبدقة أحداثًا تاريخية لم نكن نعلم عنها شيئًا.

«إلى الملك، سيدي، إلهي، شمسي، الشمس من السماء، رسالة من سورآشار، حاكم آتياشنا، خادمك، التراب تحت قدميك، سائس خيولك، في الحقيقة أنا أجعل نفسي تسجد عند قدمي الملك، سيدي، إلهي، شمسي، الشمس من السماء ٧ مرات وسبع مرات، على البطن والظهر، من هو الكلب (الوفي) ـ يقصد نفسه ـ الذي لا يستمع إلى أوامر الملك؟ سيده، الشمس من السماء، ابن الشمس؟»(8).

فى فترة «أمنحتب الثالث» كانت مملكة «ميتاني» الحورية شمال الهلال الخصيب وما بين النهرين هي أقوى حلفاء مصر، بعد صراع طويل انتهى بالصلح والتحالف والمصاهرة، تزامن مع ذلك ظهور مملكة «آشور» على الساحة الدولية مع قوة أخرى ستصبح القوى الضاربة لاحقًا وهم «الحيثيون»، وقد وطد ملوك مصر علاقتهم بـ«ميتاني» عن طريق الهدايا المتبادلة والرسائل والتنسيق العسكري حتى المصاهرة.

«إلى «نب موا ريا» (نب ماعت رع) ملك مصر، أخي يحدثك «توشراتا» ملك ميتاني، أخوك، كل الأشياء تسير معي بشكل جيد، وأتمنى لك المثل وكذلك لأختي «كيلوخيبا» ولقصرك وزوجاتك وأبنائك ونبلائك ومحاربيك وخيولك وعجلاتك الحربية وفي بلادك أتمنى أن تكون كل الأمور بخير.

لقد كنت صغيرًا في السن عندما جلست على عرش أبي وقد قام «ود-خي» بعمل أشياء فظيعة لبلادي، وقتل سيده، ولهذا السبب لم يسمح لي بصداقة مع أي شخص يحبني، وبدوري لم أرتح لما حدث في بلادي، وذبحت الخونة الذين قتلوا أخي «أرتاشومارا» وكل أقاربهم.

ولأنك كنت ودودًا مع والدي بعثت لأقول لك هذه الأشياء لتسمعها يا أخي وتبتهج.

لقد أحبك أبي وأنت في المقابل أحببته، ولتعضيد هذا الحب لقد أعطى لك أبي أختي (لتتزوجها)، ومن وقف بجوار أبي مثلك؟

عندما تقدم العدو ضد بلادي هزمتهم جميعًا، ولم يعد أحد منهم إلى بلاده، والآن أبعث لك عجلتين حربيتين وخادمين ـذكرًا وأنثـ من غنائم بلاد «خاتي» هدية مني وتحية لك، كذلك أرسل لك خمس عربات إضافية وخمسة أزواج خيول.

وهدية مني تحية لأختي «كيلو خيبا» أرسل لها طقم بروش من الذهب، أقراط ذهبية وخاتمًا من الذهب، وكذلك زجاجة عطر جميل.

كما أرسل لك مبعوثي «كيليا» ومعه «تونيب إبرى» لعلك تعيدهم لي سريعًا ليطلعوني على الأخبار ومعهم تحياتك لأسعد بها.

لعلك يا أخي تود صداقتي فترسل لي الرسل لأسمع تحياتك لي»(9).

«إخناتون».. مهرطق على عرش مصر

بوفاة «أمنحتب الثالث» بدا وكأن الأمور ستسير مثل المعتاد وأفضل، على الرغم من حالة التراخي التي كانت واضحة في سياسة مصر الخارجية إلا أن معظم الأمور كانت تحت السيطرة، ويمكن بقليل من الجهد استعادة زمام الأمور دون صعوبة حقيقية، ولكن المشكلة هذه المرة جاءت من طرف غير متوقع... كانت المشكلة هي ملك مصر نفسه، سيتولى عرشها من سيهدم ما بناه أجداده ويقلب الطاولة على الجميع، هذا الملك الذي تولى عرش مصر باسم «أمنحتب الرابع» خلفًا لأبيه «أمنحتب الثالث» سيتخذ بعد سنوات قليلة من جلوسه على عرش مصر أغرب قرار ممكن، سيهرب إلى مدينة جديدة أطلق عليها «آخت إتن» (أفق آتون ـ تل العمارنة حاليًا)، هو وزوجته فائقة الجمال «نفرتيتي» ليعلن مولد عقيدة جديدة سينغمس فيها ليترك أحوال الدنيا والسياسة ويتفرغ لإلهه هناك.

يا أهل مصر!

إنكم لفي بؤس بسبب دينكم!

سنطوي صفحات الماضي ونتنشل من التاريخ إلهًا عمره ألف عام اسمه «إتن ـ آتن» ليصبح هو الأعلى والأوحد بأرض مصر.

سيصبح اسم ملككم من الآن فصاعدًا هو «آخ إن إتن» (النافع لآتون)، ستغلق معابد، لقد دان من قبل «أحمس الأكبر» لآمون بالفضل في دحر الهكسوس والآن سنمحو اسمه كلما استطعنا.

يشتعل الوضع في مصر مع إغلاق المعابد بقرار من «إخناتون» ليعادي الشعب بأكمله الذين أطلقوا عليه «مجرم آخت آتون»، أما خارجيًا فكان البعض لا يزال على العهد.

«إلى «نابخوريا» ملك مصر، زوج ابنتي الذي يحبني وأحبه، هنا «توشراتا» ملك «ميتانى»، حموك الذي يحبك، أخاك، إن أحوالي بخير، وأتمنى المثل لأحوالك ولقصرك ولأمك ملكة مصر «تي» ول«تادوخيبا» ابنتي وزوجتك وكذلك بقية زوجاتك وخيولك وقواتك وبلادك ولأي شيء ينتمي إليك أتمنى له الخير.

عندما ذهب أخي «نبموريا» إلى مصيره (مات)، حين سمعت بالخبر، لم أسمح أن يتم طهي شيء، وفي ذلك اليوم بكيت، جلست في ذلك اليوم بلا طعام ولا شراب، حزنت قائلًا: يا ليتني أنا مت، يا ليت عشرة آلاف من بلادي ماتوا وحتى عشرة آلاف آخرين في مصر وعاش أخي الذي أحبه ويحبني بعرض السماوات والأرض.

ولكن عندما قالوا: «نبخوريا» كبير أبناء «نيموريا» هو وأمه «تي» زوجته العظمى (يقصد نب موارياً) تقلدوا الملكية في محله فقلت: إن أخي «نيموريا» لم يمت؛ لأن ابنه الأكبر»نابخوريا» حل محله، ولن يتغير أي شيء عما كان فيما سبق»(10).

مع تولي «إخناتون» عرش مصر خلفًا لأبيه تجلى على عرش الحيثيين قبله بفترة قصيرة ملك طموح يدعى «شبيلوليوما» الذي بدأ بالهجوم على جنوب «ميتاني» حليفة مصر العتيدة ولكن «توشراتا» ملك ميتاني نجح في صد هذا الهجوم وأهدى إلى «أمنحتب الثالث» والد «إخناتون» من غنائم تلك الحرب.

بمرور الوقت بدا واضحًا أن سياسة «إخناتون» الخارجية تختلف كثيرًا عن أسلافه، فالتراخي الواضح في التعامل مع ممتلكات مصر في آسيا تحول إلى تراخٍ تام بل واستهتار مع إهمال إخناتون التام لمسرح الأحداث خارج مصر، أهم مستعمرات مصر في آسيا وهي «أمورو»، الوضع فيها مشتعل.

يظهر على مسرح الأحداث «عزيرو» حاكم أمورو الذي توسع نفوذه وسط جيرانه وتحالف مع ملك «قادش» الذي كان ولاؤه للحيثيين، ولكنه ظل يكتب إلى «إخناتون» أنه عبده المخلص، فاستدعي إلى القصر للتحقيق معه وظل محتجزًا به لما يقارب العام، ومع غياب «عزيرو» عن أمورو نجح الحيثيون في الاستيلاء على «واشوكاني» عاصمة «ميتاني» مع قيادة هجوم منظم على «أمورو».

عاد «عزيرو» إلى بلاده ليجد نفسه أمام سادة جدد، فيعقد اتفاقًا مع الحيثيين، ويغير ولاءه ليصبح تابعًا لهم، ومن ثم كانت الضربة القاصمة باغتيال «توشراتا» ملك «ميتانى» وابتلاع الحيثيين لما تبقى من مملكته، وعينوا ابنه على جزء ضئيل منها.

من قتل «زانانزا»؟

بمرور سنوات صعبة ومع اختفاء «إخناتون» ـوفاته؟ـ المفاجئ من مسرح الأحداث تزداد الأمور سوءًا فتأتي فترة متخبطة يحكم فيها ملوك مجهولون؛ وهم «سمنخ كا رع»، ثم «نفرنفرو آتون»، ثم يأتي على عرش مصر الملك الشاب «توت عنخ آمون» الذي لم يلبث أن توفي هو الآخر بعد فترة حكم قصيرة ليترك أخته غير الشقيقة «عنخ سن آمون» أرملة وهي في ريعان الصبا ليدعي بعد ذلك الحيثيون وصول رسالة من ملكة مصر تطلب من «شبيلوليوما» إرسال أحد أبنائه ليكون ملك مصر، تلك الرسالة التي لم تذكر المصادر المصرية عنها شيئًا على الإطلاق بينما ذكرتها المصادر الحيثية على استحياء، والتى يرى الكثير من العلماء أن مرسلتها كانت هي الملكة «عنخ سن آمون» أرملة الملك «توت».

تخبرنا المصادر الحيثية أن «شبيلوليوما» حسم أمره وأرسل أحد أبنائه ويدعى «زانانزا» إلى مصر ليتزوج ملكتها ولكنه يختفي في ظروف غامضة بينما في أرض مصر يظهر على العرش موظف وقائد عسكري وهو «آي» الذي يبدو أنه تزوج من أرملة «توت عنخ آمون» وأشرف على دفنه فأصبح هو ملك مصر القادم، بينما كان مصير «زانانزا» أسوأ من كوابيس أبيه الجشع.

«شبيلوليوما.. هجم على أمقا (في سوريا)، أرض مصرية... عندما خاف المصريون طلبوا واحدًا من أبنائه ليصبح ملكًا، وعندما أعطاهم «شبيلوليوما» ولدًا، قتلوه بعدما ساقوه إلى هناك».

«فليسبقه غضبه في حربه مع المصريين، وليهاجم مصر (يقصد ممتلكاتها في آسيا)، وهناك أخذ أسرى مصريين عائدًا إلى «خاتوشا»، ولكنهم جلبوا الطاعون إلى «خاتوشا»، ومنذ ذلك اليوم ضرب الموت وسط «خاتوشا»»(11).

تقف الأقدار بجوار مصر وتؤازرها فيختفي «زانانزا» في ظروف غامضة أصر الحيثيون أنها عملية اغتيال لم يخبرنا التاريخ عن تفاصيلها، بينما «شبيلوليوما» يثور ويهاجم أراضي تحت سلطان مصر، ويتخذ من الأسرى هناك من يجلبون الوباء إلى بلاده فيموت هو الآخر به ليلحق بابنه.

وهنا ظويت صفحة الفوضى وبدأت مصر فصلًا جديدًا من عداوة شرسة مع «الحيثيين» الذين أصبحوا قوى عظمى، عداوة ستستمر لسنوات طويلة جدًا تقارب الخمسة والسبعين عامًا في انتظار من يحسمها.

أسرة «رمسيس» تظهر على مسرح الأحداث

خلال سنوات حكم «أمنحتب الثالث» كان شاهدًا عليها ضابط فتى من الجيش المصري يدعى «سيتي»، وفي طريقه إلى النضوج عاصر فترة حكم الملك «إخناتون»، تعود أصوله إلى شرق الدلتا (محافظة الشرقية) بالقرب من «بحر رع»، ومن المكان الذي كان عاصمة للهكسوس يومًا ما والذى أطلق عليه القدماء «حت وعرت» ونسميه اليوم «أواريس».

«سيتي» هذا الضابط ذو الاسم الفريد والذي (يعني المنتسب للإله ست رجل الإله ست) في لفتة لمكانة وتاريخ هذا الإله المتقلب المزاج غير المحبوب في وادي النيل ولكنه كان إله تلك البقعة من أرض مصر منذ زمن طويل.

التحق «سيتي» هو وأخوه «خع إم واست» بسلك الجندية صغيرًا طموحًا يتمنى مستقبلًا باهرًا في أرض مصر التي كان كل شيء فيها ممكنًا، والجيش هو البوابة التي يدخل منها المرء إلى المناصب العليا، ومن ثم الحياة الدبلوماسية التي تؤهله ليكون من رواد القصر الملكي وليكون من ذوي الشأن العظيم، ولكن مع تولي «إخناتون» عرش مصر يبدو أن هذه الآمال قد تبددت وأصبحت مستحيلة مع حالة الإهمال التي سادت السياسة الخارجية بينما الجيش لا يستطيع التصرف، المستعمرات في آسيا تضيع واحدة تلو الأخرى دون أن يطلق الجيش سهمًا واحدًا أو حتى صرخة احتجاج، كل هذا وأكثر شهده «سيتي» الذي لم يملك بدوره أن يغير شيئًا وعلى الرغم من ذلك استطاع «سيتي» أن يصل لمرتبة «قائد فصائل» وهي رتبة لا بأس بها في تلك الظروف.

ربما كان قدر «سيتي» أكبر من ذلك، فبعض المصادر تربط بينه وبين مبعوث مصري ذكر مرات عديدة في رسائل تل العمارنة باسم «شوتا»، بينما أخوه «خع إم واست» ربما هو نفس الشخص الذي حمل لقب كبيرة رماة الأسهم، وهو لقب عسكري، وكذلك حامل المروحة الملكية؛ وهو لقب لا يعني أن صاحبه يحمل المروحة للملك، ولكنه يعني قربه من الملك شخصيًا، إن صح ذلك الربط فهذا يعني أن عائلة «سيتي» كان لها باع أكثر مما نتصور في دهاليز السلطة، وأنهم كانوا بالفعل شهود عيان مؤثرين في تلك الفترة، ولكن حتى هذا أيضًا لم يغير كثيرًا من وضع مصر في تلك الأوقات الصعبة، وعلى أية حال لم يمدنا التاريخ عن شباب «سيتي» و«خع إم واست» بأكثر مما ذكرناه.

في تلك الظروف العصيبة ولد لـ«سيتي» ولد أسماه «با رعمسو» (مولود الإله رع)، ألحقه بسلك الجندية هو الآخر لعله يحقق ما لم يحققه أبوه، وقد لعبت الأقدار دورها في المستقبل كما سنرى ليصبح هذا الابن هو أنجح أفراد العائلة.

بنهاية حكم الملك «آي» كان «حور محب» قائد الجيش هو رجل الساعة، فهو ليس قائد الجيش فحسب وإنما نائب الملك أيضًا، تمكن في فترة حكم «توت عنخ آمون» الخاطفة من قمع ثورات كنعان، وحاول نجدة حلفاء مصر عندما استنجدوا بها ولم يسمعهم أحد بل إنه أوقف تقدم الحيثيين ومنعهم من عبور نهر العاصي والذين ثارت ثائرتهم بعد مزاعمهم بمقتل الأمير «زانانزا».

برحيل «آي» إلى العالم الآخر لم يتبقَّ أحد من العائلة الملكية ليجلس على عرش مصر أو حتى مقربًا منهم سواه ليأتي دوره، ويُتوج هذا الجنرال العصامي الصارم الذي ترجع أصوله إلى «أهناسيا» في بني سويف ليصبح هو «حورس» القادم المتوج على عرش مصر.

(حورس الثور القوي، فعال الخطط، المنتمي للسيدتين، عظيم المعجزات في الكرنك، حورس الذهبي، الراضي بالحق، جاعل الأرضين يأتيان إلى الوجود، ملك مصر العليا والسفلى: جسر خبرو رع ستب إن رع (مقدسة تجليات رع، الملك المختار من رع)، ابن رع «حور إم حب» محبوب» آمون»).

(ألقاب تتويج حور إم حب).

«حور إم حب» ملكًا.. أقم العدل تنم ليلًا

في أحد نصوص التوابيت يقول الإله الخالق:

«خلقت كل واحد مثل أخيه، وحرمت أن يقترفوا الإسفت (الذنوب/ الفوضى)، ولكن قلوبهم خالفت ما قلته. إن العالم المنبثق من الإله الأول لم يكن يحتاج إلى دولة، ولكن أصبحت الدولة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها تحقيق العدالة والتضامن والانسجام (الماعت) في العالم بعد الانشقاق الذي كان سببه القلب البشري صاحب التمرد الأول»(12).

«يا بني، كن عادلا

وعاقب المجرمين حسب جرائمهم

لا تتهاون في تنفيذ القانون

لأن ذلك ينذر بثورة

وتذكر أنك ستقف أمام الإله يوم الحساب

عسى أن تكون مبرءا».

(جزء من التعاليم التي لقنت للملك المصري مرى كا رع - عصر الفوضى الأول ٢١٥٠-٢٠٢٥ ق.م)(13).

كان تتويج «حور إم حب» بمثابة قُبلة الحياة لمصر وجيشها في ظل الأوضاع الخطيرة بالخارج ليعلن عن بداية عهد ستعود فيه أمجاد مصر على يد ذلك القائد الأهناسي المنشأ، على الرغم من ذلك كان التحدي الداخلي أقوى في عصر «حور محب» فبعد فترة العمارنة وخاصة فترة حكم «إخناتون» استشرى الفساد في البلاد وبدا وكأن المنظومة الحكومية المصرية العتيدة قد أصابها مرض عظيم، قد بلغت الفوضى من البشاعة لدرجة انتهاك حرمة قبور ملوك مصر العظماء في «طيبة» بينما الشعب يئنُ تحت وطأة الظلم والفساد الإدارى.

«إذا أردت أن توطد ملكك في الأرض

فأقم العدل

وامسح دموع الحزانى

ولا تقهر الأرملة

على الحاكم أن يحترم موظفيه

وأن يرعى شعبه

ويحمي حدود مملكته

وأن يعمل للمستقبل

على الحاكم أن يكون بعيد النظر

يا بني، اجعل الناس يأتونك بسبب حبهم لك».

(جزء من التعاليم التي لقنت للملك المصري مري كا رع ـ عصر الفوضى الأول ٢١٥٠ـ٢٠٢٥ ق.م)(14).

وجه «حور إم حب» جهوده نحو استعادة ما كان فقام باستعادة مكانة «آمون» ليس في طيبة فحسب ولكن في أرجاء المعمورة، وقام على وجه الخصوص بمحو كل ما استطاع من آثار «إخناتون» خاصة في الكرنك، ليكتب نهاية لعصور الهرطقة الدينية وعودة مصر لمعتقدها القديم، وتوجه داخليًا بقبضة من حديد ليعلن عن تشريعات صارمة سيعلن عنها في أنحاء البلاد كافة ليعرف بها القاصي والداني جاء من نصوصها ما سنذكره.

«شاور جلالته قلبه ليبسط حمايته على البلاد بأسرها، ليصد الشر ويقضي على الكذب. إن أعماله ملاذ فعال لطرد العنف، كان يسهر ليل نهار متفحصًا ما يمكن أن يفيد البلد المحبوب باحثًا عن الأفعال عظيمة الفائدة، وأحضر كاتب صاحب الجلالة وأمسك لوح الكتابة ولفافة بردي، وشرع يكتب ناسخًا كل كلمات الملك الذي قام بإملاء المرسوم شخصيًا والذي تم بختمه بجوار صاحب الجلالة لوضع حد لأعمال السلب والنهب التي (ترتكب) في البلد».

(من تشريعات حور إم حب)(15).

«احرص على اكتساب حب الناس بأن تخدمهم

لأن ذكرى الملك تبقى عطرة بما قدمه لشعبه

احرص على إقامة الماعت (العدالة) في الأرض

حتى إذا جاء أجلك قال عنك الناس: إنه الملك الذي أنهى عصر الفوضى والاضطرابات».

(جزء من التعاليم التي لقنت للملك المصري مري كا رع ـ عصر الفوضى الأول ٢١٥٠ـ٢٠٢٥ ق.م)(16).

كان الفساد الإدارى يمس المنظومة الحاكمة، فلا تستقيم الأمور إذا كان رب البيت بالدف

ضاربًا، فبدأ «حور إم حب» بنفسه وجعلها مثالًا ليقضي على الرشاوى والاختلاسات وعدم ملاحقة المذنبين والتي كانت عرفًا سائدًا، حتى الجيش أصبح جنوده من الفاسدين بعدما لم يعد لهم دور في العهد البائد وارتكبوا جرائم الفساد في المناطق البعيدة عن أعين الحكومة المركزية، قام «حور إم حب» بنفسه بالوقوف على استعادة العدل الغائب عن أرض مصر منذ زمن، فجاءت قوانينه صارمةً تدين المذنب في ماله فيرد ما سرق كاملًا أو حتى أضعافه، وعقوبات تنال من بدنه فيبتر أحد أعضائه أو يجرح جروحًا دامية في أنحاء جسده أو على أفضل تقدير ينفى إلى أماكن نائية.

«وفيما يتعلق بأي شخص ينتمي للجيش سمع عنه أنه غادر بالجلود (أخذها عنوة من الفلاحين) منذ اليوم يطبق عليه القانون بجلده مائة جلدة وخمسة جروح دامية (في جسده) مع استرداد الجلود التي أخذها، وأمر جلالته باعتبار الفلاح معفى بسبب نواياه الطيبة».

(من تشريعات حور إم حب)(17).

كما أن التهاون في تحصيل الضرائب وأهميتها والفساد الإداري من أي نوع أصبح من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بنفس العقوبات السابقة، مع انتشار عمليات التفتيش الصورية التي كانت تنتهي بالرشوة قام «حور إم حب» بالقيام بجولات تفتيشية بنفسه في البلاد ليتأكد من اقتلاع هذه الممارسات من جذورها، بل وقام بوضع قوانينه في أماكن عديدة عثر على نسخ منها في معبدي «الكرنك» و«أبيدوس»؛ وهو ما يعني رغبة «حور إم حب» في أن يرى الشعب كافة تلك القوانين ويطلع عليها على أوسع نطاق.

فوق كل هذا أصبح للمجتهدين والمخلصين فرصة للترقي، وبسط لهم من الخيرات ما يغنيهم بقية حياتهم، كما استعاد أهمية المجالس القضائية التي لا بد أن تضع العدل فقط نصب أعينها دون تمييز أو محسوبيات، وأجزل لهم العطاء والمناصب وكانت العقوبات موازية لهذا السخاء تصل إلى حد الإعدام في حالة الفساد.

«لقد بحثت عن رجال ولجأت إلى زعماء من عاداتهم، النطق بكلمة موفقة والتحلي بخلق نابه وعلى دراية بسرائر الناس، كما يلتزمون بأوامر القصر، لقد رقيتهم ليصبحوا قضاة القطرين، وعند حسن ظن المقيمين في القصر، لقد أقمتهم في مدينتي الجنوب والشمال (طيبة ومنف)، وفي هاتين المدينتين يستطيع كل شخص دون استثناءات أن يلجأ إلى المحاكم، لقد وضعت أمامهم الحسابات والقوانين في سجلاتهم اليومين وأرشدتهم إلى طريق الحياة؛ لأنني أود السير بهم نحو العدالة، وكانت تعليماتي لهم: لا تصادقوا الآخرين، ولا تقبلوا هدية من أحد (رشوة)، من منكم إذن هو الذي يعرض نفسه للشبهات على الآخرين أو

يقترف جرمًا في حق العدالة.. أما أن يقال عن أي موظف كبير أو أي كاهن: إنه يتخذ مكانه في المحكمة ليؤدي واجبه لإقامة العدل بين الناس ولكنه يرتكب جرمًا في حق العدالة (يظلم)، فلسوف تحسب عليه جريرة وكأنها ذنب خطير يستوجب عقوبة الإعدام».

(من تشريعات حور إم حب)(18).

وتشهد مقبرة «حور إم حب» التي شيدها في سقارة عندما كان قائدًا للجيش على إنجازاته وحملاته العسكرية التي أنقذت لمصر كل ما يمكن إنقاذه في عصر الملك «توت عنخ آمون»، ولكن هذه المقبرة لم تكن مثواه الأخير، ففور تتويجه أمر بتشييد مقبرة جديدة له في وادي الملوك ليُدفن بها بوصفه ملكًا.

أما الجيش المصرى فكان يعيش أزهى عصوره؛ لأن «حور إم حب» أعاد إليهم مبادئ شرف الجندية وجمعته بين ضباطه وقادته وموظفيه علاقات حب وود مباشرة دون وسيط، وكانت مجالس «حور إم حب» عامرة بالضيوف دومًا الذين ينفق عليهم من أمواله الخاصة ويغمرهم بالهدايا.

«لقد وضعت هذا النظام لأن (جلالتي) يرغب في حماية كل الناس، وكانوا يجتمعون حولي ثلاث مرات في الشهر، وكان هذا عيدًا لهم؛ إذ إن كل فرد منهم يجلس ومعه ما يكفيه من كل شيء يشمل خبزًا طيبًا ولحمًا وقطائر من أملاك الملك، وأصواتهم تصل إلى عنان السماء معظمين كرم سيد الأرضين (مصر)، وقد كان كل واحد من رؤساء الجيش، وكل ضباط المشاة يكافأ كما كان الحال من قبل، وكان الملك نفسه يلقى عليهم الهدايا من النافذة مناديًا كل واحد منهم باسمه، وكانوا يمرون أمامه مُهَلِّلين يتسلموا الهدايا التي تصرف من أملاك القصر».

(من تشريعات حور إم حب)(19).

«ارفع من شأن وزرائك وموظفيك

وقدم لهم كل ما يحتاجونه

ليقوموا على تنفيذ القوانين

لأنهم إذا شعروا بالحاجة فلن يستطيعوا إقامة العدل

إن الرجل الغني في بيته لا يتحيز في حكمه

لأنه لا يعاني الفقر والعوز

أما الرجل الفقير فلا يتكلم بالعاعت (الحق)

لأن الرجل الذي يقول: «يا ليت لي» لن يكون محايدا

بل ينحاز لمن يحمل في يده رشوة

فالعظيم من كان أصل شرفه عظيما

ومن كان رجاله وأعوانه عظماء مثله

والملك القوي من كان له مستشارون

والرفيع من كان أشرافه أغنياء

إذا تحدثت بالصدق في بيتك

فستكون موضع احترام النبلاء في الأرض».

(جزء من التعاليم التي لقنت للملك المصري مري كا رع - عصر الفوضى الأول ٢١٥٠-٢٠٢٥ ق.م)[20].

وفي وسط كل هذا كان رفيق سلاحه المتوج الضابط المصري «با رعمسو» ابن الضابط «سيتي» الذي كان عصر «حور إم حب» هو عصره الذهبي فترقياته في المناصب فاقت والده واجتهاده الملحوظ جعله مُقرَّبًا من القصر الملكي، ومن ثم من الملك نفسه، حتى عُيِّن في مناصب عدة، كان أهمها على الإطلاق جعله وزيرًا لجنوب مصر؛ وهو أعلى منصب يمكن أن يترقى إليه موظف على الإطلاق.

تمر السنوات، ويستمر «با رعمسو» في إظهار ولائه وتفانيه لملكه وقائده، ويظهر على الساحة وجه جديد وهو ابن «با رعمسو»، والذي أطلق عليه «سيتي» مثل جده، ليتدرج في المناصب هو الآخر خلفًا لأبيه حتى يصبح من كبار رجال الدولة.

وفي مفاجأة مذهلة تحدث معجزة غير متوقعة!

«حور إم حب» لم ينجب أولادًا وفي حال وفاته سيصبح عرش مصر شاغرًا، وربما يحدث بسبب ذلك اضطرابات ستؤدي إلى محنة أخرى ستكون أصعب مما مضى على مصر، وهنا يمنح «حور إم حب» عن طيب خاطر رفيقه القائد «بارعمسو» لقب الأمير الوراثي، وهو ما يؤهل «بارعمسو» لتولي عرش مصر بعد وفاة «حور إم حب» ليجنب مصر أي مشاكل مستقبلية أو صراعات على عرشها، وليضمن لها زعيمًا محاربًا يقف أمام طموحات «خاتوشا» (عاصمة الحيثيين) التي بزغ نجمها.

«الأمير في أنحاء البلاد كلها، عمدة المدينة الوزير «بارعمسو» المولود من رئيس رماة السهام «سيتي»، رئيس حملة الأقواس، والمشرف العام على الخيول، رئيس الأختام وقائد مركبات جلالته، المبعوث الملكي إلى جميع البلاد الأجنبية والكاتب الملكي، وقائد جيش سيد القطرين، رئيس كهنة الآلهة كلها، والقائم بأعمال صاحب الجلالة في مصر العليا والسفلى، المشرف العام على مصبات النهر (النيل)، النبيل، عمدة المدينة، الوزير «بارعمسو».

(ألقاب الوزير «با رعمسو»).

وفاة «حور إم حب».. الروح للسماء والجسد للأرض

«وحين يأتيك الموت، ويقف أمامك

فلا تقولن: إني لا زلت صغيرًا لتخطفني

لأنك لا تعرف أجلك

فلكل منا أجل وساعة يغادر فيها إلى العالم الآخر

والموت يأتي ويختطف الطفل الذي لا يزال يرضع من ثدي أمه

كما يختطف الرجل عندما يصبح مسنًا».

(من تعاليم الحكيم المصري آني)(21).

اليوم تبكي مصر ابنًا لها، توفي «صادق الصوت» ملك القطرين «جسر خبرو رع»-(حور إم حب)، وطار الصقر إلى جنات العلا، إنه الموت الأول الذي تفارق فيه الروح الجسد لتذهب إلى عالم غامض على أمل أن تكون فيه من الأبرار، وكما خدم هذا الابن المخلص أرض مصر فسيرد له الجميل بمنع الموت الثاني من أن يطاله.

«لا تخف يا ابن «رع» فجسدك لن يفنى واسمك لن ينسى

فليبدأ تجهيزك إلى الأبدي وليمنع عنك الموت الثاني وفناء الجسد».

يتصدر المشهد الملك القادم «با رعمسو» وابنه «سيتي» الذي أصبح شابًا يافعًا الآن، حمل مناصب أبيه حتى أصبح ثاني أهم شخص في مصر بعد والده، كلاهما يبدو عليه الهم والكدر، ولحاهما مطلقة وهندامهما على غير العادة بشكل متعمد حدادًا على وفاة «حور إم حب».

تبدأ على الفور إجراءات الجنازة، ويشرف «بارعمسو» بنفسه عليها بمساعدة ابنه «سيتي» فتُفقد مقبرة «حور إم حب» في وادي الملوك والتي لم تكن قد اكتملت فيسرع العمال لإنهاء ما يمكن إنهاؤه في تلك الفترة القصيرة قبل الدفن الذي له الأولوية القصوى بمبدأ لا زلنا نعمل به حتى الآن وهو (إكرام الميت دفنه)، بينما المعابد تعلن حالة الحداد والتراتيل تُتلى على روح الملك المتوفى، والأسطول الجنائزي يقبع بالمرفأ في العاصمة في حالة استعداد.

اليوم يذهب الجسد إلى المحنطين لكي يمنعوا عنه «الموت الثاني»، وهو فناء الجسد وتحلله، سيمنعوا أن يضيع جسد «حور إم حب» إلى الأبد ليضمن لنفسه مكانًا في جنات

«يارو» جنة أبرار مصر بجسد سليم معافى.

فليتوقف العويل والبكاء ولتحزن مصر في صمت طوال سبعين يومًا سيتحول بعدها الملك الراحل إلى «أوزير» آخر لتبدأ رحلته الأخيرة إلى مثواه في الغرب الجميل.

رحلة الخلود.. «حور إم حب» بين يدي المُحنِّطين

يُنقل الجسد إلى خيمة التطهير «وعبت» التي يرعاها الإله «إنبو» حارس الجبانة وحاميها، وأول المحنطين، وبإشراف كهنته صفوة العارفين بأسرار التحنيط، فنرى كاهن مرتل (غري حب) ليتلو الصلوات والخطوات، ومشرف على التكفين (إمي روات)، والذي يرتدي قناع الإله «أنوبيس» ومساعدوه المكفنون (وتو)، بينما كاهن يرتدي قناع «حورس» ليضع الزيوت فوق الجسد، وأخيرًا: كاهن «سشمو» الذي يقوم بلف اللفائف الكتانية.

تبدأ التراتيل التي يلقيها الـ«غري حب» (الكاهن المرتل) الذي يمسك في يده لفافة بردي، وتبدأ في بطء عملية تطهير الجسد بداخل حوض التطهير فيسكب عليه الماء الممزوج بملح النطرون وهو راقد، وكذلك بعد إيقافه بداخل الحوض ليحاكي رحلة الإله «رع» اليومية في شروقه وغروبه على العالم، ويُطهر من أي دنس.

بعدها يُوضع الجسد الطاهر على مائدة تمهيدًا للمرحلة المقبلة، وهي نزع الأحشاء، يبدأ الكاهن بحرص شديد بإدخال أداة نحاسية طويلة رفيعة ذات طرف معكوف إلى الجمجمة عن طريق فتحة الأنف حتى تستقر بالداخل، فيقوم بلفها حتى تقطع المخ إلى قطع صغيرة يسهل إخراجها من فتحة الأنف، ثم يؤخذ ذلك الجزء بعد خروجه من الجسد لوضع في آنية صغيرة ستدفن في مدخل المقبرة.

أما الجمجمة فبعد تفريغها يُصب بداخلها سائل مادة «الراتنج».

ثم تبدأ العملية الأصعب، وهي إخراج أحشاء ملك مصر العظيم، فيجري إرقاده على جانبه، وبحرص يبدأ المحنّط باستخدام أداة من حجر الظران في عمل فتحة في الجانب الأيسر من الجسد لاستخراج أحشائه التي إن بقيت في مكانها ستعرض الجسد لاحتمالية فشل عملية التحنيط، وهنا يأتي دور أبناء حورس الأربعة «حعبى، أمستى، دوا موت إف، قبح سنو إف»، الذين أمرهم الإله «إنبو» أن يذهبوا معهم لدفن الإله «أوزير»، ها هي الأعضاء الحيوية الأربعة تخرج من الجسد فتُطهّر وتُحنّط وتُكفن ليوضع كل منها بداخل تابوت يأخذ شكل المتوفى مكسوًا برقائق الذهب، ويوضع كل تابوت منها بداخل آنية من المرمر، تحمل كل آنية غطاءً على شكل رأس أحد أبناء حورس الأربعة، الرئتان في آنية تحمل رأس قرد البابون «حعبى»، ثم ليكن الكبد في إناء يحمل رأس إنسان وهو «أمستى»، والمعدة في حماية «دوا موت إف» برأس ابن آوى، وأخيرًا: الأمعاء لـ«قبح سنو إف» برأس صقر.

سيبقى القلب في مكانه؛ لأنه موطن نفس الإنسان، ومصدر أفكاره، وخيره وشره، ليوزن أمام ريشة «ماعت» في حضرة الإله «أوزير»، بينما الكليتان يبقيان أيضًا مثلما قال الإله

الخالق «إنه يسبر أغوار القلب والكليتين». وبعدها سنوضع لفائف الكتان بداخل تجويف البطن والصدر للعمل على امتصاص أسرع لمياه الجسد تمهيدًا للمرحلة القادمة.

والآن حان الوقت لغمر جسد الملك في ملح النطرون، فيوضع الجسد على سرير حجري مائل به قناة تخرج منها السوائل لتنزل في حوض حجري ملحق بالسرير، ستستغرق تلك العملية أربعين يومًا كاملًا من الرعاية المستمرة حتى يخلو الجسد من سوائله مع مراعاة أن تكون ذراعا الملك متقاطعتين على صدره في الوضع الأوزيري، حتى يخرج من الملح أخيرًا بعد ما يقارب أربعين يومًا وقد فقد الجزء الأعظم من سوائله واقترب تحوله إلى مومياء ليُغسل بعدها مرة أخيرة وتُخرج اللفائف الكتانية التي وُضعت بداخل الجسد سابقًا ثم يُوضع على سرير من القش الناعم ليُصفّى من أي بقايا سائلة لا تزال بداخله.

بعدها تبدأ آخر مراحل التحنيط على الجسد الذي تغير شكله قليلًا مع تجفيفه، فمسامه متفتحة، وجلده متصلّب، ولونه يميل إلى البني الغامق، يُعاد الجسد لهيئة لائقة بوضع حشوات الكتان بداخل تجويفي الصدر والبطن والتي تحتوي ملح النطرون والراتنج، وكذلك يوضع معها مزيج من الأعشاب الطبيعية والمواد ذات الرائحة الطيبة، ويُثبت القلب أخيرًا في مكانه بواسطة حلقة ذهبية.

تبدأ عملية دهان المومياء بأجود أنواع الزيوت والدهانات العطرية مع وضع اللمسات لاستعادة ملامح الوجه، بينما يوضع بداخل القفص الصدري والبطن حشوات دائمة من لفائف الكتان المغموسة بالراتنج، وكذلك ملح النطرون، ونشارة الخشب ذات الرائحة الطيبة، والأعشاب التي ستعطي الجسد رائحتها الطيبة، ستبقى تلك الحشوات بداخل الجسد للعمل على استعادته لشكله الطبيعي دون وجود فراغات به، ومع إتمام تلك المرحلة تُغلق جميع فتحات الجسد سواء بالراتنج، مثل الأذنين، أو بالخياطة الطبية، مثل فتحة التحنيط بالجانب الأيسر.

يضمخ الشعر والأصابع بالحناء بينما تُوضع أصابع ذهبية على أصابع يدي وأقدام الملك، يُلبس صنادله الذهبية، ويمسك كل من ذراعيه المتقاطعتين على الصدر بصولجان «حقا» وفي اليد الأخرى المذبة الملكية «نخخ»، ويحاط جبينه بشريط رقيق من الذهب فوقه عصابة أخرى ذهبية مزينة بالكوبرا الملكية «واجيت» ومعها أنثى العقاب «نخبت».

في نهاية الأمر تبدأ المرحلة الأخيرة، وهي تكفين ذلك الجسد ليتحول إلى ما سنسميه لاحقًا مومياء، طبقة بعد طبقة من أفخر وأجود أنواع الكتان، ومع كل طبقة تمائم توضع لحماية الجسد، ومع كل طبقة كتان وتميمة قلادة وحلي وأساور لا يرتديها إلا الملوك والآلهة، ومعها بالتأكيد خنجر الملك الطقسي الذي سيساعده على صرع شياطين العالم الآخر واجتياز

أهواله، ومع كل طبقة وتميمة وقلادة صلاة تُتلى حتى تكتمل اللفائف، ويوضع القناع الذهبي على وجه الملك ليظهره في كامل بهائه بملامحه الحقيقية المصاغة ليعرف باسمه ووجهه ويتحول «حور إم حب» من الصقر «حورس» ملك أرض مصر إلى «أوزير» (متوفى)، انتهت الخطوات المقدسة ويتبقى وضع الجسد في مثواه الأخير في «الحقل العظيم» (تا سخت عاتـ وادى الملوك).

«بارعمسو» وابنه «سيتي».. وداعًا «حور إم حب»

«حورس الثور القوي مجدد الملكية، المحمي من قبل السيدتين «نخبت» و«واجيت» المتجلي كملك مثل الإله أتوم، حورس الذهبي مؤسس الماعت على امتداد أرض الضفتين (مصر)، ملك الشمال والجنوب «من بحتى رع» (فلتدم قوة رع)، ابن رع رعمسو (مولود رع)».

(ألقاب تتويج «رمسيس» الأول).

«أنا ابن مفعم بالبركة لصالح من أنجبه، أنا ابن يجعل اسم أبيه يحيا، كنت مسرورًا على الدوام عند تحقيق ما كان يقوله، لم أصدر مطلقًا أمرًا إلا لتتوافق أفعالي مع رغباته، إلى أن يحين زمن تسلمي للسلطة، فمنذ أن خرجت من بطن (أمي) مثل ثور حقيقي، شاركته مقاصده وتعاليمه، بينما كان هو بعينه بهاء «رع»، كنت أنا كالنجم بجواره، لقد أخضعت له أراضي فينيقيا ومن أجله دفعت الأعداء في البلدان الأجنبية ليعودوا أدراجهم، ومن أجله أحمي مصر، حسب رغبته. فمن أجله أبقى على ملكه، مثل «حورس» على عرش أوزير»، ومن أجله أختار على مر الأيام الماعت، وأحملها مستقرة على صدري، إني أسهر على جنوده، وأبث فيهم وحدة الإرادة، ومن أجله أعددت تقريرًا عن شئون القطرين، ومن أجله أتصرف ببسالة، فأحمي جسده في بلدان أجنبية كنا نجهل اسمها (حتى الآن). إني أتصرف كبطل حتى تتعرف عيناه على كمالي، وعندما لحق بالمنطقة العليا (توفي) أشرقت أنا على عرشه»(22).

«سيتي الأول» متحدثًا عن والده «رمسيس الأول».

في الصباح الباكر ليوم حزين، وعلى ضفاف النهر العظيم يبدأ المصريون في التجمع حول الضفتين لمشاهدة حدث ربما يراه بعضهم لأول مرة، مع أولى نسمات الصبح والشمس ترسل أشعتها على الكوكب يظهر الأسطول الملكي، يمر عبر النهر، يشق الضباب الذي يتبدد ببطء ليكشف الأسطول الهائل لجنازة ملك مصر الراحل «حور إم حب» بعد أربعة عشر عامًا قضاها على عرش مصر، يبدأ الأسطول بالمركب الخاصة بالملك القادم «با رعمسو» (رمسيس الأول)، يرافقه ابنه «سيتي» العاهل القادم بلا شك كلاهما حليق الوجه في كامل الأبهة مع انتهاء أيام الحداد الصامت، يلي مركب المقدمة الرفاص الذي يجر سفينة هائلة الحجم تحمل تابوت الملك وبه جثمانه، تحيطه مظلة ضخمة، يزينها فروع البردي بوصفها رمزًا للبعث من جديد، وذعه محبوه وحاشيته في العاصمة، ووضعوا أكاليل الزهور على جسده، بينما زين القناع الذهبي وجهه، ثم وضع التابوت الذهبي بداخل تابوت آخر من الخشب المذهب، ثم وضعا بتابوت هو أكبرهم مذهب هو الآخر تحيط به أجنحة الحماية، وخلف السفينة الملكية مراكب

أخرى تحمل بقية المتاع الجنائزي من عروش وكراسي وتماثيل للملك والآلهة، وكذلك أواني وجرار تحمل الشراب، وحتى قرابين الطعام المحنط ومعهم ٣٦٥ تمثالًا صغيرًا، وهم الـ«وشب تي» المجيبون الذين سيتولون خدمة الملك في العالم الآخر طوال أيام السنة، وتظهر متألقة بين المتاع مقاصير الملك المذهبة ومعها مقصورة ملفتة للنظر تحيط بها الإلهات الحاميات «آست(إيزيس)، نبت حت (نفتيس)، سرقت، نيت»، كل واحدة تحرس اتجاهًا من اتجاهات الأرض الأربعة وبداخل المقصورة الأواني (الكانوبية) المصنوعة من المرمر التي زُيِّنَ غطاؤها برءوس أولاد «حورس» الأربعة وبداخلها الأعضاء الحيوية الأربعة: «الرئتان، الأمعاء، المعدة، الكبد».

بينما تحمل بقية المراكب كبار رجال الدولة، وأعضاء العائلة، والقصر الملكي، والكهنة المشرفين على الجنازة.

يبدو مشهد الأسطول أسطوريًا يعبر عن مصر نفسها، فيخطف الأعين والأفئدة، وبينما يتحرك عبر المياه يبدأ المصريون في التجمع على ضفاف النهر، وتتعالى أصوات النساء اللائي ينتحبن بل ويهلن التراب على رءوسهن في وداع ملكهم الراحل، وينشدن الأناشيد التي توارثتها منهن (الفعدات) حتى يومنا هذا، كلها تبكي الفقيد الراحل.

«جنازة جميلة نظمت للمتوفى

ليتمكن الإله من الصعود إلى بلده، بلاد النور

ويرافقه الإله إلى درج مملكة الموتى

مرحبًا بك في سلام عند الإله الأعظم

اذهب في سلام إلى هناك، إلى السماء.. إلى بلاد النور

إلى جنات البوص وإلى العالم السفلي».

(من نصوص مقبرة با حرى، مقبرة طيبية رقم ٨٢)(23).

ما إن يصل الموكب عند نقطة الرسو القريبة من البر الغربي حتى يتحول المكان إلى خلية نحل يستمر بها العمل لساعات لتفريغ مقتنيات الملك وتجهيزها للموكب الذي سيتحرك إلى الوادي سيرًا على الأقدام لينتهي عن مقبرته الفخمة التي شيدها في أحضان جبال طيبة.

يبدأ الموكب السائر على الأقدام بالتحرك بين جبال طيبة، يتقدمهم الكهنة الذين يقومون بسكب اللبن على الأرض أمام الموكب عسى أن يكون طريقهم طاهرًا، بينما يجر الزحافة

الثقيلة التي تحتوي على تابوت الملك الثيران القوية، ومعهم أفراد يطلق عليهم «أصدقاء الشعيرة التسعة»، ومعهم وزير الشمال «نب آمون» ووزير الجنوب الذي كان من المفترض أنه «بارعمسو» (رمسيس الأول) نفسه، وربما لم يكن هناك من هو أصلح من «سيتي» ابنة (نائب الوزير) ليتخذ تلك المكانة العظيمة في الجنازة، وجميعهم يعصبون رءوسهم بعصابات الحداد بيضاء اللون، ومعهم المعزون وحملة أفرع البردي وعدد كبير من الشخصيات البارزة ورواد القصر الملكي وعدد هائل من الندابات المحترفات الذين يشق صراخهن وعويلهن وغبار التراب الذي يهلنه فوق رءوسهن صمت الوادي، ويبدو الموكب الذي يتحرك ببطء وكأنه لا نهاية له تتردد على لسان ساحبي التابوت أغنية يغنونها:

«الجنازة الجميلة تأتي في سلام

بعد أن انقضت عليك السبعون يومًا في ساحة تحنيطك

وتوسد على محفة في بيت السكون

وتجرك ثيران بيضاء

ولتفتح لك الأبواب باللبن

حتى وصولك إلى مدخل قبرك

وليتجمع أحفادك

ويبكونك بقلب محب»(24).

ها هو الموكب يصل إلى الجبانة الملكية فتنحى الثيران جانبًا، ويتولى كبار الحضور بأنفسهم سحب الزحافة، وبينما يقتربون كثيرًا من المقبرة تظهر في الأفق مقصورة بدائية صغيرة يقوم فيها الراقصون من الرجال بأداء طقسة «مو» التي تخلد أرواح مدينة «بوتو» القديمة للمساعدة على استقبال «حور إم حب» في حماية الأسلاف، وسرعان ما تنتهي الطقسة ويلتحقون بالموكب بدورهم، الذي ما إن يصل على باب المقبرة حتى نتبين في المقدمة أشخاصًا غاية في الأهمية، فها هو «بارعمسو» ملك مصر القادم متوج بتاج «خبرش» الأزرق، وعلى مقربة منه ابنه ومستشاره المخلص «سيتي»، تظهر سيدتان يبدو عليهما النبل واحدة كبيرة في السن هي الملكة القادمة «سات رع» زوجة «بارعمسو» وأم «سيتي»، والأخرى هي «تويا» زوجة «سيتي» التي تقف هي الأخرى بالقرب من أبيها «رايا» الضابط العتيد في الجيش المصري صاحب المنصب الرفيع «قائد سلاح العجلات الحربية» ومعه زوجته «رويا»، حتى الشباب وصغار السن كان لهم نصيب في المشهد، فنجد فتاة جميلة في

ريعان الشباب تُمسك بيد طفل صغير لا يتعدى الخامسة من عمره، وهما «تيا» و«رعمسو» أبناء «سيتي» وأحفاد «بارعمسو»، إن سارت الأمور على ما يُرام فسيصبح ذلك الطفل الصغير ملكًا يومًا ما، أحضرهم «بارعمسو» إلى جنازة ملكه ورفيق سلاحه الذي تُوفِّي بلا عائلة تقريبًا بعدما تُوفِّيت زوجته الأولى «إمن يا» منذ زمن بعيد، بينما رحلت زوجته الثانية الملكة «موت نجمت» إلى مثواها الأخير منذ عام أو يزيد، كانت عائلة الملك هنا هي عائلة وريثه الذي وثق به واستأمنه على عرش مصر فكيف لا يحضر بأسرته في يوم مثل هذا؟!

أهلًا بك في سلام إلى الغرب!

أنت أيها المهدي

أنت لم تذهب هناك لأنك ميت

ولكن لأنك تحيا، ذهبت إلى هناك

اجلس على عرش «أوزير»

وصولجان «أب» في يدك

لكي تأمر الأحياء

(من مقبرة الوزير «إني إيت إف إقر» وزوجته «سنت»، مقبرة رقم ٦٠ غرب طيبة)(25).

بعدما يضع رجال الموكب الأثاث الجنائزي للملك بداخل المقبرة في مكانه المحدد، تكتمل الشعائر خارج باب المقبرة فيخرج الجسد مرة أخيرة من تابوته ويقيم الكهنة الجسد واقفًا ليُطهر مرة أخيرة، ويكلل بتاج التبرير المصنوع من أوراق الزيتون واللوتس والعنبر، بينما يتقدم «بارعمسو» ليقوم بالشعيرة الأهم وهي فتح فم الملك ليتمكن من استعادة حواسه في العالم الآخر، ها هو يتقدم أمام الجسد الذي يمسك به الكهنة واقفًا يمسك في أدوات إتمام الشعيرة وأشهرها أداة «بسش كف»، وبينما يؤدي «بارعمسو» إيماءات باستخدام الأدوات المقدسة يسود الصمت المشهد، ويتلو الكهنة الصلوات مع كل إيماءة منه.

«أنا أفتح فمك لكي تستطيع أن تتكلم، وأفتح عينيك لكي ترى «رع»، وأذنيك لكي تسمع، وقدميك لتكون قادرًا على السير، وذراعيك لتدرأ بها خطر أعدائك».

(أحد تعاويذ فتح الفم)(26).

يعود الجسد إلى تابوته الذهبي الذي يدخل بدوره إلى التابوتين الأكبر حجمًا، ومن ثم إلى داخل المقبرة التي زُيِّنت جدرانها بمناظر مختلفة للملك الراحل مع الآلهة مع فصول من كتاب

البوابات الديني حتى الوصول إلى غرفة الدفن، والتي يقبع في منتصفها التابوت الحجري الضخم الذي سيوضع بداخله توابيت وجثمان الملك وتوزع بالمقبرة مقتنياته العديدة الثمينة التي ما إن يُنتهى من وضعها جميعًا حتى تُوضع أختام الجبانة على كل شيء وتُتلى صلوات أخيرة بينما صفوة الحضور ومعهم الملك القادم يتراجعون بظهورهم إلى الخلف وآخر من يخرج الكهنة الذين يقومون بمسح آثار أقدامهم تمهيدًا لغلق المقبرة على صاحبها إلى الأبد.

وبينما يخرج «بارعمسو» ومعه ابنه «سيتي» إلى خارج المقبرة تكون الشمس هي الأخرى قاربت على الرحيل إلى العالم الآخر في رحلتها لتشرق من جديد، وبالخارج تقف عائلة «بارعمسو» و«سيتي» يستقبلانهما بالأحضان والطفل الصغير «رعمسو» الذي حمل اسم جده يبدو في كامل بهائه بالأقراط المميزة للأطفال ورأسه الحليق يزينه خصلة شعر يتعلق بأبيه الذي يحمله في حنو بالغ، والجميع يتحركون للخروج من الجبانة التي تخفت أضواؤها واحد بعد الآخر، متجهين نحو ضوء قريب مصدره خيمة الوليمة الكبرى التي تعقب الجنازة، فيتجاذب «سيتي» أطراف الحديث مع ولده الصغير الذي يحدثه عن دروس «تيا» زوج أخته ومعلمه الخاص الذي علمه الكثير من ضمنها أسماء الأراضي الأجنبية في آسيا ومواقعها التي أخذ «رعمسو» الصغير يعدها واحدة تلو الأخرى بينما صوته يذوب في الأفق.

maktabbah.blogspot.com

سيتوَّج «بارعمسو» في احتفال كبير لتعرفه كتب التاريخ لاحقًا باسم «رمسيس الأول» (من بحتى رع) الذي مع تقدمه في السن سيتفرغ للإدارة داخليًا بينما ابنه «سيتي» الذي لا يزال في شرخ الشباب سيتولى شئون مصر الخارجية ليدخل في صراع حقيقي مع إمبراطورية الحيثيين التي فرضت نفسها على العالم القديم، يتفانى «سيتي» في تنفيذ مهامه بإخلاص حتى يحمل لقب الأمير الوراثي هو الآخر، وبعد أقل من عامين سيطير صقر آخر إلى السماء ويتوفَّى «رمسيس الأول» ليتكرر مشهد الجنازة الملكية مرة أخرى، ويذهب «أوزير» آخر إلى مثواه الأخير، ليدفن في الوادي على مسافة قريبة من قائده وملكه السابق.

«لقد التحقت بقارب «رع»

وابتهجت بصحبته

أما أنت، فقد آن لك أن تضطلع بمسئوليات الملكية

التي نشأت تقاليدها منذ الأزل

لا يوجد من يستطيع أن يضاهي ما قمت به من أعمال

ومع ذلك فإني أوصيك بأن تقيم صروحًا للإله

وأن تترك آثارًا باقية تخلد اسمك»

(من وصايا الملك أمنمحات الأول لابنه الملك «سنوسرت الأول»)(27).

---

6 Dodson, Aidan, (2009). Amarna Sunset: Nefertiti, Tutankhamun, Ay, Horemheb, and the Egyptian Counter Reformation. PP 60, 91.

7 Moran, William L. (1987) The Amarna Letters. EA 253, 354 Moran, PP 306, 307.

8 Moran, P 319.

9 Fletcher, Joanne (2000). Chronicle of a Pharaoh, The intimate life of Amenhotep III, Oxford university press 2000, P65.

10 Fletcher, P161.

11 Dodson P 92, 100.

12 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القدمة ج٣ الفكر الديني، الطبعة الثانية ٢٠١٠، ص ٤٩٤.

13 صفاء محمد، سباييت، أدب الحكمة في مصر القديمة (عن ترجمات ميريام ليختهايم وكيلي سمبسون) ٢٠١٥، ص ٤٢.

14 أدب الحكمة ص ٤٣.

15 كلير لالويت، طيبة أو نشأة إمبراطورية، ص ٦٦٨.

16 أدب الحكمة ص ٦٠.

17 باهور لبيب، صوفي أبو طالب، تشريع حور محب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢، ص ٥٣.

18 طيبة: نشأة إمبراطورية ص ٦٦٩.

19 تشريع حور محب ص ٧١.

20 أدب الحكمة ص ٤٥.

21 أدب الحكمة ص ٧٤.

22 كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة، ترجمة: ماهر جويجاتي، المركز القومي للترجمة ٢٠٠٩، ص ١٠٣.

23 "يان اسمان"، الموت والعالم الآخر في مصر القديمة ج١، ترجمة محمود محمد قاسم، المركز القومي للترجمة ٢٠١٧، ص ٣٨٣.

24 "يان اسمان"، الموت والعالم الآخر في مصر القديمة ج٢، ترجمة محمود محمد قاسم، المركز القومي للترجمة ٢٠١٧، ص ١٧٠.

25 يان اسمان الموت والعالم الآخر في مصر القديمة ج١، ص ٣٢٦.

26 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القدمة ج٢، الطبعة الثانية ٢٠١٠، ص٤٣٧.

27 أدب الحكمة، ص ٦٧.

الفصل الثاني: أوجاع رمسيس: رحلة مومياء

ليلة أن تحصى السنون

«وجدنا ممرًا طويلًا يحوي أكثر من ثلاثين تابوتًا مُغطًى بالنقوش ومن خلال الصل الملكى (الكوبرا) والزخارف التي رأيتها أثبتت لي أنها مكان دفن ملكي، لم نستطع إحصاء جميع القطع الموجودة دون إخراجها من تلك المقبرة الموجودة تحت الأرض».

تلغراف من داود باشا رئيس مديرية أمن قنا لإدارة المتحف المصري في بولاق، ٢٥ يونيو ١٨٨١(28).

في الليلة السابقة يدخل «محمد عبد الرسول» إلى نسءءءءءءءءءء مديرية أمن قنا ليطلب مقابلة «داود باشا» رئيس المديرية شخصيًا في أمر مهم.

ونظرًا لأنها لم تكن المرة الأولى التي يوجد أحد من أفراد عائلة «عبد الرسول» في المديرية، فإن «داود باشا» يلبي النداء، ويبدأ «محمد» في الإدلاء بسر خطير.

ـ المقبرة اللي بتدوروا عليها موجودة يا باشا، أنا عارف مكانها، ولو ما اتحركتوش بسرعة الجرنة كلها هتولع نار و«مصطفى عياد» مش هيسكت.

ـ «مصطفى عياد» القنصل؟ وبعدين إنت مش إخواتك قالوا قبل كده إنهم ميعرفوش حاجة؟

ـ نعرف يا باشا، كل البلد عارفة، وأنا هدلكم على مكان المقبرة.

بعد هذه الواقعة بأيام قليلة وتحت جنح الظلام في وادي الملوك يتوجه وكيل المتحف المصري «إيميل بروكش» ومعه سكرتير المتحف «أحمد باشا كمال» وأفراد من قوات الأمن المصري بقيادة «محمد البدوي» وكيل «داود باشا»، يتقدم هذا الجمع أفراد عائلة «عبد الرسول» إلى النقطة التي قمنا بزيارتها مع الأخوين في بداية هذا الكتاب.

كان التوتر واضحًا على «بروكش» الذي أعدّ العدة لتلك الزيارة وقام بتسليح نفسه ومن معه خوفًا من غدر الأهالي الذين يرونهم مجرد معتدين على (كنزهم)، وبينما هم يصعدون الجبل تدور في ذهنه عشرات الأسئلة.. هل عثر هؤلاء العربان بالفعل على مقبرة مهمة؟ الرجل يقول إنهم عثروا على مقبرة لكبار الموظفين ولكن كل المقتنيات تشير إلى ملوك وعائلات الأسرة (٢١) الملكية.. هل سنجد أخيرًا دفنة للأسرة (٢١)؟ ترى هل ترقد مومياء «باي نجم» بينهم؟ والأهم من هذا كله.. هل سنجد مومياوات من الأصل؟!

مع وصولهم إلى سفح الجبل يرى «بروكش» و«أحمد كمال باشا» الحفرة التي غطاها الإخوة «عبد الرسول» ليخفوا (كنزهم) عن الأعين، ومع الكشف عن الحفرة ووضع العروق الخشبية فوقها تمهيدًا للنزول يتبادل «بروكش» مع «أحمد كمال» نظرات توحي بأن كلًا منهما لديه من الأحلام والأفكار التي لو خرجت لانفجرت رأساهما من كثرتها، مع وصول الإثارة إلى الحد الأقصى.

يبدأ «محمد عبد الرسول» في النزول ببطء باستخدام الحبل ويتدلى وراءه «بروكش» و«أحمد كمال».

واللذان ما إن تبتلعهم الحفرة حتى يقف أفراد الأمن في توتر بالغ ممسكين بأسلحتهم في يقظة شديدة.

يصل «بروكش» و«كمال» إلى قاع الحفرة يتقدمهم «محمد عبد الرسول» ممسكًا بشعلته ليدلهم على مكان التوابيت، وبينما يشعل «بروجش» الشمع الذي جلبه لإنارة الطريق، وبينما هو يمضي حتى ترتطم قدماه فيما ارتطم به أحد الإخوان منذ عشر سنوات.

تابوت خشبي كبير الحجم هو بداية مجموعة هائلة من التوابيت لرجال ونساء والأواني والمقتنيات المتراصة بجوار بعضها بلا ترتيب، كان التابوت لكاهن من الأسرة (٢١) يدعى «نب سني»، كما يقول النص المدون فوق التابوت، وخلفه ثلاثة توابيت أخرى بينما على الأرض مجموعة كبيرة من التماثيل والأوانى الكانوبية التي كانت تحفظ بها الأحشاء مع عدد لا بأس به من المقتنيات الأخرى.

مهلًا، هناك ممر جانبي يلقى «بروكش» نظرة على الممر ليجده يتعدى العشرين مترًا، بينما يلوح في نهايته المزيد من التوابيت.

يصل الرجلان إلى نهاية ذلك الممر ليجدا نفسيهما في غرفة مملوءة عن آخرها بالتوابيت فلا يجدان شبرًا ليقفا فيه دون أن يصطدما بأحد التوابيت.

وعلى الفور يبدأ الأثاريان في تفقد تلك التوابيت بحماسة بالغة، يقرأ «بروكش» أول الكتابات فوق أحد التوابيت «نب بحتى رع» فيتدلى فكاه في ذهول، ويتمتم لنفسه: «أحمس»!!! «أحمس الأكبر» قاهر الهكسوس!

تتوجه أنظاره ناحية «كمال» وهو يردد «أحمس الأكبر»، فيرد عليه «كمال» بما قرأ هو الآخر: «من خبر رع»، وهنا يكاد «بروكش» يفقد الوعي.. هذا التابوت يقول: إن من بداخله «تحتمس الثالث» إمبراطور مصر العظيم، وبطله هو شخصيًا، تتوالى الكشوف المذهلة، هذا بداخله «من ماعت رع» (سيتي الأول)، وذلك بداخله «وسر ماعت رع ستب إن

رع» (رمسيس الثاني).

هذا العربي كان يظننا حمقى عندما قال إنه عثر على دفنة لموظفين كبار! هذه توابيت لملوك وملكات مصر، وليسوا أي ملوك بل أعظمهم على الإطلاق!

كيف انتهى بهم الحال هنا؟ وكيف دُفنوا في تلك التوابيت المتواضعة؟

مهلًا! هذا التابوت فارغ!.. إنه لـ«من بحتى رع».. «رمسيس الأول».. أين المومياء؟!

يقطع «كمال» تأملات «بروكش» بجملة حاسمة: «هذه المقتنيات لا بد أن تُنقل فورًا، إن تركناها هنا فسيفتك بنا الأهالي، لا بد أن نتحرك بأسرع وقت».

خبيئة الدير البحري

منذ قدوم «نابليون بونابرت» غازيًا لمصر فيما سُمّي بـ«الحملة الفرنسية»، وبدأت في أوروبا والعالم أجمع حمى وهوس بمصر، أخبارها في كل مكان، وآثارها تخلب لب كل من يراها على الرغم من عدم المعرفة باللغة المصرية القديمة في تلك العصور إلا أن البحث عن الآثار كان بغية كل المسافرين بل وكل الأجانب بمصر، ومع ظهور العالم الفرنسي «جان فرانسو شامبوليون» والتوصل أخيرًا لقراءة رموز اللغة المصرية القديمة زادت تلك الحمى بشكل متصاعد مع تأسيس علم الآثار بشكل علمي لأول مرة.

وحتى القرن التاسع عشر وعلى الرغم من عمليات التنقيب التي لم ترحم شبرًا من تراب أرض مصر لأكثر من مائة عام، إلا أن الباحثين كانوا أمام حقيقة مهمة، وهي أنهم فشلوا في العثور على أي مومياء ملكية، كل الدفنات الملكية قد نهبت بشكل وحشي، ومقابر وادي الملوك التي عثر عليها حتى ذلك التاريخ فارغة من أي مومياوات.

في الفترة بعد العام ١٨٧٠ كان «أوجست مارييت» رئيس مصلحة الآثار المصرية وأمين المتحف المصري آنذاك قد استطاع الحصول على نسخة من «كتاب الموتى» الخاص بالملكة «حنوت تاوي» وهي إحدى ملكات الأسرة (٢١)، البردية كانت حالتها جيدة جدًا بشكل مدهش مما يرجح أنه عُثِرَ عليها مؤخرًا.

لم تكن تلك القطعة استثناء، ففي الأعوام التي تلت ذلك التاريخ ستظهر في أسواق أوروبا برديات ومقتنيات أخرى تعود لأسرة تلك الملكة، وتعود للأسرة (٢١) بشكل عام، وهنا ساور «مارييت» الشك في أن هناك دفنة تخص تلك الأسرة عُثِرَ عليها وأن عملية بيع آثارها كانت بشكل منتظم.

كرس «مارييت» كل جهوده للعثور على تلك المقبرة المجهولة لإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه مما تبقى منها، فكان أشد ما يخاف منه أن تباع تلك المقتنيات ويفقدوها إلى الأبد، إلا أن القدر لن يمهله، وسيتوفى عام ١٨٨١ دون أن يتوصل إلى شيء.

يظهر على الساحة فرنسي آخر وهو «جاستون ماسبيرو» الذي استلم المنصب من «مارييت باشا»، وقد عقد العزم على إتمام مهمة العالم الراحل، وهو ما سينجح في فك طلاسمه بمساعدة «إيميل بروكش» و«أحمد باشا كمال».

وقد وصف «ماسبيرو» ما حدث وبدقة شديدة في كتابه «مومياوات الدير البحري الملكية ١٨٨٩»، وقد اعتمد ذلك الكتاب على اعترافات الإخوة «عبد الرسول» وشهادات الأهالي، وكذلك التقارير والتلغرافات الرسمية التي صاحبت هذا الكشف.

كان أول ما نفاه «ماسبيرو» هي القصة المزعومة للعنزة التي فقدت وبحثوا عنها حتى وجدوا الدفنة بالصدفة، فهو يؤكد أن «عبد الرسول» كانوا نباشي قبور محترفين وتجار آثار، وأن الكشف لم يكن بالصدفة كما زعمت الصحف وقتها، هؤلاء كانوا محترفين في البحث عن الآثار، وقد قادهم هذا البحث إلى ذلك الكشف الفريد والذي من المستحيل أن يحتفظ بسره الأخوان فقط أو حتى عائلة «عبد الرسول» كلها، لا بد أن جيرانهم بل وقرية «شيخ عبد القرنة» كلها تشاركت هذا السر في مقابل نصيب مما يبيع، لقد اعتبر هؤلاء الأهالي أن هذه الخبيئة ملكية خاصة لهم، (كنزهم) كما يحلو «لماسبيرو» أن يسميه.

كان هذا الكشف سنة ١٨٧١؛ أي قبل عشر سنوات من العثور عليه في يوليو ١٨٨١، وقد كانت عائلة «عبد الرسول» من الفطنة والذكاء أنهم علموا بأهمية ذلك الكشف مع العلامات الملكية من خراطيش وصل ملكي (الكوبرا الملكية) التي تزين التوابيت، كذلك فإنهم كانوا شديدي الحذر، حيث إنهم زاروا تلك الخبيئة ثلاث مرات فقط خلال عشر سنوات، وكان ذلك تحت جنح الظلام ولساعات معدودة لكي لا ينكشف أمرهم.

كان الإخوة يبيعون ما حصلوا عليه للسائحين وأثرياء أوروبا وأمريكا المهووسين بالآثار كل شتاء، وكان مخططهم للمومياوات والتوابيت أن تُباع لأحد الأثرياء ممن يكفي ماله لشرائها دفعة واحدة ويغطي نفوذه ما يمكنه من تجاوز الجمارك المصرية.

في باريس رأى «ماسبيرو» بنفسه آثارًا تحتوي على اسم «خع خبر رع» وهو لقب اثنين من ملوك مصر القديمة الأول «سنوسرت الثاني» من الأسرة (١٢)، والثاني «باي نجم» من الأسرة (٢١)، وقد كان «ماسبيرو» يميل للثاني أكثر مع توالي المعلومات، في عام ١٨٧٦ عندما أراه ضابط إنجليزي يدعى «كامبل» بردية تخص «باي نجم» قد حصل عليها من طيبة من تاجر آثار يُدعى «مصطفى أغا» بمبلغ ٤٠٠ جنيه إسترليني، وبعدها بسنة أراه «دي سالوسي» بردية أخرى تخص الملكة «نجمت» أم «باي نجم»، حصل عليها ترجمان سوري من الأقصر، بل إن «ماسبيرو» قد اشترى في السويس بردية للملكة «دوات حتحور- حنوت تاوي»، وبحلول عام ١٨٧٨ ومع ظهور آثار تخص أميرة أخرى من نفس الأسرة وهي «نس خونسو» تأكد «ماسبيرو» أن نابشي القبور قد اكتشفوا دفنة ملكية أو أكثر تعود للأسرة (٢١).

مع وفاة «ماريت باشا»، وتولي «ماسبيرو» المهمة كانت الأمور غاية في الصعوبة، فهو لا يعلم من أين يبدأ وكذلك فإن عمليات التنقيب والبحث ستبوء بالفشل بل والأدهى أن استجواب الفلاحين لن يؤدي إلى أي نتيجة.

استعان «ماسبيرو» بمساعدة طالب سابق له وهو الأمريكي «تشارلز إدوين ويلبور» الذي

أكد شكوكه، فقد كان موجودًا في الأقصر وقتها وطرح أسماء بعينها مسئولة عن تداول تلك الآثار وهي «عائلة عبد الرسول» وتاجر آثار يدعى «مصطفى أغا».

فتح «ماسبيرو» تحقيقًا مطولًا مع السائحين ومشتري الآثار الذين أكدوا المعلومة السابقة بأن «أحمد ومحمد عبد الرسول» متورطون في سرقة وبيع الآثار برعاية «مصطفى أغا عياد»، وهو أقصري من أصول تركية كان يعمل قنصلًا لدول عدة، منها: إنجلترا، وبلجيكا، وروسيا، وغيرهم من الدول، بل إنه شيّد منزله بداخل معبد الأقصر.

كانت محاصرة «مصطفى أغا عياد» تعتبر شبه مستحيلة مع حصانته الدبلوماسية ووضعه بوصفه إمبراطورًا متوجًا لمدينة الأقصر، لذلك وجه «ماسبيرو» اتهامه للإخوة «عبد الرسول». وفي أبريل ١٨٨١ أرسل لرئيس شرطة الأقصر لكي يلقي القبض على «أحمد عبد الرسول» وأرسل لـ«داود باشا» رئيس مديرية قنا، وكذلك لوزير الأشغال العامة يطلب فتح تحقيق مع سكان قرية «شيخ عبد القرنة» أو «الجرنة» كما يطلق عليها الأهالي.

وجه «ماسبيرو» إلى «أحمد عبد الرسول» تهم الحفر خلسة، بيع الآثار وتدميرها، ولكن الأخير أنكر جميع التهم بل إنه عرض عليهم تفتيش منزله ولم يُسفر هذا التفتيش عن أي شيء ذي أهمية، وكان «ويلبور» تلميذ «ماسبيرو» يظن في البداية أن المنزل الأبيض الجديد الذي شيده الأخوان «عبد الرسول» في القرنة يقع فوق مقبرة الكاهن الملك «باي نجم الأول» ولكن هذا أيضًا ثبت خطؤه.

لذلك قرر «ماسبيرو» في ٦ أبريل ومع وصول الإذن الحكومي بالتحقيق الرسمي إرسال «أحمد» ومعه إخوه «حسين» إلى مديرية أمن قنا، حيث سيستجوبهم «داود باشا» بنفسه، ويبدأ في إجراءات محاكمتهم.

كان «داود باشا» هو أكثر ناس يهابه المحليون كبيرهم قبل صغيرهم، لم يدخر «داود باشا» أي جهد في التحقيقات بل إنه ومن شدة تعذيبه لأحد الأخوين تسبب له في عاهة ستجعله أعرج لبقية حياته، وعلى الرغم من ذلك فلن تضيف نتيجة التحقيق شيئًا جديدًا، فالمعلومات المتوفرة لا تزال أن «أحمد عبد الرسول» يعمل لحساب «مصطفى أغا عياد»، وأنه كان يخدم في منزله، من الواضح أن «أحمد عبد الرسول» كان يظن أن عمله لدى «عياد» سوف يضفي عليه هو الآخر حصانة من نوع ما، كان من الواضح أن «عياد» بهذه الحصانة الدبلوماسية نجح في اجتذاب خدم مخلصين له، وضمن بذلك أن تكون تجارة كل آثار الأقصر بين يديه.

ما زاد الطين بلّة هو قدوم وجهاء وأعيان «القرنة» للشهادة في صالح «أحمد»، ففي حضرة

«علي أفندي حبيب» مفتش آثار دندرة شهد هؤلاء تحت القسم أن «أحمد» من أكثر الناس إخلاصًا، وأنه لم يسبق أن سرق شيئًا، وأنه لا يستطيع سرقة قطعة صغيرة من الآثار، فما بالك بمقبرة ملكية؟!

فى النهاية أُفرِج عن «أحمد عبد الرسول» مؤقتًا بضمانة «أحمد سرور» و«إسماعيل سيد نجيب» وهما بعض معارفه، وقد عاد إلى منزله بحلول بمنتصف مايو بعد شهرين من السجن.

هنا، وعند تلك النقطة من التحقيقات يعود «ماسبيرو» إلى القاهرة مرة أخرى، ويترك الأمر في يد مديرية قنا مع العزم على العودة في الشتاء مرة أخرى، مع وصوله للقاهرة يجد «ماسبيرو» انتقادات موجّهة للمتحف تحاول إثناءهم عما يفعلونه ولكنها لم تكن من القوة لإيقاف البحث.

مع عودة «أحمد عبد الرسول» إلى «القرنة» كان لديه شروط جديدة على إخوته، فمع ما عاناه من التعذيب والسجن طلب أن يحصل على نصف الكنز بدلًا من الخُمس الذي حددوه له من قبل، بل إنه هددهم إن لم يرضخوا لما طلب فسوف يذهب بنفسه إلى المديرية ليفشي السر.

وهنا ومع حدة الخلافات في «القرنة» واشتعال الأمور يتوجه كبيرهم «محمد عبد الرسول» بنفسه إلى مديرية قنا ليفشي السر.

ومع اعتراف «محمد» يقوم «داود باشا» بمعاينة الموقع بنفسه، ويرسل التلغراف الذي ذكرناه في أول هذا الفصل.

يذكر «ماسبيرو» أن ظروفًا خاصة اضطرته للسفر إلى أوروبا؛ لذلك ترك سلطاته في يد مساعده «إيميل بروكش» و«أحمد كمال» سكرتير المتحف ومعهم الأرميني «ثاديوس ماطفيان» مدير آثار الهرم ليتوجهوا بأومر من الخديو صدرت لتاريخ ٢٧ مايو- إلى الأقصر على متن مركب المنشية وربانها «محمد عبد السلام»، ومع وصولهم إلى قنا يسلمهم «داود باشا» أواني كانوبية (تستخدم لحفظ الأحشاء) تخص الملكة «أحمس نفرتاري» مع برديات جنائزية للملكات «ماعت كا رع»، «إيست إم خب»، والأميرة «نس خونسو» قد وجدهم «داود باشا» عندما ذهب لتفتيش بيت «عبد الرسول» الأبيض مرة ثانية، والذي كان يعتقد «ويبلور» أن الأخوان شيداه فوق مقبرة الملك «باي نجم».

بعد ذلك تستمر القصة ليؤكد «بروكش» و«كمال» الكشف المذهل مُتخذين العدة لنقل الخبيئة إلى «القاهرة» بأسرع وقت لتستقر في متحف «بولاق».

يُجهز العمال لنقل محتويات الخبيئة ويستغرق الأمر شهرًا كاملًا لتفريغها من محتوياتها تحت حراسة مشددة، حتى ينجحوا بعد شهر من شحن جميع المومياوات وبينهم «رمسيس الثاني» على متن سفينة ستكون وجهتها النهائية هي القاهرة.

«والآن في حدث، أو سلسلة أحداث مذهلة تنقلت من شفاه للأخرى ومن قارب للآخر، بينما الأخبار تطير بسرعة من مصر، كان معروفًا حتى الآن أن هؤلاء الملوك والملكات نُقِلوا إلى القاهرة، وعلى امتداد أكثر من خمسين ميلًا على ضفاف النيل من طيبة قام الفلاحون بالتجمع في أعداد كبيرة ليس لمشاهدة محتويات طوابق الباخرة ولكن لإظهار الاحترام لهؤلاء الموتى الأغنياء عن التعريف؛ فتجري النساء على ضفاف النهر في أثر الباخرة بشعر أشعث تسبقهن صرخاتهن في نواحٍ على الموتى، بينما الرجال في صمت مهيب يطلقون الأعيرة النارية لتحية ملوكهم وهم يمرون أمامهم، وبكل تأكيد فإن التاريخ يُعيد نفسه بشكل أكثر غرابة مما كان عليه الحال في عصر «رمسيس» ورفاقه، بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام من دفنهم على ضفاف النيل معززين مكرمين».

(من إحدى رسائل «جاستون ماسبيرو» التي قامت بنشرها «أميليا إدواردز» ١٨٨٩)(29).

«رمسيس» في القاهرة

لم يكن اكتشاف مومياء «رمسيس الثاني» في خبيئة الدير البحري هو نهاية رحلة «رمسيس» الطويلة لنيل الخلود، ليرقد جسده إما في متحف، أو حتى يعود إلى مقبرته.

مع اكتشاف المومياء زادت الأوجاع أكثر فأكثر، وكان «رمسيس» على موعد مع رحلة طويلة تقارب التسعين عامًا، بعد نقل توابيت خبيئة الدير البحري إلى المتحف المصري في بولاق وقتها في عام ١٨٨١، حتى أعلن مدير المتحف المصري «ماسبيرو» الخبر لجميع الهيئات الأكاديمية العالمية، بينما قامت الصحافة بتغطية الخبر في نوفمبر من نفس العام.

وُزِّعت المومياوات بين قاعة المتحف المركزية وقاعة المجوهرات، بينما المتاع الجنائزي للخبيئة من أوانٍ وصناديق وحتى تماثيل نُقِل إلى مخزن المتحف، بينما «ماسبيرو» يلح على طلبه في توسعة المتحف فيقوم «إسماعيل باشا أيوب» وزير الأشغال العامة بتوفير الأموال اللازمة لتلك العملية لبناء قاعات جديدة مع تزويدها بإضاءة ملائمة، وفي العام المقبل سيوفر الوزير التالي «محمد باشا فهمي» ١٢ خزانة عرض زجاجية لعرض أكثر المومياوات التي تناسب حالتها العرض، مع كسوة جدران القاعة بغطاء خشبي، ومع حلول عام ١٨٨٦ وبعد الكثير من المصاعب الأخرى تستقر المومياوات في خزائنها الزجاجية في قاعات العرض أخيرًا.

بعيدًا في جبال غرب «طيبة» قد حافظت طبيعتها الصحراوية الجافة على المومياوات من الفناء على الرغم من تدنيس اللصوص لتلك المومياوات أكثر من مرة قديمًا وحديثًا، أما في بولاق فالوضع يختلف؛ فالمومياوات مكشوفة لطبيعة الدلتا الرطبة ولهجوم البكتيريا والجراثيم، كما أن تأخر عملية الحفاظ على تلك المومياوات من العوامل البيئية واتخاذ التدابير اللازمة بشكل كافٍ قد صعَّب الأمور كثيرًا، ولا ينسى أحد ما حدث قبل ذلك، فيضان عام ١٨٧٨ والذي تحوَّل معه المتحف إلى بحيرة تسبح فيها الآثار والمومياوات.

على الرغم من أن الكهنة والمحنطين القُدامى قد دوَّنوا وبكل دِقَّة فوق التوابيت نفسها عملية النقل من مكان إلى آخر وهوية الراقدين في التوابيت بشكل كبير، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لإشباع فضول حاكم مصر وقتها «الخديو توفيق» والذي أصرَّ على عملية مدمرة وهي تحديد هوية تلك المومياوات بشكل عام، وكما جرت العادة في حياته ومماته كان «رمسيس» محل اهتمام خاص لتأكيد هويته هذه المرة، وحقيقة الأمر أنها لم تكن رغبة «توفيق» وحده ولكنها كانت رغبة عارمة لدى «ماسبيرو» ومساعده «بروكش» ربما أعطاهم طلب الخديو مبررًا وقتها؛ لذلك كان التاريخ على موعد مع تحديد هوية المومياوات، أو إن شئت فقل

تجريدها من لفائفها وإقلاق سباتها الطويل الذي قطعه المدنسون طوال العصور.

«رمسيس» يفيق من سبات طويل.. فك لفائف المومياء

يونيو، ١٨٨٦

٠٩:٠٠ ص

مائدة كبيرة تستقر في إحدى قاعات متحف «بولاق» يحتشد حولها وبالقرب منها العديد من الحضور بالغي الأهمية من كبار رجال الحكومة ووزرائها والعلماء وحتى أطباء وفنانين يتقدمهم الخديو «توفيق» بنفسه والذي لديه هوس بالغ بحضارة مصر القديمة، بل إنه كان يعتبر نفسه سليل هؤلاء الملوك وسلسال «رمسيس» شخصيًا، كان هو من اقترح أن تكون مومياء «رمسيس» هي أول المومياوات التي تُفك لفائفها، وكان له ما طلب.

بقية الحضور عدد من كبار رجال الدولة المصرية (مصريين وأجانب)، بينما حول مسرح العمليات ـالمائدةـ يتصدر الحضور الفرنسي «جاستون ماسبيرو»، والذي يحمل مبنى الإذاعة والتلفزيون اسمه الآن، هذا الرجل المحظوظ الذي تولى منصب رئيس مصلحة الآثار ومدير المتحف المصري خلفًا لفرنسي آخر وهو «أوجست ماريت» في ١٨٨١ ليكون على موعد من اكتشاف خبيئة الدير البحري في نفس العام وهو ابن الرابعة والثلاثين، بالقرب منه يقف أخوه غير الشقيقـ والمسئول عن مصلحة الآثار «هيرفي بازل»، ومعهم عالم الآثار الفرنسي «أوربان بوريان»، وكذلك جامع الآثار والمصور «يان إنسنجر»، وأخيرًا: الطبيب «دانييل فوكيه».

بالقرب من ماسبيرو مساعده الألماني «إيميل بروكش»، والذي قام بنفسه مع «أحمد كمال باشا» بالإشراف على عملية نقل مومياوات الخبيئة إلى المتحف المصري، والحقيقة التي يعلمها «ماسبيرو» عنه هي فضوله اللامتناهي ذو الآثار المدمرة، حيث إنه في عام ١٨٨١ ومع نقل المومياوات إلى المتحف المصري قام «بروكش» ـفي غياب ودون إذن «ماسبيرو»ـ بفتح تابوت الإمبراطور «تحتمس الثالث» بل وفك المتبقي من لفائف المومياء ليلقي نظرة على وجهه الذي لطالما حلم به، لم يكتفِ بذلك بل قام أيضًا في غياب ماسبيرو ودون إذنه مرة أخرىـ في سبتمبر ١٨٨٥ بفتح تابوت الملكة «أحمس نفرتاري» زوجة الملك «أحمس الأكبر» قاهر الهكسوس؛ لذلك كان من المحتّم أن يتخذ «ماسبيرو» قرار فك لفائف المومياوات بنفسه فإن لمن يفعل لقام البائس «بروكش» المدفوع بطيشه بفك جميع اللفائف ليضيع على العلم فرصة ذهبية للتوثيق والمعرفة؛ لذلك اتخذ «ماسبيرو» قراره بفك لفائف المومياوات وتوثيق العملية ونشرها علميًا لاحقًا.

يقوم بعض الحاضرين من العاملين بجلب تابوت خشبي فخم الشكل ووضعه على

الطاولة، والذي على الرغم من تواضع توابيت الدير البحري جميعًا إلا أن تابوت «رمسيس» كان من الواضح أنه من إنتاج الورش الملكية من نوعية خشب جيد، هذا التابوت يدل على احترام بالغ لملوك الأسرة (٢١) لـ«رمسيس الثاني» تحديدًا رغم مرور ما يُقارب من مائتي وخمسين عامًا على وفاته في عصرهم.

عند النظر للوهلة الأولى إلى هذا التابوت ربما تختلط عليك ملامحه مع ملامح الملك «توت عنخ آمون» فهو يتشابه كثيرًا مع توابيته وقناعه الذهبي الأشهر، وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة أن هذا التابوت كان مخصصًا لملك آخر يعود لفترة العمارنة وربما «حور محب» تحديدًا.

المهم دعنا من هذا كله، ولنراقب عن كثب ماذا يفعله «ماسبيرو» ورجاله.. يبدأ الحضور في رفع غطاء التابوت ببطء، وبحرص شديد ومن ثم يضعونه جانبًا، بينما يرتكب «ماسبيرو» خطأً فادحًا، فلم يقم أو يأمر بالتقاط أي صورة للمومياء قبل فك اللفائف، بل إن التوثيق الفوتوغرافي سيغيب عن معظم العملية لتظهر فقط صور المومياء بعد فك اللفائف.

لذلك ستكتفي كتب التاريخ بالرسم الدقيق الذي تركه عالم النبات الألماني «جورج شواينفورث» عام ١٨٨٤ والذي كان أشبه بصورة فوتوغرافية للمومياء تظهره في كفن من الكتان مُغَطًى بأكاليل الزهور.

عند هذه النقطة يسود الصمت القاعة، ويترقب الجميع عملية إزاحة الكفن ببطء ولكن بثقة يقوم «ماسبيرو» بعمله، تنفك اللفائف والتي من الواضح أنها كانت أحدث أضيفت مع عملية إخفاء المومياء إلى اللفائف القديمة التي باتت حالتها سيئة للغاية ومهترئة جراء أفعال اللصوص، كلما تنزاح طبقة تزداد إثارة الموجودين، ويبدو أن كل لفافة وكأنها تطوي صفحة من صفحات التاريخ، حتى تصل العملية إلى ضرورة وضع المومياء على جانبها، ومن ثم وبحرص شديد جدًا يرقدن «رمسيس» على جانبه حتى يحدث ما لم يكن في الحسبان، فتفلت المومياء منهم لتقع على الأرض، فيرتد الحاضرون للوراء في فزع شديد، ويسود الهرج والمرج القاعة لدقائق قليلة ليصبح المكان في فوضى عارمة بينما «ماسبيرو» يصرخ لتهدئتهم، والخديو «توفيق» في قمة انفعاله وإثارته.

يعود الهدوء إلى الغرفة مرة أخرى مع عودة المومياء لمكانها على المائدة، وهنا يصل «ماسبيرو» إلى لحظة الحقيقة مع ظهور آخر طبقات الكتان على صدر الملك، إن صحت توقعاته سيجد اسم صاحب الجسد مكتوبًا على تلك الطبقة كما حتمت التقاليد المصرية العتيدة للمُحنطين.

يبدو «ماسبيرو» وكأنه في انتظار الإذن ليزيح تلك الطبقة، ويقطع حيرته إيماءة من الخديو يحثُّه على استكمال عمله، يلتقط «ماسبيرو» النداء ويبدأ في إزاحة الطبقة الأخيرة ومن ثمَّ يلتقط عدسة ستساعده على الرؤية، ومن ثم يرى «ماسبيرو» خرطوشًا ملكيًا واضحًا!

يدوي صوته وكأنه قنبلة ألقيت في الغرفة «وسر ماعت رع ـ ستب إن رع».

تتعالى صيحات انتصار من بعض الحضور في القاعة بينما تلتمع أعين آخرين بالانتصار و«ماسبيرو» لا يزال يردد بصوت مرتجف:

«وسر ماعت رع ـ ستب إن رع»

«وسر ماعت رع ـ ستب إن رع»

إنه هو، إنه لقب تتويج «رمسيس الثاني»، تلك الصيغة اللغوية التي تترجم «القوى بماعت رع، المختار من رع».

«السادة الكرام، لقد تأكدت هوية الملك، من يرقد أمامنا هو «رمسيس الثاني» بشخصه».

بعد مقولته.. يجلس «ماسبيرو» وجسده كله يرتجف من فرط الإثارة بهذا الكشف المبهر، بينما يجهز مساعدوه الجسد القادم من مومياوات الخبيئة لفحصه وتأكيد هويته.

مهلًا! انتظروا، لا تدعوا «بروكش» يجهز الجسد القادم.

يد «رمسيس» تعود للحياة

لم يكن تجريد «رمسيس» من كفنه هو نهاية هذا الفصل من قصتنا، في ١٩٠٧ ومع نقل مقتنيات المتحف المصري ببولاق إلى المتحف الجديد بالتحرير (المتحف الحالي) يسجل الرحالة والكاتب الفرنسي «بيير لوتي» قصة عجيبة عن مومياء «رمسيس»، معجزة أخرى من معجزاته كما يحلو لعالمة الآثار «كريستيان نوبلكور» أن تسميها.

زار«لوتي» المتحف المصري في رحلة ليلية برفقة «ماسبيرو» شخصيًا، وفي ثنيات كتاباته ذكر تلك القصة المذهلة...

«في يوم ما وفي حركة غير متوقعة، يفر الزائرون من المتحف خوفًا وهلعًا بينما يصرخ حارس القاعة (الحقوني)، ترتد اليد اليسرى لمومياء «رمسيس الثاني» لترتفع إلى الأعلى»(30). وهو الوضع الذي لا تزال المومياء عليه حتى يومنا هذا، هذا الارتداد الذي كان له نصيب من الخرافات في عصرنا الحديث تفوق القصة نفسها سنرجع له في فصول أخرى.

فسر «لوتي» تلك الواقعة بأن الشمس وقعت على عظام يد وكوع «رمسيس» لتسبب في تمددها ومن ثم تسببت في تلك الوضعية، بينما شكك علماء الآثار في تلك القصة حيث إن «لوتي» لم يأتِ مصادر أو أدلة على قصته، كما أن صورًا سابقة لفحوصات مومياء «رمسيس» تُظهر اليد بالفعل في وضع مشابه.

ربما سمع «لوتي» تلك القصة من الترجمانات وحراس المتحف الذين اعتادوا سرد الأساطير عن الآثار لإبهار السائحين، ومن ثم استساغها «لوتي» فذكرها في كتابه.. على أي حال لن نعرف الحقيقة كاملة مع مرور كل هذا الزمن، ولكن إبهار وإثارة تلك القصة جعلها من القصص الشهيرة المتعلقة بمومياء «رمسيس» والتي رددها الكثيرون وحتى العلماء في كتاباتهم عن «رمسيس».

لم يكتفِ «لوتي» بذكر تلك الواقعة فحسب ولكنه ذكر أيضًا أن حالة المومياوات كانت سيئة، وسجل أنه جرى عمل حمام ببخار الزئبق لمومياء «رمسيس» لوقف نشاط الفطريات والطفيليات عليها.

مرة أخرى مع حلول عام ١٩١٠ يقوم الطبيب البريطاني «جرافتون إليون سميث» بفحوصات أخرى لمومياوات الخبيئة كما قام بفحص مومياوات خبيئة ملكية أخرى عُثِر عليها في المقبرة (٣٥)، ويقوم بنشرها عام ١٩١٢ بعنوان «المومياوات الملكية»(31) مع الفهرس العام لمتحف الآثار المصرية، ليخرج عمل كامل ولأول مرة يشمل وصفًا تفصيليًا لجميع

المومياوات الملكية وغير الملكية المكتشفة حتى وقتها.

ومع توالي عمليات الفحص والدراسة يتوصل العلماء لحقائق مهمة؛ وهي أن ليست جميع المومياوات توصل العلماء لهويتها، هناك مومياوات وضعت في توابيت تحمل أسماء مختلفة عمن يرقد بداخلها، هناك مومياوات مجهولة، والأهم هناك مومياء ملكية غاية في الأهمية تابوتها فارغ منها، مومياء الملك «رمسيس الأول» جد «رمسيس الثاني».

تحظى المومياوات ببعض من الهدوء حتى العام ١٩٦٧، تخضع المومياوات للفحص بالأشعة السينية لتُنشر تباعًا في عامي ١٩٧٢، و١٩٨٠(32) على يد الطبيب «جيمس هاريس» والذي سيلعب دورًا مهمًا في مستقبل الحفاظ على مومياء «رمسيس» سنسرده في الفصول الآتية، وبحلول السبعينيات يبدأ الاهتمام بالمومياوات الملكية في الخفوت تدريجيًا، بينما تتصاعد اهتمامات من نوع آخر لتعيد تسليط الأضواء على «رمسيس» منفردًا ليبدأ فصلًا جديدًا من أوجاعه.

بموافقة «السادات».. «رمسيس» يطير إلى باريس

يقف الرئيس الفرنسي «جيسكار دستان» مع الرئيس المصري «أنور السادات» في منظر مهيب يطل على قناة السويس من مدينة «بورسعيد» الباسلة، وذلك في الزيارة التاريخية التي قام بها «ديستان» لمصر عام ١٩٧٥ في أول زيارة منه خارج فرنسا بعد توليه السلطة، ويبدأ الرئيس الفرنسي في طرح أمر مهم على مسامع «السادات»:

- «السيد الرئيس، لقد واتتني فكرة ممتازة بخصوص الموضوع الذي تحدثت معك عنه.. ماذا لو جرى استقبال مومياء «رمسيس الثاني» استقبالًا جمهوريًا كما نفعل مع الرؤساء والملوك؟ سيكون الحرس الجمهوري في استقباله ليؤدوا له المراسم وسيكون الحضور من صفوة الحكومة الفرنسية... ما رأيك؟».

يبدو التفكير على ملامح «السادات»، ليجيب بإجابة سريعة مقتضبة: (سنرى).

كما يروي الرئيس الفرنسي السابق «ديستان»: كانت هذه هي لحظة موافقة الرئيس الراحل «السادات» على خروج مومياء «رمسيس» من مصر في رحلة علاجية كان الجانب الفرنسي يصر عليها بإلحاح شديد(33).

في نفس العام وخلال إقامتها بالقاهرة تذكر عالمة الآثار الفرنسية «كريستيان نوبلكور» أن حالة مومياء «رمسيس» لا تسر، وأن الروائح المنبعثة منها لا تتشابه إطلاقًا مع عبق الراتنج والمواد العطرية التي حُنِّط بها في الماضي.

في تلك الفترة كانت «نوبلكور» تعدُّ العدة لمعرض «رمسيس العظيم» في باريس والذي أقيم عام ١٩٧٦، واحتوى على مقتنيات لـ«رمسيس الثاني» ليشاهدها سكان باريس وفرنسا بأكملها في معرض مؤقت ستعود بعده القطع إلى القاهرة مرة أخرى، وهنا ظهر الاقتراح بأن تكون مومياء «رمسيس» بين المعروضات وهو ما قُوبِل بالرفض من مسئولي هيئة الآثار وقتها، وبعدها سيظهر اقتراح أكثر غرابة بان تعرض مومياء «رمسيس» في أوبرا عن الحضارة المصرية ومثل سابقه رُفِض(34).

في ذلك الوقت كانت مدام «نوبلكور» تُشدِّد على وجود طفيليات من نوعٍ ما تهدد المومياء، ورأت ضرورة نقلها إلى فرنسا لعلاجها من هذا الخطر غير المعروف نوعه وقتها.

مع رفض الحكومة المصرية لطلب نقل المومياء، توجهت مدام «نوبلكور» بطلبها إلى الرئيس الفرنسي «جيسكار ديستان» والذي نقل الطلب بدوره إلى الرئيس «السادات»، ورفض الطلب مرة أخرى.

حتى كانت زيارة الرئيسين إلى بورسعيد والتي حصلت فيها فرنسا على الموافقة باستضافة «رمسيس» في رحلة علاجية، وكما يذكر الرئيس «ديستان» أن الموافقة تمت بعد اقتراحه أن يعامل «رمسيس» معاملة الملوك والرؤساء.

سافرت المومياء بإشراف كامل من مدام «نوبلكور» التي كانت بمثابة قائد الأوركسترا التي تولت التنسيق مع الجهات البحثية التي ستشرف على العملية جنبًا إلى جنب مع «د.ليونيل بالو» مدير متحف الإنسان، وكذلك «جان دورست» مدير متحف التاريخ الطبيعي، على أن تتحمل فرنسا مسئولية تأمين وسلامة «رمسيس» طوال الزيارة، وقد شملت الترتيبات لزيارة «رمسيس» ما يقارب من ١٦٥ باحثًا في المجالات كافة، مع خدمات أكثر من ٢٠ مؤسسة بحثية في مشروع حمل اسم «العملية رمسيس».

تذكر مدام «نوبلكور» أنه أثناء إعلامها للحكومة المصرية بحاجة «رمسيس» للعلاج قد تعهدت بعدم حدوث أي دعايا أو بروباجندا حول «رمسيس»، وألا تجري على المومياء أي تجارب من أي نوع على أن تكون جميع الفحوصات والدراسات اللازمة لكشف سبب تدهور المومياء من الخارج فقط.

كانت المحطة الأولى لمومياء «رمسيس» هي متحف الإنسان في قلب العاصمة الفرنسية «باريس» ما بين ميدان «تروكاديرو» وبرج إيفل، وهناك خُصِّصت قاعة كبرى معقمة لاستقباله وبرئاسة دكتور«بالو» مع أكثر من ١١٠ مساعدين له منهم ٦٣ باحثًا علميًا في مختلف المجالات، لمعرفة أسباب تدهور المومياء وماذا حلَّ بها ومن ثم العمل على علاجها.

تضيف «نوبلكور» أيضًا أنهم اتبعوا توصيات وشروط الحكومة المصرية المتعلقة بالأمن والسلامة أثناء عملية البحث، وتذكر تنفيذ ذلك على أكمل وجه وبأكبر قدر من الاحترافية.

ولم تنسَ «نوبلكور» وضع لمساتها على قاعة العلاج، حيث زيَّنت أحد الجدران بأحد مناظر «رمسيس» الحربية من على جدران معبد «أبو سمبل» لتكون صورة «رمسيس» في شبابه وعنفوانه مرافقة لرحلة علاجه.

أما عن ملخص نتيجة فحص المومياء فكان على الشكل الآتي:

- طول المومياء لا يقل عن ١٧٥ سم (وهو ما كان استثنائيًا في المجتمع المصري القديم الذي كان متوسط الطول فيه أقل من ذلك بكثير)، كما أنه كان أبيض البشرة!

- وجد في تجويف القفص الصدري بقايا مواد طبيعية استخدمها المحنطون المصريون في تطهير المومياء، وفي تجويف البطن بقايا من أنسجة زرقاء وذهبية اللون والتي ترمز لملوك مصر، وعلى عنق «رمسيس» آثار من قشارة بصيلات النرجس ذات الرائحة الطيبة.

- كشف التصوير الإشعاعي للمومياء عن معاناة «رمسيس» من آلام شديدة بأسنانه بسبب تآكل في عظام الفكين علوي وسفلي، كذلك وجود خراريج على مستوى جذور الأسنان مع تسوس بالضروس يبدو أن معالجي الملك لم يجدوا سبيلًا لعلاجه أثناء حياته.

- بفضل عدد من فحوصات أشعة إكس اكتشف وجود انسداد شبه كلي بشرايين المخ وتصلب في شرايين الساق والفخذين والمرفق، مع التهاب مفاصل الفقرات، وكذلك إصابته بالتهاب المفاصل الروماتيزمي مع بداية السنوات العشرين الأخيرة من حياته، مما يعني وجود صعوبة بالغة في المشي والحركة في أواخر أيامه مع انحناء شديد إلى الأمام.

- وجود هشاشة في شعر المومياء الذي يميل إلى اللون الأحمر بسبب استخدام الحناء، ولكن بعض جذور الشعر تشير إلى احتمالية أن لون شعر «رمسيس» الأصلي كان أحمر.

- إثبات عدم وجود سبب للوفاة مع استبعاد احتمالية وفاته غرقًا أو حتى وجود آثار أي حدث عارض أو مفاجئ سابق للوفاة(35).

«رمسيس» يخضع للعلاج

ـ نجاح مهندس كيميائي مصري الأصل متمرن في متحف التاريخ الطبيعي يدعى «م.موشاكا»(36) من اكتشاف ميكروب ذي نشاط فطري كبير ضمن حوالي ٦٠ آخرين تتركز على ظهر المومياء بشكل مكثف وكذلك الجانب الأيمن تسببت في تدهور حالة المومياء بشكل خطير(37).

مع تحديد ما يهدد المومياء، اتخذ فريق العلاج معالجة المومياء باستخدام أشعة جاما (كوبالت ٦٠) والتي ثبت فاعليتها في علاج مومياوات أخرى محفوظة بمتحف الإنسان قد عولجت سابقًا في مركز الدراسات النووية في مدينة «جرينوبل»، وبالفعل زمّم تابوت الملك ومن ثم وضعه داخل خزانة زجاجية صماء تمامًا صُنعت خصيصًا لهذا الغرض، ومن ثم بدأ العلماء في علمية تعقيم المومياء، وهي العملية التي نجحت في القضاء على جميع أنواع العدوى الفطرية والبكتيرية بنجاح كبير.

ومع نهاية آخر أيام العلاج زار المومياء الرئيس الفرنسي «ديستان» بنفسه ليلقي نظرة على «رمسيس».

أخيرًا... وفي ١٠ مايو من عام ١٩٧٧ حانت رحلة عودة «رمسيس» شمس الملوك إلى مصر، وقد جهزت «نوبلكور» مفرشًا بديعًا باللون الأزرق مبطنًا باللون الذهبي ليغطي التابوت، وعند موقع القدمين طُرز برسوم لنبات البردي وزهرة اللوتس.

وكما وصل «رمسيس» إلى باريس مكرمًا غادرها كذلك على متن طائرة فرنسية حربية من طراز «ترنسال» وكان في وداعه لفيف من المسئولين على رأسهم «د.بالو» بنفسه وأعضاء من فريق العلاج، ليعود «رمسيس» مرة أخرى وأخيرة لأحضان الوطن.

لاحقًا ستصدر مدام «نوبلكور» بمشاركة «د.بالو» كتابًا يشرح تلك العملية بالتفصيل الممل عام ١٩٨٥(38).

كان الكتاب هو الدليل الحاسم الذي حسم ـ وللأبد ـ ما أثير من أن «رمسيس» هو فرعون موسى، حيث جاءت نتيجة الفحوصات لتعلن حقيقة أن «رمسيس» كان رجلًا مُسِنًا مصابًا بمجموعة من الأمراض تجعل مجرد حركته من مكانه بشكل بسيط عملية مُعقّدة، فما بالك بأن يكون هو نفسه من طارد اليهود.

«موريس بوكاي».. أوهام البحث عن «فرعون موسى»

«أبحاثي معتمدة على التاريخ والآثار والباقي على أساس طبي، لن أجرؤ دونه أن أطرح نظرية، إن طرحي مختلف عن علماء المصريات والتوراة؛ فكلاهما اقتصر على جانبه العلمي، وجميع الأطروحات المتعلقة بنظريات «موسى» مجرد طرح فلسفي يحتوي قدرًا ضئيلًا من المعلومات، وقد دهشت عندما وجدت أن بعض الفرضيات تعتمد على حقيقة واحدة (جزء نظري واحد)».

(موريس بوكاي)(39).

على الرغم من أن الصحف المحلية والعالمية قد غطت زيارة «رمسيس الثاني» إلى فرنسا بجميع تفاصيلها بل وأحيانًا بشكل شبه يومي فإن داخل مصر حتى يومنا هذا هناك اسم آخر ارتبط بتلك الزيارة لم تعرفه سجلاتها الرسمية ولم يكن له أي دور بالعملية برمتها.

هذا الاسم هو «موريس بوكاي»، والذي وصل من الشهرة داخل مصر لدرجة أن من لا يعرف اسمه يشير دومًا إليه بلقب الطبيب الفرنسي ويربطه برحلة فرنسا، بينما يتفق الجميع على نسب إنجازات تكاد تشبه الأساطير لهذا الرجل! ومع انتشار هذا الاسم وارتباطه دومًا بـ«رمسيس» وأسرته فلا بد أن نخصص ولو جزءًا بسيطًا للحديث عنه.

في البداية من هو «موريس بوكاي»؟

هو طبيب بشري فرنسي الجنسية كان يعمل طبيبًا شخصيًا لعائلة الملك «فيصل» في السعودية فترة السبعينيات، وقد ربطته بمصر ورمسيس قصة حكاها هو بنفسه مرارًا وتكرارًا في كتبه وفي العديد من اللقاءات التلفزيونية، وقد أثار ضجة عام ١٩٧٦ عندما نشر كتابًا بعنوان: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، والذي كان محوره إثبات صحة الروايات المذكورة في الكتب السماوية (بالأخص القرآن) عن طريق العلوم؛ وذلك في اتجاه اتجاه موازٍ لأفكار «الخلقيين» ذات الطابع الديني المسيحي التي تفسر العلوم بالنصوص الدينية، الفرق أن «بوكاي» قد اعتمد على القرآن الكريم في ظاهرة تحدث لأول مرة في أوروبا؛ لذلك أطلق على هذا الاتجاه «البوكايلية» والذي غُرِّب لاحقًا في الدول العربية تحت مسمى «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، وفي الفصل الأخير من كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) قام «بوكاي» بمناقشة قضية «فرعون» المذكورة في الكتب السماوية.

البحث عن «فرعون».. كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) تحت المجهر

بدأت قصة «بوكاي» مع مصر عام ١٩٧٤ عندما كان له بعض الآراء الخاصة والقناعات

المسبقة بقصة خروج اليهود من مصر يريد أن يؤكدها من خلال أسلوب بحث علمي يقوم فيه بربط العلم مع الدين.

جاءت فرصة «موريس بوكاي» في باريس عندما قام بعلاج أحد أفراد أسرة «جيهان السادات» قرينة الرئيس الراحل السادات، وقد نالَ ثقة العائلة مما أعطاه الجرأة ليطلب طلبًا غير متوقع.

قام «بوكاي» بمشاركة أفكاره مع «جيهان السادات» وأقنعها بأنه يستطيع تحديد هوية «فرعون موسى»، وأنه يحتاج إلى بعض التسهيلات لدراسة بعض المومياوات في المتحف المصري.

يذكر «بوكاي» أن السيدة «جيهان السادات» وافقته في الطلب والرأي، ونقلت طلبه إلى الرئيس السادات شخصيًا والذي قابل «بوكاي» شخصيًا مرات عديدة، وقام بالموافقة على منحه صلاحيات كبيرة جدًا للبحث في المتحف المصري، ليس هذا فقط بل كانت التسهيلات أكبر من أعظم أحلامه، فالمتحف المصري والقائمون عليه سيقدمون له كل التسهيلات الممكنة بشرط عدم وقوع أي ضرر على أي مومياء سيقوم بفحصها.

الأهم من ذلك أن «بوكاي» كان يعمل بشكل منفرد دون أي مظلة رسمية من أي نوع، فهو لم يُكلَّف من الحكومة الفرنسية بأية مهام، كما أنه ليس له غطاء بحثي أو أكاديمي أو جامعي من أي نوع، باختصار يذكر «بوكاي» أن ما قام به هو عمل تطوُّعي كان السبب المباشر فيه هو التسهيلات التي منحها له الرئيس السادات.

كوَّن «بوكاي» فريقًا طبيًا بمساعدة «ميشيل دوريجون» وهو طبيب شرعي زميل له، وضم فريقه عشرة من الأطباء المصريين تنوعوا ما بين أطباء بشريين وأطباء أسنان قد ذكرهم جميعًا بالاسم في كتبه موجهًا لهم الشكر(40).

قام «بوكاي» وفريقه بالفعل بعمل أبحاث نظرية وميكروسكوبية، وكذلك بأشعة «إكس» على بعض المومياوات الملكية، وكان من ضمنها مومياء «رمسيس الثاني»، وكذلك «مرنبتاح»، كما أنه استطاع بعلاقاته مع الرئيس السادات على حد زعمه الحصول على امتياز غير مسبوق بحصوله على عيّنة من مومياء «مرنبتاح» لفحصها، وقد زعم «بوكاي» بعد إتمام أبحاثه أن الرئيس السادات قد كلَّفه بوضع المعايير التي ستقوم عليها عملية حِفْظ تلك المومياوات بشكل علمي سليم للأجيال القادمة.

لنتوقف قليلًا عند العام ١٩٧٤ لنستعرض ما قام به «بوكاي» الذي بدأ عملية بحثه عن «فرعون موسى» بنتيجة مسبقة، فهو يرى أن الملك «مرنبتاح» ابن «رمسيس الثاني»

وخليفته هو «فرعون موسى»، وأن ما ينقصه لتأكيد ظنونه هو عملية فحص طبي شامل على مومياء الملك الموجودة بالمتحف المصري.

وكانت الأسباب التي دعته لهذا الاعتقاد (وقد كرر تلك الأسباب في جميع كتبه تقريبًا ولكننا سنأخذ من كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)(41) مثالًا:

أولًا: نجده يحلل الاعتقادات السابقة عن هوية «فرعون موسى»، ويقول بخطئها جميعًا، ويرجع ذلك إلى أن المنهج البحثي المستخدم لم يُقدِّم معلومات كافية تربط علم الآثار بالنصوص الدينية وتقدم أدلة مادية كافية، وقد كانت استشهاداته تحوي إشارات لبعض آراء دينية لعلماء آثار مثل «بيير مونتييه» الفرنسي، وكذلك «جاستون ماسبيرو» الفرنسي أيضًا، أما الشق الأعظم من استشهاداته، فكان لرجال دين وعلماء لاهوتيين، وقد كان يرى أن بحثه سيكون نقطة فارقة؛ لأنه سيعتمد على المعلومات الطبية والتي وحدها هي التي ستحسم الأمر؛ لأن المومياوات الملكية موجودة بالفعل، ويتبقى فحصها فقط لإثبات موت أحدها غرقًا أو بأي طريقة تتوافق مع الغَرَق، باختصار كان «بوكاي» يُردِّد وبشكل مُكثَّف أن المعلومات الطبية المادية فقط هي ما ستحسم البحث وتقدم إجابات مقنعة وصحيحة.

كانت أسباب «بوكاي» في اعتقاده أن «مرنبتاح» هو فرعون لأنه من وجهة نظره قام بمطابقة النصوص الدينية بالآثار، فوجد أن التفاصيل الكاملة للقصة موجودة في التوراة بينما هناك فقط إشارات لها في القرآن؛ لذلك كان جل اعتماده في بحثه على التوراة، واستخدم القرآن الكريم في استشهاد واحد، وهو الآية (٩٢) من سورة يونس: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾، والتي قال: إن تفسيرها يعني أن جسد فرعون بقي محفوظًا بعد موته.

أما بالنسبة للجانب الأثري والدلائل من آثار مصر وتاريخها فيذكر «بوكاي» أنها لم تعط معلومات كافية ومعظمها يذكر اليهود بشكل مبهم كما أنه لا يوجد ذِكر لقصة أو شخصية «موسى» أو حتى خروج اليهود من مصر في أي أثر مصري على الإطلاق، إلا أنه حاول الربط بين بني إسرائيل وبين أقوام أطلق عليها المصري القديم «عابيرو» - زعم بالخطأ ودون دليل أن معنى الكلمة (عمال بالسخرة) دون أن يقدم أدلة على ذلك الربط أو اشتقاقه لمعنى الاسم، وعلى أيه حال فقد ذكر بوضوح أن هذا مجرد افتراض غير مؤكَّد، وأقرَّ بذلك بوضوح في كتبه؛ لذلك لن يكون لنا على تلك النقطة تعليق.

اتجه «بوكاي» في تحديد زمان وشخصية «فرعون موسى» إلى حسابات من نوع آخر تعتمد على الكتب الدينية والتوراة تحديدًا؛ فالتوراة تذكر أن ملك مصر قد مات أثناء وجود

«موسى» في «مدين» بعدما قتل المصري وهرب، وكذلك أن غفر «موسى» عندما عاد من أرض «مدين» ليواجه «فرعون» ويخرج باليهود من مصر كان ثمانين عامًا، واعتبر طول تلك الفترة الزمنية إشارة واضحة على أن هناك فرعونين وليس واحدًا، الأول اضطُهد اليهود في عهده وولد موسى في فترة حكمه، والثاني هو «فرعون الخروج»، وخرج «موسى» باليهود في فترة حكمه، يضيف على ذلك ذكر التوراة لاستعباد اليهود في بناء مدينتي «بيثوم» و«رمسيس» واللتين ذكرتا بوصفهما أسماء أماكن وليس أشخاصًا، على الرغم من أن عصر «رمسيس الثاني» وحده قد حمل أكثر من ثلاث مدن باسم «رمسيس» وليس واحدة بل إن واحدة منها تقع بلبنان حاليًا وأخرى بالنوبة!

بناءً على تلك المعلومات يرى «بوكاي» أن «رمسيس» هو فرعون الاضطهاد، بينما «مرنبتاح» ابنه هو «فرعون الخروج»، ولكنه واجه بعض المشاكل والأدلة المادية التي تعارض هذا الاستنتاج.

المشكلة الأولى أن «رمسيس الثاني» قد حكم لمدة ٦٧ سنة، بينما حكم «مرنبتاح» لمدة ١٠ سنوات؛ أي أن مجموع فترة حكمهما لا يكفي حتى عمر «موسى» ـ ٨٠ سنة، عندما عاد من «مدين» ليخرج باليهود.

وهنا تخطى «بوكاي» تلك المشكلة واعتبر أن «مرنبتاح» قد حكم لفترة تقارب ٢٠ سنة، على الرغم من عدم وجود أي دليل حاسم على ذلك، وعدم وجود أي أثر يعود لـ«مرنبتاح» بعد العام (١٠) من حكم الملك وهو الرقم المتعارف فترة جلوسه على عرش مصر.

المشكلة الثانية؛ وهي أثر يسمى «لوحة مرنبتاح» والتي تعرف أيضًا بـ«أنشودة النصر» وتعرف أيضًا باسم «لوحة بني إسرائيل»، وهي لوحة حجرية موجودة حاليًا بالمتحف المصري تحكي عن انتصارات «مرنبتاح» على العديد من الأراضي الأجنبية، وذكر فيها السطر الآتي: «ويسرير أبيدوا ولم يعد لهم بذر». وقد اختلف علماء الآثار في تحديد هويتي «يسرير» المذكورين في اللوحة بينما رأي البعض الآخر أن «يسرير» المذكورة هي «إسرائيل»، ووافقهم «بوكاي» في الرأي ليواجه مشكلة أصعب، فكيف يكون هؤلاء بني إسرائيل وقد ذكرت اللوحة أن «مرنبتاح» أبادهم وأباد نسلهم في العام الخامس بينما عاش ليحكم بعد ذلك بخمس سنوات؟

تصديق أن «يسرير» هم بنو إسرائيل يتعارض بالكلية مع فرضية أن «مرنبتاح» له صلة بقصة الخروج، ولكن «بوكاي» يفترض وجود مخرج لذلك وهو أن «إسرائيل» المذكورة في اللوحة هم جماعات أخذت اسم «إسرائيل» تيمُّنًا بالنبي «يعقوب»، وأنهم ليسوا بني إسرائيل اللذين كانوا بداخل مصر، وهو رأي شخصي آخر يُضاف لمجموعة الآراء الشخصية التي

طرحها «بوكاي» دون أدلة.

أما المشكلة الأخيرة التي يذكر «بوكاي» أنه واجهها كانت أن التوراة ذكرت أن فترة مكوث اليهود في مصر هي ٤٠٠ أو ٤٣٠ سنة، وأن سِفر الملوك قد ذكر أن الخروج حدث قبل ٤٨٠ سنة من بناء هيكل سليمان، الذي يرى «بوكاي» أنه بني في عام (٩٧٠) ق.م، وهنا كانت مشكلة تاريخية وهي أن طبقًا لهذه الحسابات فإن دخول اليهود هنا يراه «بوكاي» يتزامن مع زيارة إبراهيم لمصر، وهو ما يعد مستحيلًا؛ لذلك يرفض «بوكاي» هذا الجزء من «سفر الملوك» ويراه دخيلًا على التوراة، أما دخول اليهود من وجهة نظر «بوكاي» فكان في عصر احتلال الهكسوس لمصر.

يضيف «بوكاي» بعد ذلك أن القرآن يمكن أن نستخلص منه معلومة إضافية للقصة وهي الآية الكريمة التي ذكرناها سابقًا المتعلقة بنجاة بَدَنِ «فرعون».

حتى هذه النقطة بنى «بوكاي» افتراضاته على آراء وتفسيرات شخصية للنصوص الدينية دون تقديم أي دليل علمي مادي كما ظل يُردّد مرارًا وتكرارًا في صفحات الكتاب، وظل قراء كتابه ينتظرون ذلك الدليل في فصول الكتاب الأخيرة.. هنا وبشكل عجيب في عام ١٩٧٦ يختم «بوكاي» كتابه بأن الفحوصات على مومياء «مرنبتاح» لم تكن قد اكتملت وقت إصدار الكتاب، ولا تمكنه من إصدار أي نتيجة حاسمة، بينما نجده يذكر في نفس الوقت أن الكتب السماوية تحسم وفاة «مرنبتاح»؛ إما بالغرق، أو نتيجة رضوض عنيفة بجسده سبقت غرقه أو بالسببين معًا.

«وخلال محاولتي الاختبار للمومياء في حيزران ١٩٧٥، أنجزت أبحاثًا خاصة، حقق بموجبها كل من الدكتور المليجي ورمسيس دراسة رائعة بأشعة إكس، بينما أجرى الدكتور مصطفى المنيلاوي بواسطة سيلان مادة على سطح حاجز الصدر، اختبارًا في داخل القفص الصدري والبطن مُحَقِّقًا أول سبر بداخل الجسم مطبق على مومياء. وقد توصل لرؤية وتصوير بعض التفصيلات المهمة جدًا في داخل الجسم. وبالإضافة إلى الاختبار المجهري لبعض الأجزاء الساقطة من جسد المومياء بشكل طبيعي، وهو الاختبار الذي سيجري في باريس من الأستاذ مينو، والدكتور بريجتون، فستستكمل دراسة عامة (طبية-قانونية)، يقوم بها الأستاذ سقالدي. ولا أظن أنه يمكن الحصول على نتائجها، مع أسفي الكبير، في نفس الوقت الذي ينتهي فيه تحرير الكتاب»(42).

وهنا نتساءل: إذا كان منهج «بوكاي» كما يذكر هو توفير دليل مادي طبي، ويراه هو وحده يحسم مسألة أن «فرعون» هو «مرنبتاح»، فكيف أغفل تدعيم فرضيته بدليل مادي في تلك

المرحلة وختم كتابه دون أدلة؟

لماذا تعجل بنشر كتابه دون توفر نتائج؟

«بوكاي».. مجرد طبيب

عند سفر مومياء «رمسيس الثاني» إلى فرنسا نجد أن «بوكاي» لم يكُن له أي دور في ذلك، فلم يشارك في سفر المومياء إلى «باريس» ولم يكن موجودًا في استقبالها هناك، بل إنه لم يشارك بأي صفة في أي مرحلة من مراحل الفحص والتشخيص والعلاج ولم يكن موجودًا حتى في وداع «رمسيس» عند عودته لمصر، تعامل فريق البحث الفرنسي مع «بوكاي» وكأنه غير موجود.

وقد شعر «بوكاي» بالتهميش جراء ذلك خاصةً مع الحفاوة التي عامله «السادات» بها، لذلك نجد أن «بوكاي» قام بالتشكيك في «العملية رمسيس» برمتها، واعتبر أن الفريق الذي قام بفحص المومياوات لم يحتوِ على عالم مصريات أكاديمي واحد على الرغم من إشراف أمينة متحف اللوفر أستاذة المصريات «كريستيان نوبلكور» بالتعاون مع «د.ليونيل بالو» على العملية.

بدا من الواضح أن «بوكاي» يُسابق الزمن مع بداية رحلة «رمسيس» إلى فرنسا لنجده يصدر كتابه الأشهر (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، على الرغم من أن نتائج فحصه للومياوات لم تكن قد ظهرت بعد، ولكن -وعلى ما يبدو- أنه كان يحاول المشاركة في العملية، حيث كان يعتبر نفسه الأجدر والأعلم بها، ولكن باءت محاولات «بوكاي» بالفشل فلم يستطع المشاركة في العملية بأي صفة طوال إقامة «رمسيس» في باريس، فلم يكُن في استقبال الملك حتى كانت عودته إلى مصر والتي لم يشارك في أي من مراسمها أيضًا، والذي وضح معها حجمه الأكاديمي كونه طبيبًا عاديًا من بين آلاف الأطباء لم يلتقت المسئولون الفرنسيون حتى لمنحه دورًا ولو صغيرًا للمشاركة في العملية.

ظل «بوكاي» طوال السنوات التي أعقبت زيارة «رمسيس» لفرنسا يشكك في العملية بأكملها ويدعي فشلها التام، ولكننا وللإنصاف لا بد أن نذكر نقطة مهمة هنا وهي أن هذا الافتراض كان يحمل جزءًا من الحقيقة، حيث إن الأعوام التي أعقبت علاج «رمسيس» في فرنسا تطلبت متابعة مكثفة وتنسيق بين الجانبين الفرنسي والمصري، وقد حدثت بالفعل مشكلة في الفلاتر التي تنقي البيئة المعروض بها المومياء بداخل الخزانة مما وضع المومياء في خطر أن تتدهور حالتها مرة أخرى، وقد قامت مؤسسة «جيتي» الأمريكية بحل المشكلة مع تقديم خزائن عرض دائمة مؤمنة للومياوات الملكية جميعًا.

أما عن نتائج أبحاث «بوكاي» على الومياوات فنجده أخيرًا ينشرها في كتاب بعنوان (ومياوات الفراعنة والطب.. «رمسيس الثاني» في باريس، فرعون موسى) في يناير ١٩٨٧،

وقد تُرجم للإنجليزية في ديسمبر ١٩٩٠.

ومن اللافت للنظر أن «بوكاي» أصدر كتابه بعد عامين تقريبًا من إصدار «كريستيان نوبلكور» و«ليونيل بالو» لكتابهما عن مومياء «رمسيس» بعد رحلة باريس!

انتظر «بوكاي» أكثر من ١١ عامًا ليوثق ما أطلق عليه دليله المادي الطبي الحاسم لفرضيته القائلة بأن «مرنبتاح» هو «فرعون الخروج»، ولكنه وفي نفس الكتاب قدم أدلة قاطعة موثقة تدعم استحالة أن يكون «رمسيس الثاني» هو «فرعون» وقد تشابهت أسبابه وأدلته مع تقرير الفريق الفرنسي في رحلة ١٩٧٦، التي تدعم سوء حالة «رمسيس» الصحية قبل وفاته التي كانت بأسباب طبيعية.

أما عن فحص «بوكاي» بمومياء «مرنبتاح»، فكان «بوكاي» يتمنى وجود أي علامة على الغرق في مومياء «مرنبتاح»، ولكن هذا لم يحدث حيث نجده يقول وبوضح في كتابه: إنه لا يوجد دليل على وفاة «مرنبتاح» غرقًا؛ وذلك لأن بقاء الجسد في الماء سيظهر ودون شك علامات على تُحلُل الجسد وهو ما لن يجدي معه تحنيط؛ لأن عملية التحنيط تصلح فقط للأنسجة التي لم تبدأ في التحلُل، ويضيف: أن كل المحيطين بنا قالوا إنه مات غارقًا(43) (دون ذكر أي مبررات لهذا الافتراض كما فعل سابقًا في جميع كتبه)؛ لذلك يفترض أنه ربما بقي الجسد في المياه لفترة قصيرة قبل أن ينتشله المصريون ويبدءوا في تحنيطه، ومن هنا يستبعد ذلك كله لعدم وجود دليل حاسم عليه، وهنا ولأول مرة يتخلى «بوكاي» عن فرضية الغرق المؤدي للوفاة.

مع النتائج الأولية غير المبشرة نجد أن «بوكاي» لم ييئس فيذكر أن الفحص بالنظر المجرد لم يكفِ ونجده -وبشكل ما- حصل على امتياز غاية في الأهمية (ذكرناه سابقًا) وهو السماح له بفحص عينة من المومياء، وكانت عبارة عن جزء من عضلة الحوض، وقد وجد الأنسجة في حالة جيدة تظهر جميع التفاصيل التشريحية للأنسجة، وهو ما يؤكد أن الجسد خُنّط وهو في أفضل حال، ومن ثم لا يؤيد فرضية الغرق، ليصاب «بوكاي» بخيبة أمل للمرة الثانية.

يعود «بوكاي» إلى نقطة الصفر مرة أخرى، فهو حتى الآن لم يستطع إثبات وفاة «مرنبتاح» غارقًا بأي دليل، فيلجأ لأسلوب آخر وهو محاولة إثبات أن الوفاة كانت عن طريق ضربة قاتلة سبقت الغرق، لم يجد «بوكاي» في جسد «مرنبتاح» -على الرغم من تضرر المومياء بفعل اللصوص الذين دمروا أجزاء منها أثناء السرقة- أي دليل على ضربة قاتلة ربما أودت بحياة الملك، هناك بالفعل بعض الجروح وكلها يستبعد أن تكون جروحًا خطيرة أدت

إلى الوفاة، كما أنها غير معروف إن كانت قبل أم بعد الوفاة سواء عن طريق المُحنّطين أو حتى اللصوص، حتى اعتقد «بوكاي» أنه وجد ضالته في فتحة خلفية في الجمجمة اعتقد أنها ربما كانت سبب الوفاة، عند هذه النقطة لم يسمح له بأن يقلب المومياء على وجهها؛ لأنه سوف يضر بها؛ لذلك لجأ إلى صور أشعة إكس وفحص الفتحة عن قرب، وهنا نجده -ودون أي تفسيرات- يقول: إن تلك الفتحة هي دليل على جرح قاتل أودى بحياة الملك(44).

لم يستطع «بوكاي» إثبات فرضية غرق «مرنبتاح» بأي شكل من الأشكال؛ لذلك نجده لجأ إلى هذا الاستنتاج الذي جاء على عكس كل ما قام بفحص المومياء قبله وعلى رأسهم «إليوت سميث» الذي فك لفائف المومياء عام ١٩٠٧، وذكر أن الملك كان يعاني التهابًا في المفصل وتصلبًا بالشرايين، وأن الفتحة في خلفية الجمجمة كانت عن طريق المُحنّطين؛ وهو ما تكرر في مومياوات أخرى، وكذلك الطبيب «جيمس هاريس» الذي فحص المومياء للمرة الثانية بأشعة إكس في الثمانينيات، خالف «بوكاي» كل هذه الآراء الطبية وقدم افتراضه هذا(45).

وعلى أية حال إن كانت الآراء السابقة لا تكفي فقد حسم الأمر بشكل قاطع ونهائي مع فحوصات الفريق المصري بالأشعة المقطعية برئاسة د.زاهي حواس، ود.سحر سليم المتخصصة في علم الأشعة بجامعة القاهرة، والتي صدر بها كتاب عام ٢٠١٦ بعنوان: (المسح الضوئي للفراعنة)؛ صور الأشعة المقطعية للمومياوات الملكية من الدولة الحديثة. ومذكور فيه أن وجود الملح بمومياء «مرنبتاح» ليس دليلًا على الغرق، حيث إن عملية التحنيط كانت تتطلب استخدام «ملح النطرون» والذي يغمر فيه الجسد لتجفيفه، أما عن الثقب الذي أشار له «بوكاي» فإن له حواف حادة بشكل مُدبّب توحي باستخدام أداة صلدة حادة ومدببة لإحداثه عن عمد، وهي تشير إلى أدوات المُحنّطين الذين ثقبوا الجمجمة بشكل مقصود لوضع الكتان بداخلها مع الراتنج وقد عُثِر على بقاياهما بالفعل بالداخل، وأن المعطيات الواضحة لفحص ذلك الثقب لا توحي بحادث عرضي تسبب في وفاة «مرنبتاح» كما اقترح «بوكاي»(46).

مع توالي كل تلك الأدلة الحاسمة والمنطقية نجد أن كتب «بوكاي» التي تتناول موضوع «فرعون موسى» لا تعدو كونها تكهنات شخصية مُضلّلة غير مستندة إلى أية أدلة أو أسس علمية كما أنه لم يقدم دليلًا ملموسًا على أيٍّ من ادعاءاته.

اللافت للانتباه أن «بوكاي» اتبع نفس المنهج الذي انتقده هو وبشدة في جميع كتبه، حيث قام بتقديم افتراضات نظرية قام بسد ثغراتها بناءً على آرائه الشخصية، وكان من الواضح

أنه يأمل كثيرًا في تدعيم فرضيته بدليل مادي حاسم ولكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما لم يجده عندما فحص المومياء، فأصبح ينتقل من استنتاج إلى الآخر حتى كان ملاذه الأخير ثقب الجمجمة الذي لم يفلح أيضًا في دعم مزاعمه أو إثباتها بدليل واحد.

زغلول النجار.. افتراءات على «رمسيس»!

على الرغم من ذلك فإن الضجة التي أثارها «بوكاي» مع استخدامه الغطاء الديني بوصفه سلاحًا قد نجحت وبشكل كبير في تدمير وعي المصريين وبنجاح ساحق، حيث لاقى «بوكاي» نجاحًا لم يتوقعه هو في أكبر أحلامه، فما حدث بداخل مصر أنه جرى تداول قصته بشكل مبالغ فيه أقرب إلى الأساطير حتى تحوّلت إلى قصة خيالية بالكامل كان أول مصادرها هو د. زغلول النجار الذي ذكر قصة «مورس بوكاي» قائلًا:

«بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣ ومعاهدة كامب ديفيد قاطعت الدول العربية مصر فأغرى دهاقنة الحركة الصهيونية العالمية الرئيس السادات أن يُخرج المومياوات الملكية للعرض في دول العالم، وقد رأيت بنفسي طوابير المصطفين أمام المتاحف في «لوس أنجليس» قبل صلاة الفجر في انتظار مشاهدة آثار مصر، ومن ثم وبعد عودة المومياوات الملكية لمصر أصابها العفن فاستدعت الحكومة المصرية وفدًا من اليونيسكو للتدخل، وكان من ضمنه «موريس بوكاي» أستاذ التشريح بكلية الطب جامعة السوربون، والذي بينما يعالج إحدى المومياوات أطلق عليها «د.النجار» اسم «مرفتاح». وجد في رقبته شيئًا من العفن فقام بفتح رقبة المومياء حتى يزيل العفن فوجد البلعوم مليئًا بملح الطعام!

فقال لمن حوله من المصريين: هذا الرجل مات غارقًا!

ضحكوا عليه قائلين: كلنا نعرف ذلك؛ لأن هذا هو فرعون موسى كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.

وهنا عكف «بوكاي» على دراسة القرآن الكريم، وأصدر كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، وأعلن إسلامه في نهاية الأمر!»(47).

هذه القصة التي تُخالِف حقيقة ما حدث جملةً وتفصيلًا بل إنها تخالف ما ذكره «بوكاي» بنفسه وعلى لسانه، ظلت مُتداولة حتى يومنا هذا مع بعض الإضافات والتعديلات وتغيير الشخصيات بل إن الرواية اختلفت زمنيًا ومكانيًا من داعية لآخر، بينما «د.النجار» نفسه قد قام بالتعديل عليها ليخرجها في عدة صور مختلفة حتى أصبحت مصداقيتها تفوق القصة الحقيقية، عبرت تلك الأسطورة إلى كل الدول متحدثي العربية بل إنها تجاوزت ذلك فعبرت المحيطات لترِدَ بلغات أخرى حتى أصبحت اتجاهًا عالميًا في الأوساط الإسلامية في كل مكان باعتبارها نصرًا للإسلام.

وأصبح كل متحدث بالعربية يعلم قصة خرافية مختصرها أن هناك طبيبًا فرنسيًا يدعى

«موريس بوكاي» أسلم بعدما أثبت صحة القرآن الكريم عندما اكتشف جسد «فرعون»، وأثبت أنه مات غريقًا، بل إنه -ولسبب غامض عند سرد القصة- يجمع الكل أن «بوكاي» قد أثبت تحديدًا أن مومياء «رمسيس» هي فرعون! وأن ذلك الكشف كان سببًا في إسلامه!

على الرغم من عدم وجود أي دليل مكتوب أو مرجع تاريخي أو لقاء تلفزيوني يقول بإسلام «موريس بوكاي»، بل إنه لا يوجد ولو إشارة واحدة في كتابات أو لقاءات «بوكاي» التلفزيونية يذكر فيها هو اعتناقه للإسلام حتى وفاته في عام ١٩٩٨.

تلك الخرافات والتهويلات التي أُلصقت بموريس «بوكاي» أصبحت من الضخامة بحيث يمكننا تصنيفها وبكل سهولة بأنها أكبر الخدع الممنهجة التي حدثت زورًا باسم الإسلام في المائة سنة الأخيرة، لتُضاف إلى سجل الخرافات التي التصقت زورًا بـ«رمسيس» وعائلته والتي بدأها «دهاقنة الحركة الصهيونية»، وأكمل على نفس الخطى الكثير من الدعاة للأسف الشديد دون تراجع عن هذا الطرح أو حتى تقديم أي اعتذار ولو مرة واحدة عن هذه المغالطات الواضحة الخطيرة التأثير في وجدان المصريين.

سرقة خصلات شعر «رمسيس».. ماذا حدث حقًا في زيارة فرنسا؟

مع سفر «رمسيس» إلى فرنسا صاحبه ضجة بجوار قصة «موريس بوكاي»، حيث ذكر البعض أن زيارة «رمسيس» لفرنسا لم تكن غرضها العلاج وإنما إثبات أن «رمسيس» هو «فرعون»، إن كان هذا صحيحًا فقد باءت تلك المزاعم بالفشل بشكل علمي بحت وأمام العالم أجمع، كما أن الزمن أثبت لاحقًا شكوكًا حول نزاهة العملية، ففي أوائل عام ٢٠٠٧ تصدرت الصحف المصرية العنوان الآتي:

«خصلات شعر «رمسيس الثاني» المسروقة تعود للقاهرة!»(48).

أما تفاصيل الخبر فقد أفادت أنه قبلها بعدة أشهر قد عرض شخص فرنسي يدعى «جان ميشيل ديبو» خصلات شعر الملك على الإنترنت للبيع بمبلغ ألفي يورو، كما أنه لديه من الوثائق والأدلة والتحاليل ما يثبت أنها أصلية بالفعل!

وشيئًا فشيئًا بدأت تفاصيل الموضوع تنتشر، حيث إن ذلك الرجل قد حصل عليها من والده الذي كان عضوًا في الفريق العلمي الذي أشرف على «العملية رمسيس» في باريس والتي عولجت فيها مومياء «رمسيس الثاني» في عام ١٩٧٦، وأنه قد سرقها، ومن ثم آلت إلى ابنه والذي عرضها للبيع بعد وفاة والده، وبالفعل قبضت عليه الشرطة الفرنسية التي فتحت تحقيقًا في الموضوع، وأرسلت مصر موفدًا من المجلس الأعلى للآثار وقتها للتأكد من صحة تلك العينات، وقد جاءت النتيجة إيجابية بالفعل، خصلات الشعر وبعض العينات الأخرى حقيقية، وقد بلغ عددها أكثر من ٢٠ عينة، عادت كلها إلى مصر بعد التأكد من أنها عينات أصلية في ١٠ أبريل ٢٠٠٧(49).

فجّر ذلك الخبر العديد من التساؤلات القديمة واللغط الذي دار بشأن زيارة «رمسيس» العلاجية إلى باريس(50)، وقتها ظهر العديد من الأصوات التي تشكك في نيّات الفرنسيين من الزيارة، وقد أطلق الطبيب الأمريكي «جيمس هاريس» الذي فحص المومياوات الملكية سابقًا باستخدام أشعة إكس في الستينيات تصريحًا عبر جريدة «نيويورك تايمز» وقتها أن المومياء لا تعاني أي شيء، ووقتها كان «جيمس هاريس» رجلًا ذا حيثية علمية مرموقة مما جعل تصريحه متنزًا للجدل وقتها، وتزايدت معه الأصوات التي تشكّك في الزيارة نفسها ما وصفته «النيويورك تايمز» وقتها بأن الزيارة كانت مسألة دبلوماسية بحتة للعلاقات المصرية الفرنسية(51).

فيما بعد سيفجر «د.زاهي حواس» مفاجأة أخرى ليعلن أن السبب الحقيقي وراء سفر

«رمسيس» إلى فرنسا كان تأكيد أنه هو «فرعون موسى»(52)، ولكن هذه العملية باءت بالفشل أمام العالم أجمع بعد أن جاءت نتيجة الفحص الشامل الذي أجري للمومياء تؤكد استحالة أن يكون «رمسيس» هو «فرعون».

وليعلن كذلك مع عودة خصلات شعر «رمسيس» أن المومياوات لن تسافر خارج أرض مصر مرة أخرى، وأن أي أبحاث ستكون بأيدي مصرية خالصة ١٠٠٪ دون أي تدخل أجنبي(53)، وهو ما حدث بالفعل في الفترة ما بعد عام ٢٠١٠، حيث حقق فريق بحثي مصري نتائج جيدة جدًا في فحوصات عديدة للمومياوات المصرية.

وحقيقة الأمر أن قضية «فرعون موسى» من القضايا التي سيظل يُثار حولها الجدل لوقت طويل جدًا؛ وذلك لعدم وجود دليل حاسم حتى الآن يمكننا من تحديد تلك الفترة الزمنية وهوية «فرعون»، فالرواية السماوية واضحة جدًا، يبقى فقط مطابقتها بالواقع الأثري؛ وهو ما لم يحدث حتى لحظتنا هذه لعدم وجود أدلة أثارية تساعد على الربط بشكل صحيح، فآثار مصر بطولها وعرضها لا تحوي دليلًا ماديًا واحدًا يذكر تفاصيل الرواية السماوية بدءًا من «إبراهيم» مرورًا بـ«يوسف»، وإنتهاءً بـ«موسى» عليهم السلام جميعًا مما يجعل أي فرضية تدخل في نطاق التكهنات والآراء الشخصية دون دليل حقيقي لتطبيق النص المقدس على أرض الواقع لنستخلص منه فترة زمنية بعينها.

إن محاولات البحث عن «فرعون موسى» في طيات التاريخ المصري القديم أشبه بالسراب الذي يراه التائه في الصحراء فيحسبه ماءً ويظل يجري وراءه متجاهلًا الواحة تلو الأخرى، وبالنسبة للمصريين فهي أشبه برجل ترك له أبوه قصرًا فخمًا فأخذ هو يبحث عن ما يظنه كنزًا في كوخ حارس القصر وأفنى عمره متجاهلًا القصر نفسه.

---

28 Maspero, Gaston (1889), Les momies royales de Deir El Bahari, pp. 511-516.

29 Ikram, S. 2018. "From Thebes to Cairo: the Journey, Study, and Display of Egypt's Royal Mummies, Past, Present and Future", inPolymatheia. Studi classici offerti a Mario Capasso I Paola Davoli and Natasha Pelle, eds, Lecce: Pensa Multimedia, 86 - 783. P 03.

30 Loti, Pierre, La mort de Philae (1909) P25.

31 Smith, G.Elliot, (1912) The Royal Mummies (Catalogue General Des Antiquites

Egyptiennes Du Musee Du Caire, Nos 61051-61100: Service Des Antiquites De L'Egypte).

32 Harris, James E, (1980), An X Ray Atlas of the Royal Mummies.

33 (Ramses II _ The great Journey), Documentary, Giscard d'Estaing Interview https://www.imdb.com/title/tt6830934/

34 الوفد 23 - 1988 Mar سعيد أبو العينين، لماذا طلب ديستان من السادات تقديم مومياء الملك "رمسيس" في عرض مسرحي في باريس؟

35 Noblecourt, Christian Desroches With L.Balout et C.Roubet, La momie de Ramsès II, Museum national d'histoire naturelle, Paris, 1985.

36 "رمسيس" فرعون المعجزات ص ٥٩.

37 The New York Times, French-Egyptian Study Says 60 Types of Fungi Are Threatening Mummy, February 13, 1977, Page 48.

38 La momie de Ramsès II.

39 Bucaille, Maurice (1990). Mummies of the Pharaohs Modern Medical investigation, translated by Alastair D.Pannell, P 127, 128.

40 Bucaille, Maurice (1990). Mummies of the Pharaohs Modern Medical investigation, translated by Alastair D.Pannell, P Xiii

41 موريس بوكاي، (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، ترجمة: حسن خالد، الطبعة الثالثة ١٩٩٠.

موريس بوكاي، (القرآن الكريم والإنجيل والتوراة والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، مكتبة مدبولي ٢٠٠٤.

42 التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ٢٧٩.

43 Mummies of the Pharaohs Modern Medical investigation P 159.

44 Mummies of the Pharaohs Modern Medical investigation P 160

45 Tyldelsey, Joyce (1999), Mummy:Unwrap Ancient Secret P117.

46 Hawass, Zahi. Saleem, Sahar (2016), Scanning the Pharaohs: CT Imaging of the New Kingdom Royal Mummies, P153.

47 زغلول النجار، مصارع الظالمين في القرآن الكريم (من آيات الإعجاز التاريخي في القرآن مصارع الظالمين فرعون وهامان وقوم لوط وعاد وثمود) ٢٠١٧، ص ١٢٩ :١٢٥.

- القناة ٩، د. زغلول النجار يوضح الإعجاز العلمي في جثة فرعون وكيف تسبب هذا الأمر في إسلام أشهر جراح في فرنسا. https://www.youtube.com/watch?v=8rngZJvas0o

- قناة زغلول النجار الرسمية على موقع يوتيوب: قصص الأنبياء | شُعيب وموسى عليهما السلام وحقيقة هامان وفرعون. https://www.youtube.com/watch?v=whDm_I91zM&t=2482s

كيف استطاع العلم التحقق من جثة فرعون؟

https://www.youtube.com/watch?v=m1Y10ifndqg

لقاء مسجل على قناة مسلم: قصة إسلام الطبيب "موريس بوكاي".

https://www.youtube.com/watch?v=0t962UhzCFM

48 الشرق الأوسط ١٧ مارس ٢٠٠٧. https://archive.aawsat.com/details.asp?section=54&article=410895&issueno=10336#.YAy1LbXVJdg

بي بي سي عربي ١١ أبريل ٢٠٠٧

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world_news/newsid_6543000/6543643.stm

الدستور ١١ أبريل ٢٠٠٧

https://www.addustour.com/articles/936076-خصلات_شعر_رمسيس_الثاني_المسروقة_تعود_للقاهرة

49 رجب المرشدي، عودة ٢٠ عينة من مومياء "رمسيس الثاني" و"مرنبتاح"، روز اليوسف ١١ أبريل ٢٠٠٧.

50 سعيد أبو العينين، التلفزيون الفرنسي اتهم الملك "رمسيس" باضطهاد اليهود فاحتجت مصر، الوفد ١٥ مايو ١٩٨٨.

51 The New York Times, Ramses' Illness Was Fabricated, Scientists Allege, November 8, 1976, Page 7.

52 المصري اليوم، زاهي حواس الشيخ علي جمعة مرة أخرى: "رمسيس الثاني" فرعون موسى، ١٩-٠٥-٢٠٢٠.

https://www.almasryalyoum.com/news/details/1979104

53 AP Archive, Hair and funeral cloth from mummy of Ramses II returned from

الفصل الثالث: وسر «ماعت رع».. الابن البار لمصر

«سيتي» ملكًا

«حورس الثور القوي الذيأشرق في طيبة داعم الحياة في الأرضين، المنتمي للسيدتين نخبت وواجيت، مجدد الولادة قوي السيف، مخضع الأقواس التسعة،حورس الذهبي مجدد التجلياتمخضع الأقواس التسعة في كل البلدان، ملك مصر العلياوالسفلى «من ماعت رع» فلتدم ماعت رع، ابن رع «سيتي» محبوب بتاح».

ألقاب تتويج الملك «سيتي الأول».

العام الأول من حكم ملك مصر العليا والسفلى «من ماعترع» سيتي الأول - قلعة «ثارو» الحدودية (تل حبوة حاليًا شمال سيناء).

في تلك المنطقة النائية من أرض مصر الكل على أهبة الاستعداد في تلك النقطة الحصينة التي تُعدُ أول معاقل طريق حورس الحربي الذي سار عليه العظماء من ملوك مصر وأباطرتها، وسار عليه جيش مصر ليصنع المعجزات ويحكم العالم، تقع تلك النقطة على ضفاف قناة تفصل بين مصر وبين الصحراء اللامتناهية، الأعشاب تنمو على الجانبين، بينما المياه تعج بالحياة وحتى التماسيح، ومن جهة مصر يظهر ذلك السور العالي بمبانيه وملحقاته، لها بابان عظيمان بينما الشرقي منها يقع على «قنطرة» فوق القناة، وهو الاسم الذي لا يزال متوارثًا حتى الآن (القنطرة).

اليوم حدث استثنائي، فسيحضر جلالته «سيتي الأول» بنفسه ليبدأ أولى ضرباته العسكرية لاستعادة الحلم المصري في سيادة العالم مرة أخرى، على نفس هذا الطريق سار أبو الاباطرة «تحتمس الثالث» في حروبه الشهيرة التي لم يخسر ولا واحدة منها قط، واليوم سيعبر عليه جيش مصر مرة أخرى بقيادة «سيتي» لاستعادة أمجاد الإمبراطور الراحل، يفتش الملك على جنوده بنفسه فيشد من أزر هؤلاء المتدربين، ويحيي هؤلاء ويداعب الجميع فالمكان ليس بغريب عليه، فقد كان منذ زمن ليس بالبعيد المشرف على تلك النقطة الحصينة قبل توليه مُلك مصر، وكذلك كان أبوه الراحل «رمسيس الأول»، كل المحاربين القدامى هنا يعرفونه ويعرفون أباه، معنوياتهم في السماء لقدومه، فمن كان بينهم زميلًا وأخًا يومًا ما ها هو ملك مصر بأكملها الذي سيقودهم إلى النصر بلا شك، يتفقد «سيتي» آخر الاستعدادات، ويرى بنفسه تجهيزات فرق وفيالق جيشه، فها هو الفيلق الأول لـ«آمون» ذي الأقواس الجبارة، الفيلق الأول لـ«رع» ثري البسالة، الفيلق الأول لـ«ست» الأولى قوي الأقواس، والاستعراضات العسكرية لا تنتهي أمامه حتى يتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ومع

اقتراب اليوم من نهايته يقفز الملك على متن قارب ليتوجه إلى أقرب نقطة حصينة مجاورة للمكان والتي سميت «عرين الأسد» تيمنًا بـ«سيتي» نفسه، فيجدها في أحسن حال بتصميمها المستطيل والبركة العامرة في منتصفها، كل شيء على ما يرام بالفعل.

غدًا سيسير الجيش على ذلك الطريق على خطى «تحتمس الثالث» لعلهم يستعيدون ما صنعه.

«العام الأول من (عهد تجديد الولادة) ملك مصر العليا والسفلى «من ماعت رع» المعطي الحياة: نما إلى علم جلالته أن بدو الشاسوالمهزومين يخططون للتمرد، وقد اجتمع شيوخ قبائله معًا، إنهم يقومون بالشغب والفوضى وكل منهم يقتلجاره ويعترضون على أوامر القصر (المصري)، انشرح قلب جلالته؛ لذلك قرر بسرور أن يبدأ معركة سيفرح لخوض غمارها بنفسه، فقلبه يفرح لرؤية الدماء، وسيقطع رقبة المتمردين، فإنه يحب ساعة المعركة أكثر من يوم الفرح، سيذبحهم بضربة واحدة ولن يترك لهم أثرًا، ومن يهرب منهم ليكون أسيرًا من الأحياء سيساق إلى مصر»(54).

كان «سيتي» يُدرك أن طريق الانتصارات ليس سهلًا، ولكنه كان يؤمن أن الزمن يعيد نفسه دومًا، فالجيوش ستخرج عبر سيناء كما حدث من قبل لتأمين الطريق حتى أرض «با كنعان» (غزة) التي ما إن تتحقق السيطرة التامة عليها وبعدها موانئ «فينقيا» سيصبح انطلاقه إلى أواسط آسيا أسهل بكثير، والحقيقة أن «سيتي» كان متشوقًا لأولى معاركه التي أهداها له بدو الشاسو على طبق من ذهب الذي ألقى الرعب في قلوبهم منذ اللحظة الأولى لذلك خرجت النصوص التي دونها على جدران معبد الكرنك شديدة اللهجة والقسوة ليعلم هؤلاء البدو أن أي خطط مستقبلية لديهم ستُعيق تقدم «سيتي» سيكون وأدها في مهدها وهو ما يخبرنا وبوضح أن نية «سيتي» كانت استعادة أملاك مصر المسلوبة في آسيا منذ عصر «إخناتون» بأي ثمن.

«العام الأول منحكم ملك مصر العليا والسفلى «من ماعت رع» الدمار الذي أحدثتهيد الملك القوية وسط بدو الشاسو المهزومين من قلعة «ثارو» وحتى «با كنعان»، عندما تقدم جلالته نحوهم كأسد مفترسجعل منهم أكوامًا من الجثث الهامدة في واديهم غارقينفي دمائهم وكأنهم لم يكن لهم وجود، وكل منهربٍ من بين أصابعه قال: إن قوته تجاه الأراضي الأجنبية كقوة أبيه آمون الذي منحه المجد والانتصار في كل البلاد»(55).

«العام الأول، فصل الصيف، اليوم العاشر: أحيط جلالتهعلمًا بأن العدو الخاسئ في مدينة «حماة» جمع الكثيرمن الناس حوله وقام بأسر مدينة «بيت شان» وتحالف مع أهل «باحيل»،

ولم يسمح لأمير «رحوب» بمغادرةمكانه، قام جلالتهبإرسال فرقة آمون الأول «عظيم الأقواس» إلى «حماة»، وفرقة رع الأول ثرى البسالة إلى بيت شان، وفرقة ست الأول قويالأقواس إلى مدينة «ينعوم»، وعندما مرّ يوم واحد خضعوا لجلالته»(56).

حققت حملات «سيتي» الغرض المطلوب منها وأكثر، فأمّن الحدود المصرية وحتى «كنعان»، أما ما حدث في «حماة» من الاستيلاء على نقطة مصرية ومحاصرة أخرى فقد سيطر عليه في يوم واحد فقط، بل إن النص الأخير عُثِر عليه في «بيت شان» نفسها، ومحفوظ في «متحف فلسطين للآثار» (روكفلر)، وعند عودته إلى مصر عن طريق «ثارو» نصبت عصابات البدو كمينًا للجيش الذي استطاع وبسهولة شديدة الإطاحة بهم وقد ضوّر أسراهم على جدران الكرنك مقيدين من أيديهم وأعناقهم، وينتهي قيدهم مجتمعين بحبل يمسكه الملك نفسه، وقد اتخذ في طريق العودة حصن «ثارو»، وضوّر موكب النصر الذي انطلق من هناك، وظهر الحصن بقسميه الذي يفصلهما القنطرة، وأسفلها بحيرة تلهو فيها التماسيح بحرية تامة، بينما الجنود ترحب بـ«سيتي» في حماسة، ويقدّمون له الثناء والمديح، لأول مرة منذ زمن طويل لم تز مصر مثل تلك المواكب العظيمة الآتية بالنصر من آسيا.

استطاع «سيتي» في حملاته الأولى تحقيق أهدافه العسكرية فأخضع «كنعان»، وتوغل في الجنوب السوري، وتحقق له السيطرة على سواحل فينيقيا الذي استغل «سيتي» وجوده بها وأمر بقطع أشجار الأرز الشهيرة للعودة بأخشابها إلى أرض مصر، وليعلن بذلك عودة استيراد أخشاب الأرز من هناك، ومما يثير الإعجاب أن «سيتي» قد استلهم خطط «تحتمس الثالث»؛ حيث بدأ بالسيطرة حتى «كنعان» ثم «الساحل الفينيقي» بأكمله تمهيدًا للتوغل في قلب وشمال سوريا، ولكن هذه المرة كان ذلك يعني الصدام مع إمبراطورية «خاتي» (الحيثيين) التي أصبحت قوة رهيبة في ذلك العصر.

إلى «قادش».. معركة «قادش الأولى»

فى العام الثالث وربما الرابع (لا نعلم على وجه التحديد) حدَث الصدام ولأول مرة بين «سيتي» والحيثيين الذي تربع على عرشهم «موتالي»؛ ذلك الملك شديد المراس الذي سيبقى على العرش حتى بعد وفاة «سيتي» نفسه، قام «سيتي» في البداية بغزو «آمورو» التي تعتبر نقطة شديدة الحيوية والتي مكنته من التقدم إلى «قادش» (شمال الجليل) حتى وقعت بينه وبين الحيثيين المعركة التي هزم فيها «موتالي» دون أن نعرف تفاصيل الاشتباكات الحربية بدقة، وقد أقام «سيتي» لوحة من الجرانيت (مهشم معظمها) في «قادش» تخليدًا لذكرى انتصاره على «موتالي» ليعلن عودة مصر لفرد عضلاتها بوصفها قوى عظمى لا يُستهان بها مرة أخرى، وعلى الرغم من ذلك فإن «موتالي» العنيد لم يرضَ بذلك فشنّ هجومًا على «أمورو»، وحيكت المؤامرات لمحاولة إزاحة النفوذ المصري في المنطقة، وعلى ما يبدو أن البلدين ارتضيا نوعًا من أنواع السلام (ربما معاهدة؟) تضمن لمصر السيطرة على موانئ جنوب فينيقيا، وفي المقابل تتوقف عن التحرك ضد «قادش» و«أمورو» ليشكل نهر العاصي الحدود الجديدة بين الإمبراطوريتين المصرية والحيثية؛ لتؤجل فصول هذا الصراع إلى وقت آخر ستصطدم فيه تلك القوتان مرة أخرى بلا شك في حرب حاسمة.

خاض «سيتي» أيضًا معارك أخرى لصد خطر جديد من الغرب «ليبيا»، حيث خاض ضدهم حملتين لطرد هؤلاء الغزاة بنجاح، وسيقمع بعدها تمردًا في النوبة ليصل «سيتي» بحدوده إلى جبل البركل كما فعل سلفه العظيم «تحتمس الثالث» من قبل.

مع حروب «سيتي» يبدو أن مصر استعادت أملاكها في آسيا حتى نهر العاصي، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن ما يطمح إليه «سيتي» في المقام الأول إلا أنه فضّل التوقف عند هذا الحد لتجنب صدام ربما كان سينهك مصر مرة أخرى، ولكنه على جانب آخر استطاع استعادة سيطرة مصر على أملاكها في أفريقيا، وأمّن حدودها الغربية بنجاح باهر، ليعلن «سيتي» عودة أمجاد الإمبراطورية المصرية مرة أخرى بشكل فرض ومقبول لأول مرة منذ تولى «إخناتون» عرش البلاد؛ وذلك في فترة وجيزة جدًا من حكم «سيتي».

«رمسيس».. الملك الطفل

«لقد وضعت الخطط وأنت لا تزال في البيضة، في منصبككأمير وأنت طفل، وأخبرت بشئون الأرضين وأنت لا تزال بخصلة الشعرالجانبية (التى تميز الاطفال)، لا يوجد أثر صنعلم يكن تحت سلطانك، ولم ترسل بعثة دون علمك، كنت قائدًا للجيش وأنت ابن العاشرة».

لوحة كوبان العام الثالث من حكم «رمسيس الثاني»(57).

بهذا النص وغيره ذكر لنا «رمسيس الثاني» لمحات من حياته تحت حكم والده «سيتي الأول»، ربما تبدو تلك النصوص مُبالغًا فيها بشكل كبير، وتوحي بثقة لا متناهية واعتزاز بالنفس لدى «رمسيس الثاني»، ولكنها تعكس في نفس الوقت العلاقة القوية التي جمعته بوالده، ولكنها تبدو منطقية للغاية بل ومتكررة؛ فقد فعلت ذلك «حتشبسوت» سابقًا على جدران معبد الدير البحري عندما ذكرت تتويج أبيها المحارب الصنديد «تحتمس الأول» لها وهي شابة صغيرة على الرغم من اختلاف ذلك مع نصوص «رمسيس» الذي توج وهو على أعتاب المراهقة، كذلك في فترة حكم جده «رمسيس الأول» نجد النصوص تذكر «سيتي» باعتباره «نجمًا بجوار أبيه» كونه مساعدًا له وأميرًا ورائيًا في كل البلاد، ولكن الفارق الرئيس بين «رمسيس» وأبيه، أن «رمسيس» قد تربى من نشأته باعتباره سيكون ملكًا عكس والده وجده فكانت تلك النصوص هي التجسيد الأعظم لقوة الروابط الأسرية والتي ستنعكس على «رمسيس» وأولاده لاحقًا.

ترقى «سيتي» في المناصب في عصر الملك الراحل «حور إم حب»، وولد له في تلك الفترة مولودان أولهما: فتاة أطلق عليها «تيا»، أما مولوده الآخر، فكان ولدًا أطلق عليه «رعمسو ـ رمسيس» تيمنًا بجده ولاحقًا سينجب ابنة أخرى وهي «حنوت مي رع»، وقد كان «رمسيس» الصغير بلا شك هو الفتى المُدلَّل لدى جده «رمسيس الأول» وجدته «سات رع» والذي كان كلاهما من أصول غير ملكية، وعلى عكس من ولدوا ملوكًا وكانت أسرهم ذات عدد كبير من الزوجات والأبناء، كانت أسرة «رمسيس الأول» من عامة الشعب الذين اختلفوا عن ملوكهم في صغر عدد أفراد الأسرة التي كان ربها يتزوج بواحدة في معظم الأحيان، وقد كان صِغَر عدد أفراد الأسر الشعبية تجعل روابطهم واهتمامهم ببعضهم البعض ذا أهمية قصوى.

وفي حالة عائلة «رمسيس الأول» كان «رمسيس» الصغير هو الحفيد الذكر الوحيد في حياة أجداده، أنجبه «سيتي» من زوجته «تويا» التي كانت ابنة لقائد في الجيش يسمى «رايا» من زوجته «رويا»، حظي «رمسيس» الصغير منذ الطفولة باهتمام بالغ؛ فكان أبوه

«سيتي» يخاف عليه كثيرًا باعتباره أمله الوحيد في الحياة وأمل مصر من بعده؛ حيث إنه سار على نهج قائدهم الراحل «حور محب» والذي كان يقتضي بحسم مشكلة العاهل القادم لعرش البلاد بأسرع وقت لتجنب المشاكل، ومن هنا وبمرور السنوات بدا واضحًا أن «رمسيس» الصغير سيكون ملك مصر المقبل خلفًا لوالده «سيتي».

كانت أخت «رمسيس» الكبرى «ثيا» متزوجة منذ زمن من موظف يُدعى «تيا» ابن «آمون واح سو» الذي أصبح كاتبًا ملكيًا، وكان له بالغ الأثر في تنشئة «رمسيس» الصغير، فهو المعلم الشخصي، ويذكر عن نفسه أنه الذي علم جلالته وهو لا يزال بداخل البيضة (طفلًا).

وقد شهدت طفولة «رمسيس» الصغير نبوغًا مبكرًا خاصةً مع المعرفة الجغرافية التي نمت لديه، فبجوار دروسه كان الوزراء والصفوة يتحدثون مع والده في جميع شئون البلاد، فعرف منذ الصِّغر كيف كان حال هذه البلاد في يد «تحتمس الثالث»، وتكرر على أذانه أكثر من مرة اسم «خاتي» (الحيثيين)، العدو اللدود لمصر في ذلك العصر.

مما لا شك فيه أن «رمسيس» الصغير قد تبوأ مكانة عليا لدى أبيه في سن صغيرة، فكما أخبرنا عن نفسه قد منح لقبًا شرفيًا (القائد الأعلى للجيش)، ولكننا نعلم أنه لم يشارك أباه في حملاته العسكرية الأول، وكان أول ظهور له عندما صوّره والده على جدران الكرنك في حملته ضد الليبيين وهو لم يتجاوز عامه الثاني عشر، والذي يبدو دور «رمسيس» الصغير فيها محدودًا جدًا يعكس خوف والده الشديد عليه.

بعد مرور سنة أو أكثر اطمأن «سيتي» إلى قدرات ابنه، فنجده يجعله مُشاركًا له في حربه ضد «موتالي» ملك الحيثيين؛ وهي المعارك التي صقلت تجارب «رمسيس»، وعرف بعدها أن مجد «تحتمس» يمكن استعادته خاصةً مع استعادة «أمورو» و«قادش» مرة أخرى لتدخل سلطان مصر بعد عقود طويلة، ولكن النتيجة النهائية لحملات «سيتي» ستترك جرحًا عميقًا في نفس «رمسيس» لن يفارقه طوال حياته، تأثر «رمسيس» كثيرًا بذلك السلام بل ورفضه؛ لأنه كان يرى أن «أمورو» و«قادش» أراضٍ مصرية خالصة لا بد أن تكون دومًا تحت سلطان مصر، ولم يرض طيلة حياته عن السلام الذي عقده والده وقتها، بل كان يرى أنه يستطيع أن يحقق أفضل من ذلك وهو ما أصبح هدفه الذي سعى لتحقيقه طوال حياته فيما بعد، سينتهي عهد «سيتي» بالمعارك في العام الثامن تقريبًا مع إخماد ثورة «إيرم» (غرب الجندل الثالث للنيل) والتي لم يستغرق إنجازها أكثر من سبعة أيام، وبعدها وسيبدأ «رمسيس» بالظهور في الصورة بشكل أكثر فاعلية مع اقترابه من عامه الثامن عشر تقريبًا.

«رمسيس» الأمير الوراثي

«إنني منبثق من الإله «رع» الإله الأعظم، الذي جعلني أكبر وأنمو، كنت طفلًا صغيرًا حتى جلست على العرش، لقد وهبني هذا البلد، وكنت لا زلت في البيضة، وقد وضع النبلاء رءوسهم فيالأرض أمامي، عندما تم تنصيبي باعتباري ابنه الأكبر، والأمير الوراثي فوق عرش «جب»، وقائدًا للمشاة والعجلات الحربية، عندما ظهر أبي للجمهوركنت طفلًا بين ذراعيه، فقال بشأني: توجوه ملكًا لأربجماله بينما أعيش بجواره، وأمر الحاشية بوضع التاج المزدوجفوق رأسي: «ضعوا التاج فوق رأسه»، هكذا تحدث بشأنيعندما كان على ظهر الأرض: «سوف يدير هذهالبلاد ويصرف شئونهاويقود شعبها»، هكذا تكلم عني؛ لأنه كان يحبني من صميم قلبه، وجهّزني بأسرة من الحريم الملكييلقبن «جمال القصر»، واختار لي زوجاتي ومحظياتي».

أبيدوس ـ العام الأول من حكم «رمسيس الثاني»(58).

هذا التتويج الشرفي كان نقطة البداية ليتحول «رمسيس» من مجرد مستمع ومراقب للأمور ومشارك في بعضها، إلى عضو فاعل في الحكومة المصرية سيكون بيديه كل شيء؛ مما جعل من المُحتّم أن يدخل في دهاليز السلطة ويعرف خباياها، وقد كان أول احتكاكه بالحياة الملكية الخاصة هي اختيار زوجاته ومحظياته والتي لا بد أنهن كُنّ من اختيار أمه الملكة «تويا» ووالده «سيتي» نفسه اللذين جعلا المهمة تحت إشراف «حور مين» المشرف على الحريم الملكي، وقد كان ذلك أول عهد «رمسيس» صغير السن بفتاتين صغيرتين، ستكونان رفيقتي حياته ومستقبل مصر بأكملها، كانت أولها هي «نفرت إري» (نفرتاري) والتي يعنى اسمها تجاوزًا بالعامية (حلاوتهم)، ستكون حب حياته التي لم يحب مثلها قط، وسيكتب عنها في يوم من الأيام «التي يشرق «رع» لها. من البداية يتضح أن «نفرتاري» هي سيدة مصر الأولى القادمة وأم ولي العهد، أما الأخرى فهي «آست نفرت» واسمها يعني «جميلة إيزيس»، والتي لم تحظَ بمكانة مشابهة لـ«نفرتاري» ولكنها ستكون من كبار الفائزين في نهاية المطاف، وعلى الرغم من أننا لا نعلم من أي مكان تحديدًا في مصر ترجع أصول تلك الملكات على الرغم من كشف غاية في الغرابة متعلق بـ«نفرتاري» التي وجدوا في مقبرتها غطاءً صغيرًا مستديرًا (مقبض صندوق؟) يحمل اسم الملك «آي»!! مما يفتح بابًا واسعًا من التساؤلات لا يكفي هذا الدليل للإجابة عنها.

أما عن مكان إقامة عائلة الأمير مع زوجاته الجميلات وبقية الحريم، فكان في مدينة «منف»، وقد توج زواجه منهما بأول مولودين في حياته؛ ولد من «نفرتاري» حمل اسم «آمون

حر ونم إف» ليكون تلقائيًا ولي العهد المقبل، وفتاة جميلة من «آست نفرت» سمّيت «بنت عنات» في إشارة إلى الإلهة الآسيوية «عنات»، وهو أمر ليس غريبًا على مصر الإمبراطورية التي كانت منفتحة على جميع الجنسيات وحتى الآلهة الأجنبية كما سنرى لاحقًا.

مع الإعلان الرسمي بأن الأمير الصغير «رمسيس» هو الأمير الوراثي لكل البلاد وتتويجه رمزيًا ملك مصر العقبل اختار لنفسه اسم «وسر ماعت رع» (قوية هي ماعت رع)، وأضاف لنفسه ألقابًا أخرى مثل «مري رع» (محبوب رع)، «توت رع» (صورة رع)، وكذلك «إيوعو رع» (خليفة رع) في إشارة واضحة إلى رسوخ اعتقاده بأنه الملك المقبل بلا شك.

نظرة على البلاط الملكي في عصر «سيتي»

منذ السنة التي استهلها الإمبراطور «تحتمس الثالث» والذي كان المثل الأعلى لتلك الفترة فقد كان لمصر وزيران، أحدهما للشمال والآخر للجنوب، واللذان كانا الأذرع التنفيذية لملوك مصر بداخل البلاد ومنظمي شئونها، وهي أعلى رتبة يمكن أن يصل إليها موظف في مصر وقتها، وكان شمال مصر يديره بكفاءة الوزير المدعو «تاب آمون» منذ عصر «حور محب» بينما وزير الجنوب كان الوظيفة التي شغلها «رمسيس الأول» في عصر «حور محب»، ومن ثم ورث وظيفته ابنه «سيتي»، فأصبح المنصب شاغرًا بتوليه العرش هو الآخر، لقد كان بلاط الملك «سيتي» وقت تتويج «رمسيس» عامرًا بالمخلصين من كبار السن وحتى الشباب الصاعد بسرعة الصاروخ وأبرزهم «باسر» ابن «نب نترو» الخادم الأول (الأكبر) للإله «آمون» في معبد الكرنك، وقد كان «باسر» من أصغر رواد القصر، ورأى فيه «سيتي» إخلاصًا وتفوقًا لا مثيل له، فعند بلوغه العشرين عامًا فقط استطاع أن يرتقي من حاجب (مرافق للملك) ليصبح كبير أمناء البلاط الملكي ومؤتمنًا على أسرار الإلهتين (المسئول عن التيجان)؛ مما يعني أنه من توّجَ «رمسيس» بنفسه، ووضع التاج على رأسه بيديه؛ لذلك كان من المحتم أن يتخذ «سيتي» قرارًا غاية في الجرأة وهو تعيينه وزيرًا للجنوب دفعة واحدة وهو لم يكمل عامه الثلاثين ليصعد في السلم الإداري بسرعة الصاروخ، أما في الجنوب، فكان لقب «ابن الملك في كوش» (نائب الملك لشئون أفريقيا) يشغله «آمون إم إبت»، والمسئول أيضًا عن المنبع اللانهائي لمناجم الذهب هناك، والذي تجمعه علاقة غامضة بأسرة «رمسيس الثاني»؛ حيث إنه ورث المنصب من أبيه الذي كان يدعى «باسر» والذي ورث المنصب بدوره من والده المدعو «أمنحتب حوى»، الغرابة هنا تكمن في أن «أمنحتب حوى»، كان صديق طفولة «إخناتون»، وعلى الرغم من ذلك فكانت أخته «تا إم واج سي» متزوجة من «خع إم واست»؛ وهو شقيق الضابط «سيتي» والد «رمسيس الأول»؛ وهو ما يرجح ما طرحناه سابقًا أن عائلة الضابط «سيتي» قد لعبت دورًا في الدولة المصرية في فترة العمارنة بل إن «سيتي» نفسه ربما بالفعل كان المبعوث المصري الذي ذكر مرتين في رسائل العمارنة تحت اسم «شوتا»، ولكن إخلاص «آمون إم إبت» لم يكن هناك أدنى ذرة شك في ولائه كما سنرى لاحقًا.

بالإضافة إلى ذلك نجد «تيا» الكاتب الملكي والمعلم الشخصي لـ«رمسيس» وزوج أخته الكبرى «تيا» هو وأبوه «آمون واح سو» الذي رُقِي هو الآخر ومعهم «إيوني» الذي كان مشرفًا على إسطبلات القصر ورئيس لطائفة «المجاي» المحاربة، أما شباب القصر فكان منهم «آمون إم إينت» رفيق طفولة «رمسيس» والذي ما إن تُوّج الأمير حتى أصبح مرافقًا له، ومعهم كذلك «باك إن خونسو» الذي كان مشرفًا على إسطبل ملكي ومن ثم اختار طريق الزهد

والورع، والتحق مبكرًا بالسلك الكهنوتي للإله الإمبراطوري «آمون» في طيبة.

أجانب في القصر

أما مبعوث الملك في جميع البلاد الأجنبية، وساقي الملك، وهي المناصب الرفيعة التي لا يرتقيها سوى الصفوة، فكان وقتها من نصيب «عشا حب سد»، الذي شغل في سن صغيرة جدًا منصب قائد فيالق، وكان من المرتقين بسرعة الصاروخ في السلك الإداري، ومقربًا من الملك «سيتي»، لم يكن «عشا حب سد» من أصول مصرية وإن اتخذ اسمًا مصريًا، ولكنه لم يكن الاستثناء الوحيد، فنجد أيضًا القائد العسكري «إيو رخى» من أصول سورية، والذي احتفظ باسمه السوري (وهو تنويع على اسم إله العواصف الآسيوي أورحى تشوب)، والذي أطلق على ابنه اسم «يوبا»؛ وهو اسم كنعاني. وقد تدرج «إيو رخى» في المناصب العسكرية هو وأولاده من بعده، ومعهم «ديديا» الذي كان من الجيل الخامس لوافدين أجانب لمصر، وشغل منصب كبير الرسامين بمعبد الكرنك، على الرغم من ذلك فإن أفعالهم وتنشئتهم وتفانيهم في خدمة مصر لا تشهد سوى بانصهارهم في المجتمع المصري واعتبارهم مصر وطنهم الأوحد، بل والأولى من أصولهم الأولى، والذي ظهر ذلك في جميع اختياراتهم بما فيها الموت في مصر وتشييد المقابر والدفن بها طبقًا لتقاليدها وعقيدتها الدينية، كان الولاء هو الشرط الأساسي للمعيشة، ومن ثمّ الترقي بمصر والتي كانت تمثل حلمًا لكل أجنبي في ذلك العصر والانتساب لها شرف ما بعده شرف.

على أن تنوع الألقاب وتعددها في مصر القديمة بشكل عام لا يعني حرفيتها، فلقب الوزير على سبيل المثال يعادل «رئيس وزراء حاليًا»؛ وكذلك ألقاب مثل «الساقي الملكي»، «حامل المروحة على يمين الملك»؛ لا تعنى أن حامليها سقاة أو حاملي مراوح فعليين، وإنما تُعبّر إما عن قُرب هذا الموظف نفسه من الملك شخصيًا بشكل يومي، أو عن رُتبته العسكرية أو حتى ترتيبه الوظيفي بداخل القصر أو في الحكومة المصرية بشكل عام.

الأمير «رمسيس» يحكم

ينسب التاريخ لفترة حكم «سيتي» ما يقرب من ١٥ عامًا، انقسمت قسمين؛ أولهما: حروبه التي تحدثنا عنها ومن جنحه إلى السلام في النصف الأخير من الحكم، ومن المؤكد أن «سيتي» بعد إقراره ما أراد من حروبه أصبح دور «رمسيس» في ازدياد خاصة بعد إنجابه للبنين والبنات؛ مما يعني أن القصر الملكي الآن يعج بورثة محتملين لعرش مصر حتى بعد وفاة «رمسيس» نفسه، ومع حلول العامين التاسع والعاشر من حكم والده أصبح جدول أعمال «رمسيس» ومعه «باسر» وزير الجنوب مكتظًا للغاية، وكان يتضمن الإشراف على أعمال الملك في الجنوب والتي كان من ضمنها معبد الإله «أوزير» في «أبيدوس» أحد أكثر الأماكن قُدسيّة على أرض مصر؛ فهي أرض الحجاج، وسيدها هو «أوزير» نفسه قاضي الموتى، وهناك وبعد التأكد من سير العمل بشكل مُرضٍ حُلّت مشكلة المناجم التي تزود المعبد بالذهب اللازم فحفرت بئر مياه ما بين «إدفو» و«البحر الأحمر» لعمال المناجم، وفي شرق «واست» (الأقصر) بداخل معبد الكرنك بدا بهو الأساطين بأعمدته الـ١٣٤ مبهرًا للناظرين لا ينقص اكتماله الكثير من الوقت، بينما على البر الغربي العمل يجري على قدم وساق للانتهاء من معبد ملايين السنين (المعبد الجنائزي) الخاص بالملك «سيتي»، وكذلك إتمام مقصورة جنائزية للراحل «رمسيس الأول» الذي لم يُسعفه الوقت لبناء معبد جنائزي، كان العرف ذلك الزمان منذ نهب أهرامات الملوك العظام بسبب ظهورها الواضح للعيان بوصفها دعوة مفتوحة للصوص لسرقتها طُبقت فلسفة أخرى في الدفن وهي المقابر المنقورة في صخر الوادي (وادي الملوك)، وبالقرب منها في الغرب أيضًا (معابد ملايين السنين) التي سيخلد عن طريقها ذكرى هؤلاء الملوك بعد رحيلهم عن عالمنا.

ثم حان وقت زيارة «رمسيس» إلى «ست ماعت» مكان الحق أو كما نعرفها اليوم قرية دير المدينة، وهي القرية التي شُيدت في البر الغربي ليسكنها أمهر العمال والحرفيين والفنانين والمهندسين من خِيرة أبناء مصر للعمل في تنفيذ مقابر الملوك في الوادي، وهناك أشرف «رمسيس» على سير العمل بمقبرة أبيه والتي بلغت من الفخامة حدًا لا يُوصَف، وكذلك تفقّد بنفسه تنفيذ المشاريع في «مكان الجمال» (وادي الملكات) للزوجات الملكية والملكات، ليكون مكان مقبرة أمه الملكة «تويا»، ويبدو أن زيارات «رمسيس» في ذلك الوقت قد حملت بعضًا من خططه المستقبلية ليحدد مكان مقبرته ومقبرة محبوبته الأثيرة «نفرتاري».

وقد أثمرت رحلة «رمسيس» في الجنوب على الإشراف على خطط أبيه كافة حتى أسوان ومحاجر الجرانيت التي ستُقطع منها المسلات، وينحت منها التماثيل الضخمة، وقد قام

«رمسيس» بمهماته في تلك الفترة على أكمل وجه بعدما وضع أسس خططه المستقبلية أيضًا ليبدأ تنفيذها على الفور هي الأخرى بمباركة أبيه ومؤازرته له.

ومع عودته إلى «منف» بدأ «رمسيس» في الالتفات إلى أرض أجداده في شرق الدلتا والقريبة من «بحر رع» والتي كانت يومًا ما قريبة من عاصمة الهكسوس «حت وعرت»، وهناك عمل تحت أوامر والده بأن يجري توسعة القصر الملكي الذي شيده «رمسيس الأول»، وشاركه في ذلك أمهر حرفيي مدينة «منف»، وكان لـ«رمسيس» رؤية مستقبلية لتلك المدينة ستحوّلها إلى واحدة من أهم مدن العالم على الإطلاق.

ومع نهايات حكم «سيتي» قاد «رمسيس» بنفسه الجيش في بعض الحملات لأرض «كنعان» ضد بدو «الشاسو» دائمي الشغب والفوضى، وقد عاد منها مُظفرًا وبكل سهولة، وكان لحماية الحدود البرية أهمية كانت البحرية والنهرية كذلك وقد شهدت مصر وقتها هجومًا من قراصنة «الشردانا» الذين تحالفوا مع الليبيين، وحاولوا غزو الدلتا فتصدّى لهم «رمسيس» بكل قوة، ونكّل بهم في معركة بحرية قصيرة، ثم وبحنكة ورثها عن والده أخذ عددًا كبيرًا منهم لتجنيده في الجيش المصري تحت إشراف الضباط المصريين ليكونوا مرتزقة بارعين لهم دور في المستقبل العسكري (تؤرخ بعض المصادر تلك الحملة للعام الثاني من حكم «رمسيس»، أو أن «رمسيس» قد أرخ تلك الحملة بناءً على سنوات حكمه المشتركة مع أبيه).

مع اقتراب نهاية حكم «سيتي» كان «رمسيس» في بداية العشرينيات من شبابه، وأُضيف إلى عائلته أفراد جدد فها هي «نفرتاري» تُنجب له أميرًا صغيرًا أطلق عليه «با رع حر ونم إف»، وابنة تضاهي أمها في جمالها سُميت «ميريت آمون»، وأميرًا آخر أطلق عليه «با رع حر ونم إف»، وبالمثل أنجبت له «آست نفرت» أول أبنائها الذكور وهو «رمسيس» صغيرًا وآخر وهو «خع إم واست» الذي حمل اسم جده الأكبر شقيق «رمسيس الأول»، بالإضافة إلى عدد آخر كبير من الأبناء والبنات سيلعبون أهم الأدوار في حياة والدهم، بل وفي تاريخ مصر بأكملها، وسيتجاوز عددهم المائة مجتمعين.

أما أشهر سمات السلطة الواسعة التي مُنحت للأمير فكان المعبد الصغير بالنوبة والمعروف حاليًا باسم «بيت الوالي» الذي دُوّن على واجهته الكبرى اسم «رمسيس» (وسر ماعت رع الذي يشرق بحب رع).

وهناك صور «رمسيس» فيه مشاهد انتصاراته الحربية (حتى الشرفي منها) ولكن الأشهر على الإطلاق في ذلك المعبد كان المشهد الذي ظهر فيه «رمسيس» ملكًا كاملًا متوجًا في قيادة القوات على عجلته الحربية في جملة تأديبية يطارد الجحافل الفارة من الهجوم

الساحق وخلفه بحجم أصغر على عجلاتهم الحربية اثنان من أولاده، وهم أطفال تتدلى خصلة الشعر الجانبية على جانب رأس كل منهما، أولهما ابنه البكري «آمون حر ونم إف» ومعه أمير آخر وهو «خع إم واست»، عكس تصويرهما ما فعله «سيتي» مع ولده «رمسيس» عندما صوره بجواره طفلًا، ففعل ولده مع أولاده المثل، ويسجل النص المصاحب لهما أسماءهما وألقابهما، ولكن النص المصاحب للأمير البكري «آمون حر ونم إف» ضم بجانب ألقابه بوصفه حاملًا للمروحة على يمين الملك، الأمير الوراثي، ابن الملك من صلبه، محبوبه فنجده يقول:

«آمنت أن السماء ليس لها حدود ولكن الحاكم جعلنا نرى حدودها في الجنوب، أنا في بهجة وقلبي فرح عندما يضرب أبي أعداءه، جعل الإله يده قوية أمام الأقواس التسعة؛ (أعداء مصر التقليديين)»(59).

وهو إشارة واضحة إلى مكانة هذا الأمير الأثيرة لدى أبيه، على الرغم من أن الأميرين لم يتجاوزا أعوامهما الست على أقصى تقدير، بينما الجانب الآخر من الهجوم في حالة ارتباك واضحة توحي بسيطرة مصرية تامة تنتهي برجل جريح أمام امرأته وأطفاله يسانده اثنان من زملائه بينما يجري طفل صغير في آخر المشهد ليبلغ أخبار الهزيمة المنكرة.

بينما مشهد آخر يظهر فيه «رمسيس» جالسًا في مقصورة والهدايا والعطايا من خيرات النوبة يبدو فيها أن «رمسيس» ينوب عن والده في استقبال جزية وضرائب أراضي النوبة «واوات وكوش» (السفلى والعليا)، والتي نرى فيها العجب من حيوانات مثل: الفهود، والأسود، وأجود أنواع الجلود، وقطعان الماشية، والزراف، والنعام، والقرود التي تلهو في كل مكان، والمنتجات التي لا حصر لها عالية الجودة، وسن الفيل، ومعهم اثنان من السجناء يبدو أنهما من زعماء التمرد يتقدمان ناحية «رمسيس» ليعرضا عليه وفي أقصى نهاية المشهد نجد حاملي العصا يصاحبون إيقاع رجل خلفهم يضرب على الدربوكة.

أمام مقصورة «رمسيس» يقف بالصف العلوي مرة أخرى الأمير «آمون حر ونم إف»، ويظهر كذلك في الجدارية «آمون إم إبت» نائب الملك في كوش أمام «رمسيس» يؤدي عمله على أكمل وجه، ولكن يبدو أنه كان يشهد أيامه الأخيرة، سيرحل عن عالمنا قريبًا بعدما خدم مصر بإخلاص وقد كتب عنه المشهد:

(ابن الملك في كوش آمون إم إبت ابن «باسر» المبرأ)(60).

ويتبوأ مكانه «يوني» الذي كان من أشهر رواد القصر، سيصنع لـ«رمسيس» المعجزات كما صنعها «آمون إم إبت» لأبيه من قبل.

مع هذا النشاط الواضح والخبرات الهائلة يتلقّى «رمسيس» أولى صدمات حياته عند وفاة والده «ملك مصر المعظم «سيتي»، رحل فجأة الضابط والوزير والملك «سيتي» ابن «رعمسو» ابن «سيتي»، النجم بجوار أبيه ليلاقي ربه عن عمر يناهز الخمسين عامًا تاركًا ولده «وسر ماعت رع» ليتولى إدارة دفة هذه البلاد برعاية أمه ملكة مصر المعظمة «تويا» ليضحى «رمسيس» يتيمًا، تخسر مصر بطلًا، ولكنها كسبت ملكًا آخر لعله يحمل راية أسلافه من بعده.

«إن أهم مؤهلات ملك الأرضين (مصر) هي العلم

فلا يجدر بملك البلاد أن يكون جاهلًا

لقد اختاره الإله من بين مليون رجل

وأتاه الحكمة منذ اللحظة التي وُلد فيها من رحم أمه

إن الملكية منصب خطير

وعلى كل ملك أن يحافظ على ما أنجزه الملوك الذينسبقوه

ويشيد المزيد».

(جزء من التعاليم التي لقنت للملك المصري مرى كا رع ـ عصر الفوضى الأول ٢١٥٠ـ٢٠٢٥ ق.م)(61).

«رمسيس» ملكًا

وَأتى الدّهرُ تائِبًا بِعظيمٍ مِن عظيمٍ آباؤهُ عُظَماءُ

مَن كرَمسيسَ في المُلوكِ حَديثًا وَلِرَمسيسَ المُلوكُ فِداءُ

بايَعَتهُ القُلوبُ في صُلبِ سيتي يَومَ أن شاقَّها إلَيهِ الرَجاءُ

وَاستَعدَّ العُبّادُ لِلمَولِدِ الأك بَرِ وَازَّيَّنَت لَهُ الغَبراءُ (أمير الشعراء أحمد شوقي)(62).

اليوم السابع والعشرون، الشهر الثالث، فصل «شمو» (الصيف).

«حورس الثور القوي محبوب ماعت، المنتمي للسيدتين، حامي مصر، قاهر الأراضي الخاسئة، حورس الذهبي، ثرى السنين، عظيم الانتصارات، ملك مصر العليا والسفلى، وسر ماعت رع ستب إن رع (قوية عدالة رع، المختار من رع)، ابن رع: رع مسو(مولود رع) «رمسيس» محبوب آمون».

ألقابتتويج «رمسيس الثاني» ابن الخامسة والعشرين عامًا.

«بعدما طار «حورس» آخر إلى السماء، جلس «حورس» الجديد «رمسيس» على عرش أبيه بعدما أشرف على جنازته ووضعه بيديه في مثواه الأخير، تلك المقبرة العظيمة بوادي الملوك التي حملت الرقم ١٧، وكانت واحدة من أفخم مقابر الوادي، إن لم تكن الأفخم والتي سيزعج رقدته الأبدية ويخرجه منها المفسدون في الأرض يومًا ما بعد نهبها بوحشية، ليستكمل مسيرة السلب والنهب النصاب الإيطالي «بلزوني» لصالح سيده «هنري سولت» في العصور الحديثة، أما معبد ملايين السنين (المعبد الجنائزي) لـ«سيتي» فيعمل «رمسيس» على أن تستمر الطقوس به لتقديم القرابين والصلوات على روح أبيه المُتوفّى.

بقية العائلة لا تزال بجواره وعلى رأسها أمه ملكة مصر المعظمة «تويا» التي سيشار إليها باسم «موتتويا» تيمنًا بالإلهة «موت» زوجة «آمون» سيد آلهة مصر القديمة، تلك السيدة الهادئة رقيقة الحال التي يبدو أنها تنأى بنفسها عن السياسة إلا أنها ستكون بجوار ولدها وقت الحاجة لتقدم له العون والنصيحة.

«نفرتاري» زوجته لا تزال في أوج بهائها ومعها في الظل زوجته الأخرى «آست نفرت»، سيتزايد عدد أبنائه، وينضم إلى الأسرة أفراد جدد من زوجتيه الملكيتين ومن المحظيات ليشدوا من أزر والدهم ويساعدوه على حمل التركة الثقيلة التي تركها لهم أجدادهم، تلك التركة التي أشرف على تدعيمها أجيال من المحاربين الأشداء الذين قاموا بدورهم على

أجمل وجه، والآن حان الوقت ليتحملها ابن الخامسة والعشرين «رمسيس»، محبوب آمون الذي تُوِّج بلقب «وسر ماعت رع ستب إن رع»، ليتوج «رمسيس» في «منف» مدينة الإله «بتاح» و«هليوبوليس» مدينة الإله «آتوم»، و«طيبة» في حضرة «آمون»، توجه الإله «آمون» بنفسه في الكرنك، كتب أسماءه وألقابه الإله «آتوم» الإله الخالق ومعه الإلهة «سشات» والإله «تحوت» أرباب المعرفة والعلم بنفسهم على ثمار شجرة الإيشد (البرسيا) المقدسة في مدينة هليوبوليس ومنحه «بتاح» سيد اليوبيلات حكمًا يدعو له أن يمتد لملايين وملايين السنين.

بدأ العهد الجديد لـ«رمسيس» بخبر حزين، فرأس كهنوت الإله «آمون» في الكرنك «نب نترو» أبو الوزير «باسر» قد رحل عن دنيانا وأصبح مكانه شاغرًا ليتخذ «رمسيس» خطوة في غاية الجرأة، ويحل بنفسه محل «نب نترو»، ويقوم بقيادة أعياد «أوبت» (أهم أعياد الكرنك) بنفسه مرتديًا الزي الكهنوتي حاملًا لقب «النبي الأول لآمون» في الكرنك ليصاحب المركب المقدسة في رحلتها من الكرنك إلى الأقصر، ومن ثم العودة بعد ثلاثة وعشرين يومًا، وفي أثناء الاحتفالات كان لا بد من تعيين «كاهن أكبر» جديد في الكرنك فاجتمع «رمسيس» بالمستشارين ومجلس الثلاثين في حضور «تمثال الوحي» للإله «آمون» بنفسه ليقوموا بإحياء طقوس عتيقة شديدة السرية تعرض فيها الأسماء على «آمون» بنفسه ليختار كبير كهنة المعبد صاحب ذلك وترقب ورهبة من الجماهير تشبه ما نراه عند اختيار بابا الفاتيكان حاليًا، وبينما المجلس يتشاور وتُعرض الأسماء على تمثال الوحي، ووسط هذا الكرنفال الذي لا مثيل له ينتقل المشهد إلى منطقة هادئة في أرض الإلهة «حتحور» بمدينة دندرة.

«المسألة ليست أننا نكرم هذه الأشياء (التماثيل)، بل إننا نكرم عن طريقهاالألوهية ما دامت هي بطبيعتها أشد المرايا صفاء لإظهار الألوهية؛ لذلك يجب علينا أن نعتبر هذه الأشياء بمثابةأداة في يد الإله الذي ينظم كل شيء».

«بلوتارخ» نقلًا عن محدثيه من المصريين(63).

البشارة (اختيار كبير كهنة آمون)

«أيها المتنبئون، والكهان المطهرون، وأمناء السر، ويا رعاة الشعائرفي المعبد، احذروا أن تأتوا عملًا معيبًا، ولا تدخلوا المعبد غير مطهرين، ولا تقولوا باطلًا في حرمته، ولا تكونوا جشعين، ولا تتفوهوا بكذب، ولا تتناولوا أقداح النبيذ».

(من نصوص معبد إدفو)(64).

يقوم «نب ونن إف» كبير كهنة الإلهة «حتحور» في دندرة من يومه على نداء الرائي الذي رصد اقتراب شروق الشمس، المدينة من حول المعبد في سكون تام أسواره العالية تفصل الأحياء من الناس عما يحدث بالداخل الذين ربما أقصى أمانيهم هو الوجود بالساحات الخارجية في أيام الأعياد، فالمعبد هو «مستقر الإله» وبيته، وفي قدس أقداسه يعيش ويحيا وهو المكان الذي لا تطؤه سوى أقدام خدام الإله وكهنته أو حتى الملك نفسه، سنحاول سبر أغوار هذا المكان المقدس بكثير من الحقائق وقليل من الخيال لنشارك «نب ونن إف» هذا اليوم المشهود.

«التسابيح لـ»آمون»

سأشدو الأناشيد باسمه

سأغني بتمجيده حتى لأعلى السماوات وملء الأرض

سأخبر عن جبروته لكل عابر.. شمالًا وجنوبًا

خذ حذرك منه!».

لم يوقظ نداء الرائي المتكرر كبير الكهنة فحسب، وإنما المعبد المعبد كله الذي يبدأ العمل فيه بأقصى طاقة.

وبينما يقوم «نب ونن إف» من فراشه ليمسك بمرآته ليتفقد وجهه الحليق تمامًا ورأسه الخالية من الشعر، ليتأكد من تمام طهارته التي تحتم إزالته لشعر جسده كل يومين على الأكثر كونها شروط وجوده بهذه الأرض المقدسة.

لا يزال نداء الرائي يتردد فيتحرك الكتبة بقوائم القرابين التي ستقدم في هذا اليوم لتوزع بعد ذلك على المشرفين على العمل، توقد النيران في الأفران لتصنع الفطائر والكعك والخبز، بينما الخضراوات والفاكهة تُجهز.

يبدأ نب «ونن إف» في ارتداء ثوبه الكتاني الرقيق، فلا يرتدون بتلك الأرض سوى الكتان

فالصوف والجلود ممنوعة؛ لأنها كانت لحيوان حي ربما حمل شيئًا من الدنس، الطهارة هي أساس كل شيء والاغتسال يكون يوميًا أربع مرات؛ مرتان في الصباح وأخريان في المساء.

يجر بعض العاملين الأضاحي التي تُقيد ثم تُنحر من العنق بينما القصاب يضع أصبعًا في الدم ويقربه من شخص بجواره قائلًا: انظر لهذا الدم؟

يقرب الرجل أنفه منه ليشمه أو ربما (يتذوقه؟).

ثم يأتي الرد سريعًا: إنه طاهر.

ويتكرر المشهد عدة مرات بحذافيره حتى يدرك الذي يشاهد لأول مرة أن المتذوق هو طبيب بيطري يطمئن على سلامة الأضحية التي ستقدم بعد قليل.

يبدأ «نب ونن إف» في الخروج من مسكنه والشمس لا يفصلها عن الشروق سوى وقت قصير، فيتلاقى مع بقية الكهنة الذين يحمل كثير منهم لقب (أصحاب الأيدي الطاهرة) من الصفوة القائمين على خدمة الإلهة في مستقرها، يكون لقاؤهم في صمت ليتحركوا معًا وسط نسمات الصباح والشبورة الخفيفة في اتجاه البحيرة المقدسة.

maktabbah.blogspot.com

ما إن يصلوا إلى البحيرة المقدسة يتقدم «نب ونن إف» ليكون أول الخائضين في مياهها، ويبدأ في الاغتسال ببطء شديد وصلواته تسبق حركاته، يتذكر الماء ليس فقط للطهارة! فهو «نون» المياه الأزلية التي كانت موجودة هي والظلام في يوم الخلق العظيم، ومنها جاء الخلق الجديد، يبدو وكأن المياه تتسلل بالفعل إلى أعماقه لتعطيه لمسة إلهية، وكأنه ولد من جديد ليستطيع الدخول إلى عالم «حتحور» سيدة دندرة، فلتتذكر جيدًا لا بد لك أن تمتنع عن أي علاقات جنسية طوال خدمتك بالمعبد، لا تعارض ما منعه الإله، ولتكن الماعت (العدالة والحق) هي منهجك؛ لأنك على رأس «أصحاب الأيدي الطاهرة»، لا يوجد ما يمنع خروجك لعالم الأحياء خارج أسوار هذا المكان المقدس لتعيش حياتهم، ولكنك ساعتها لا بد أن تكون قدوة لغيرك ومعلمًا مرشدًا بأخلاقك الحسنة وشفعتك الطيبة، سيسمح لك بالخروج لتندمج وسط الناس ولكنك دومًا ستعود إلى هنا لتجدّد عهودكوتخدم الإلهة كما خدمها أبوك «سما تاوي» وأجدادك من قبل في منصبك هذا، ستخدمها بإخلاص أنت وزوجتك «تا خعت» كبيرة الحريم بالمعبد، وابنك «سما تاوي» ومعه ابنتك «حتحور» ليرثوا مناصبكم من بعدكم إن قدر لهم ذلك، ونالوا الشرف الذي حصلت عليه أنت.

حدث عنه الابنوالابنة، العظيم والصغير

حدث عنه الأجيال بعد الأجيال، ممن لم يولدوا بعد

وحدث عنه الأسماك في الأعماق

والطيور في سماء النهار

حدث عنه الغافل والحكيم

خذ حذرك منه!

يبدو «نب ونن إف» في وسط البحيرة وكأن الماء تخلل إلى كل خلية من جسده، فيتوقف واضعًا يديه بجواره فيتقدم اثنان من الكهنة ليقفا عن يمينه وعن يساره ليصبا الماء من حوله وكأنه هالة من الحماية حول جسده بوصفها جزءًا طقسيًا من لا نهائية المولد والبعث من جديد.

يغادر «نب ونن إف» البحيرة بينما يقوم بقية الكهنة بالاغتسال، حتى ينتهي كل شيء، ويذهب كل منهم لمكانه استعدادًا لخدمة (صلاة) الصباح. يختلف مشهد التطهير في الأعياد التي عادةً يتطهر فيها «نب ونن إف» في بيت الصباح في طقوس معقدة طويلة ينوب فيها الكاهن الأكبر عن الملك نفسه، ويوضع على رأسه التاجين الأبيض والأحمر، ولكن اليوم ليس بالعيد، فكان الاغتسال البسيط بالبحيرة المقدسة فحسب.

تشرق شمس الصباح ويظهر الكهنة على الموعد في منتصف المعبد وسط موكب كبير من حملة القرابين من طعام وشراب على الجانبين، هؤلاء الذين يحملون القرابين كثير منهم ليسوا كهنة بالمعبد، ولكنهم من الخدام العاملين به الذين لا تتجاوز خدمتهم أدوارًا محددة ولساعات معدودة وهم كثر ومتعددو الوظائف.

بينما المنشدات وعلى رأسهن «تا خعت» على أهبة الاستعداد للإنشاد ممسكات السستروم (الشخشيخة) التي يجلب صوتها الإلهة «حتحور» ويهدؤها، ومعهن المتطوعات من النساء اللائي يقدمن خدماتهن دون مقابل بوصفهن منشدات أيضًا ومشاركات في الرقصات الطقسية.

يبدأ كبير الكهنة المرتلين المرتل الذي يحيي النصوص المقدسة في تلاوة الصلوات! الموكب يتحرك.

ويمضون في ممر بعد ممر، وباب بعد باب حتى يصلوا إلى المذابح وموائد وغرف القرابين التي يضع عليها الخدم القرابين ويتراجعوا، بينما يتقدم الكهنة المطهرون ليطهروها، ويحرقوا حولها البخور في عمل متكرر كلما تقدم الموكب أكثر فأكثر من أقدس أجزاء المعبد وهو قدسه.

وتبدأ في بطء كوات النور بداخل المقاصير الجانبية في إنفاذ قدر ضئيل من النور مع قرب سطوع أول شعاع للشمس التي تستعد للاستيقاظ في بطء لتوقظ معها عالم الآلهة، حتى يصل الموكب إلى قدس الأقداس، حيث تسكن «حتحور» سيدة دندرة، يتوقف الجميع وينسحب الخدم الذين أدوا دورهم بينما الكهنة يأخذ بعضهم مكانه بين موائد القرابين يطهرها ويتلو الصلوات.

أنت «آمون» إله الصامتين

الذي يأتي على صوت نداء الفقير

عندما تضرعت إليك فيمحنتي

أتيت لتنقذني

يتقدم «نب ونن إف» وقد تحلى بكامل زينته وبهائه وزيه الكهنوتي ونعله الأبيض المميز هو وزملاؤه، في يده اليمنى إناء التطهير وفي اليسرى المبخرة الشهيرة المسماة «ذراع حورس»، وبجواره مساعد، يخطو نحو مقصورة «ست ورت» (المستقر العظيم) (قدس الأقداس)، بعد لحظات سيدخل إلى سر أسرار المعبد السر الأكبر الموجود بالسماء والسر الأكبر من الأسرار الموجودة بالعالم الآخر، حيث سيحل في حضرة تمثال «حتحور» بداخل الناووس الذي ستتجسد «حتحور» نفسها بداخله بعد لحظات.

وببطء يصعد الدرج المؤدي له ليقف أمام الباب ويكسر ختم الصلصال الذي وضع الليلة الماضية، ويشد المزلاج، ويفتح إحدى ضلفتي الباب، ويدخل إلى «قدس الأقداس»، بينما يغلق مساعده الباب خلفه فيسقط أول شعاع نور من السماء ليعلن بزوغ شمس الصباح من أفقها الشرقي ليدوي ابتهال كبير لكهنة المرتلين بالخارج معلنًا بدء تراتيل الصباح:

«استيقظي في سلام.. استيقظي في سلام.. إن يقظتك هادئة»(65).

يتبع ابتهاله بقية الكهنة والمنشدات في دوي هادر.

«مفيقة أنت، وإنك في سلام، إن الآلهة يمجدون روحك مضحين.. لتنشري على الأرض ذهبك المنثور، يا من تولدي في الشرقلتغيبي في الغرب وترتاحي في معبدك كل يوم»(66).

ثم تذكر صفات الإلهة ورفاقها من الآلهة وتتردد الصلوات لوقت طويل في أناشيد تتجاوز الخمسة والأربعين مرة.

يدخل «نب ونن إف» إلى قدس الأقداس فيجد الشمعة التي وضعت أمس قد ذويت

فيبدلها، وينتشر الضياء، فيجد أمامه الناووس مغلقًا بالختم كما كان أمس.

«لقد صعدت إليك، وطهوري فوق يدي، وقد مررتعلى الإلهة «تفنوت» فطهرتني، فأنا (كاهن) خادم وابن خادم هذا المعبد»(67).

يفضّ «نب ونن إف» الختم ويشد المزلاج:

«سيرخي الرباط، ويحل المقبض حتى يجتاز الباب، لقد طرحت أرضًا كل الشرور عني»(68).

لينكشف وجه «حتحور» سيدة النور أمامه بداخل ناووسها، يكشف عن وجهها ويقوم ببقية طقوسه السرية باستخدام أدواته، فيضع يده على رأسها فيما يشبه العناق بتشرق «حتحور» بدورها على هذه الدنيا.

ثم يبدأ في الصلاة مُرخيًا ذراعيه على جانبيه في خضوع مكررًا صلواته أربع مرات لآفاق الكون الأربعة.

«إنني أمجّد جلالتك بتلكالكلمات المختارة، بصلوات تزيد من جلالك في أسمائك العظمىوفي تجليك المقدس الذي أشرقت به في أولأيام الدنيا»(69).

ستستمر الطقوس من الإطعام والتزيين وخلع ملابس أمس، واستبدالها بملابس أخرى ثم التزيين والتعطير بالزيوت، حتى تختم طقوس الصباح برش الماء على الناووس، ثم التمثال، ثم قدس الأقداس الذي تغلق أبوابه مرة أخرى، ويعود الكهنة لمواضعهم ليستكملوا واجباتهم، ويستعدوا لخدمات الظهيرة والمساء.

في ذلك اليوم بلغ «نب ونن إف» مبلغًا من الخشوع لم يصل إليه في حياته، حتى يبدو في صلواته وكأنه ذاب تمامًا، وغرق في العالم الإلهي مُتخليًا عن ماديته لفترة من الزمن ليتردد في ذهنه مرة أخرى وبوضح شديد ذلك الابتهال الخاص بالإله «آمون» والذي استمر يقطع أفكاره منذ الصباح دون أن يجد لذلك سببًا أو تفسيرًا.

لتعطى أنفاس الحياة لمن هو في بؤس

لتنقذني من قيدي

لأنك أنت الرحيم لمن يتضرع إليك

أنت من تأتي من بعيد

إذا كان العبد مبدأ لفاعل الشر

فالإثم يرجع منه الغفران والصلاح.

ما إن يطلق «هب وتن إف» هدير الأهداس حتى يجد خبزا مذهلا في انتظاره، مفاجأة لم يتوقعها في أعتى أحلامه جموحا، ومع سماعه للخبر يسيطر على ذهنه ولآخر مرة ذلك الاستهلال الغامض للإله «آمون» بصوت أعلى من أي وقت مضى بعدما علم سببه.

«أنت «آمون» إله الصامتين

الذي يأتي على صوت نداء الفقير

عندما تضرعت إليك في محنتي

أتيت لتنقذني»(70).

رجال الدولة وتجديد العهود

استهل «وسر ماعت رع» أول أربع سنوات في حكمه بنشاط غير مسبوق التفت فيه إلى الجبهة الداخلية ليجدد العهد مع شعب مصر مرة أخرى، فنجده يقوم بتدعيم أركان حكومته، فيبقى الوزير المخلص الصاعدة بسرعة الصاروخ «باسر» في موقعه، ويُكلَّف بإصدار تقارير يومية عن أحوال البلاد ومراقبة كل كبيرة وصغيرة.

المخلص «آمون إم اينت» نائب الملك في «كوش» قد رحل عن عالمنا فيحل محله «إيوني» النشيط والذي كان مقره في العمارة غرب (تقع في السودان حاليًا) على رأس ذلك الحصن المصري الذي كان يطلق عليه «بر من ماعت رع» (بيت من ماعت رع سيتي)، وتغير اسمه في عصر «رمسيس» ليصبح «بر رعمسو مرى آمون» (بيت «رمسيس» محبوب آمون)، وقد أصدرت له الأوامر ببدء المشاريع العملاقة والتي كان أهمها اكتمال معبد «أكشا» بجوار الجندل الثاني للنيل بوصفها رسالة واضحة للنوبة القديمة وقتها على قوة «رمسيس» مع البدء في المشروع الأكبر والذي تفتق ذهن «إيوني» عن فكرة عبقرية وقتها، فهناك جبلان في النوبة الجنوبي، منها يتجلى عليه «حورس» سيد أرض محا، والشمالي تتجلى عليه «حتحور» سيدة أرض إبشك سيبني معبدين في ذلك الموقع الجنوبي لـ«رمسيس»، والشمالي مكرس لزوجته وحب حياته «نفرتاري»، وهو الموقع سيعرف في عصرنا الحالي باسم معابد «أبي سمبل».

واستأمن «رمسيس» على الخزانة «نب إيوت» (وزير المالية)، «سيسي الأكبر» ابن محافظة أسيوط المشرف على صوامع الغلال (وزير التموين).

وعلى المستوى الكهنوتي استقر «حوى» كبير كهنة الإله «بتاح» في مدينة منف، و«باك» كبير الرائين في مدينة أون (كبير كهنة عين شمس)، «ومرى» كبير كهنة الإله «أوزير» قاضي الموتى والعالم الآخر وسيد مدينة «أبيدوس».

ورفاق طفولته نجدهم يتدرجون في مناصبهم، «آمون إم اينت» فقد أصبح رئيس الإسطبلات الملكية لنجده مرافقًا للمواكب والعجلات الحربية الخاصة بالأمراء الصغار أبناء «رمسيس»، و«باك إن خونسو» الذي التحق بالسلك الكهنوتي في معبد «آمون» بالكرنك قد ترقى إلى رتبة «نبي» للإله «آمون» في مدرسة الآباء المقدسين بالكرنك.

«رمسيس» الابن البار بأبيه وأسلافه

على مستوى الإنشاءاتفي «طيبة» صدرت الأوامر في الضفة الشرقية ببناء صرح عظيم بواجهة معبد الأقصر سيكتمل في العام الثالث من حكمه، تزينه أربعة تماثيل على الأقل بالواجهة والمدخل تحيطه مسلتان عظيمتان، ستبقى واحدة منهما فقط في أرض الوطن، بينما الأخرى سيهديها «محمد علي باشا» إلى فرنسا لتستقر في ميدان «كونكورد» بالعاصمة «باريس»، سيتوفى «رمسيس» وهي لا تزال قائمة، وسيشاء القدر أن يراها لمرة أخيرة بعد مرور آلاف الأعوام على وفاته عندما زارت مومياؤه «باريس» في عام ١٩٧٦.

في الكرنك كان لا بد من إتمام مناظر صالة الأعمدة الكبرى والتي ما إن تكتمل حتى لا تضاهي أي صالة أعمدة في العالم أجمع وتحصد رقمًا قياسيًا في العصر الحديث في موسوعة «جينيس» بوصفها أكبر صالة أعمدة في العالم.

أما في غرب النيل فنجد معبد «رمسيس» الجنائزي (الرامسيوم) ترسي أساساته، وفي وادي الملوك سيكون العمل في بناء المقبرة الملكية لـ«رمسيس» مع مقبرة أخرى ستكون الأكبر بوادي الملوك سيخفيها القدر لسنوات، وستكشف خباياها في الفصول المقبلة، وفي «مكان الجمال» (وادي الجمال) كان العمل في مقبرة «نفرتاري» حب حياة «رمسيس» قد بدأبالفعل.

وفي أبيدوس التي زارها بنفسه وجد ما لم يسره بشأن والده «سيتي» وحتى الأسلاف من ملوك مصر العظماء.

«وجد المباني والمقابر في جبانةالملوك السابقين بـ«أبيدوس» متداعية، وعلى وشك الانهيار، وأجزاء منها لم تستكمل بعد.. والجدران مهملة ومتروكة دون إكمال، حتى الحجارة لمتكن مرصوصة وما بدئ فيه لم يلبث أن تفتت وعاد ترابًا، ولم تستمر أعمال البناء، بعد أن رحل أصحابهاإلى السماء ولم يجدد أي من الأبناء أثر أبيه في الجبانة، والحقيقة أن مقدمة ومؤخرة معبد «من ماعت رع» (سيتي) كانتا في طور الإنشاء عندما انتقل إلى السماء، وآثاره لمتستكمل، ولم ترتفع أعمدته على شرفاتها، وتمثاله راقد علىالأرض لم ينحت حسب الأسلوب المتبع في الورش المقدسة»(71).

يبدو أن احتفالات تتويج «رمسيس» قد جعلت القائمين على الموقع يبذلون جهدًا أكبر لمعبد «رمسيس» نفسه في المنطقة بينما أهملوا حتى معبد والده الراحل «سيتي»، لم يرض «رمسيس» عن هذا أبدًا، ف«سيتي» والده لم يبخل عليه بالجهد أو بالعطف والحب طوال حياته، تسبب ذلك الإهمال في اجتماع لمجلس البلاط.

«انظروا، لقد جمعتكم لأعرض عليكم ما بفكري... لقد فكرت فرأيت أن أجل الأعمال هو تكريم من رحلوا عنا، إن العطف نعمة، ومن الخير للابن أن يهتم بأبيه، ولقد عزمت على أن أخصص المنح لـ«من ماعت رع» (سيتي)، حتى يقال لي إلى الأبد: «إن ابنه هو الذيخلد اسمه!» وبذلك ينعم على أبي «أوزير» (أوزوريس)، ويطول بقاءابنه «حورس» (الملك نفسه)، لأني فعلت كما فعل»(72).

كان الأسلاف من أبناء مصر العظماء هم محور التكريم في عصر «رمسيس» الذي سيأمر بإحياء ذكرى الملوك السابقين فيرمّم مقابر الأسلاف الأوائل بها مع تكوين جهاز مستقبل للإشراف على تلك العملية، وضمان تقديم القرابين، وتخليد الذكرى، ولم ينسَ معهم ما يخص جده «رمسيس الأول» من منشآت هناك، وأعيد الاهتمام لمنشآت «سيتي» والده المحب لابنه ليكرم بشكل لائق.

وهناك في «أبيدوس» كانت المهمة الأبرز ليقابل «رمسيس» بنفسه الكهان «نب ونن إف» الذي كان وقتها يشغل منصب كبير كهنة «حتحور» في دندرة، وكبير كهنة الإله «إينحرت» في «ثنى»، وكبير كل الكهنة من سوهاج إلى طيبة، ومن نافذة التجلي في «أبيدوس» أشرق «وسر ماعت رع» وبجواره زوجته وحب حياته «نفرتاري»، وبحضور الحاشية وكبار رجال الدولة ومجلس الثلاثين، بينما «نب ونن إف» أسفل النافذة يتلقى بشارة «آمون» من الملك «شخصيًا.

العام الأول، اليوم الثالث والعشرون، الشهر الثالث، فصل «آخت» (الفيضان).

«أحضر «نب ونن إف» في حضرة جلالته، وكان وقتها كبير كهنة «إينحرت» (إنوريس)، وكبير كهنة «حتحور» سيدة «دندرة»، ورئيس كل أنبياءالآلهة شمالًا من «ثنى» وجنوبًا حتى «طيبة» وقال له جلالته: «أنت الآن كبير كهنة «آمون»، وخزائنه وصوامعه تحت «خاتمك» (إشرافك)، ستكون على رأس معبده وكل مؤسسة به تحت سلطانك، أما بيت (معبد) «حتحور» سيدة دندرة سيكون تحت تصرف ابنك، وسيرث مناصب أسلافك، المناصب التي شغلتها أنت، أقسم بـ«رع» الذي يحيا لي ويحبني، وبـ«آمون» الذي يفضلني، لقد عرضتأمامه كبار الحاشية وقادة القوات وكل أنبياء الآلهة وأنبياءمعبده فلم يرضَ عن أحد منهم حتى ذكرت اسمك أمامه،احتضنه بقوة فقد رغب فيك، وأنا متيقن من أنكقادر على ذلك»(73).

تسلم بعدها «نب ونن إف» الخاتمين الذهبيين والصولجان المصنوع من الإلكتروم (الذهب والفضة) ليعلن بطول البلاد وعرضها أن «نب ونن إف» أصبح على رأس كهنوت «آمون» في

«طيبة»، ورئيس خزائنه المليئة بالذهب والفضة، والمشرف على صوامع غلاله، والمشرف على الأعمال والمشرف على الحرفيين بـ«طيبة»، ليلقى على عاتقه الإشراف على تنفيذ مشاريع «رمسيس» في الكرنك ليكمل تزيين صالة الأعمدة الكبرى، ويعمل على تنفيذ بقية مشروعاته بنجاح، ولتشمل تلك الأخبار السارة العائلة بأكملها فيتولى ابنه «سما تاوي» مناصبه، وتصبح زوجته «تا خعت» كبيرة حريم «آمون»، الحقيقة أن عائلة «نب ونن إف» كما خدمت مصر لأجيال سابقة سبقت عصر «رمسيس» نفسه ستظل في الخدمة لأجيال عديدة سيسجلها يومًا ما حفيد «نب ونن إف» المدعو «باسا» (عاش تقريبًا في عصر الأسرات ٢٢، ٢٣)، والذي كان كاهنًا بمبعد «حتحور» في دندرة ليذكر خدمة أسرته في المناصب لستة وعشرين جيلًا، سجل «باسا» ذلك النص في محاولة يائسة اتبعها الكثيرون من ذوي الشأن في عصور الفوضى للحفاظ على هويتهم وأصولهم والفخر بأجدادهم العظماء.

«برعمسو».. العاصمة الجديدة

«بنى جلالته لنفسه مقرًا أسماه «بر رعمسو عا نختو- بيت «رمسيس» عظيمالانتصارات»، تقع بين «جاهي» و«تا مرى» (مواجهي حدودآسيا ومصر)، مليئة بالطعام والمؤن، صممت على طرازمدينة أيونو الجنوبية (طيبة)، وامتدادها مثل «حت كا بتاح» (منف)، تشرق الشمسوتغرب فيها، الكل ترك مدينته وسكن في أحيائها، في جزئهاالجنوبي بيت «آمون»، والجنوبي «ست»، «عشتارت» في الشرق، «واجيت» فيالشمال، والقلعة في وسطها وكأنها أفق السماء (الجنة)، ورمسيس محبوب آمون بها وكأنه الإله «مونتو» في الأرضين، وشمس الحكام وزيرها، وفرحة مصر محبوب آمون عمدتها».

بردية أنستازي(74).

أهم مشاريع «رمسيس» على الإطلاق كان المشروع الذي سيخلد به مسقط رأسه ليكون عاصمة البلاد، فهناك أسس مدينته «بر رعمسو عا نختو» (بيت «رمسيس» عظيم الانتصارات) كبداية لسلسلة من المدن حملت اسم «رمسيس» داخل وخارج مصر، شيدت تلك المدينة في المنطقة الواقعة ما بين «بحر رع» وبحر «أواريس» بشرق دلتا الدنيل حاليًا، في زمن سابق قام جده «رمسيس الأول» ببناء قصر هناك قام بتوسعته ابنه «سيتي الأول»، وعمل بعض الإضافات هناك، ولكن «رمسيس الثاني» كانت له نظرة أخرى.

وكما كانت وثق «سيتي الأول»، وراهن على شاب صغير يدعى «باسر»، والذي أصبح الوزير فيما بعد، راهن «رمسيس» على شاب آخر بزغ نجمه في عهد «سيتي»، وهو «ماي» الذي سيتولى الإشراف والإدارة على بناء تلك المدينة العظيمة التي لن يكون لها مثيل.

كان مركز المدينة هو ذلك القصر الإمبراطوري الذي أراد «رمسيس» أن يكون علامة فارقة تبين عظمته هو شخصيًا، فتمت زخرفته بالفيانس (القيشاني) في زخارف لم ير لها مثيلًا منذ عصور، والحوائط والأرضيات والأعمدة والأبواب مزينة بمناظر الأسرى الخاضعين والحدائق الغناء وكل ما تشتهيه الأعين في أرض مصر، القصر نفسه احتوى قاعة غُطيت أرضها بالكامل بالذهب، أما قاعة العرش فقد توسطها درجتي صور عليهما الأقواس التسعة (أعداء مصر التقليديين) ليطأهم الملك بأقدامه أثناء صعوده وتجليه على العرش، أما الإفريز (الدرابزين) المؤدي للعرش فزين بمناظر الأسود التي تهجم على الأعداء فتفترسهم، وفي الصادرة عرش «رمسيس محبوب آمون» الذهبي الذي يتلألأ وكأنه إشراقة الإله «رع» بنفسه، يمكننا بقليل من الجهد أن نتخيل الحاشية التي تملأ جنبات تلك القاعة من كبار المسئولين والوزراء وقادة الجيش والمجالس الاستشارية وحتى الأمراء الصغار أطفالًا كانوا أم مراهقين

في بداية الشباب يتوسطهم «رمسيس» جالسًا على ذلك العرش يزين رأسه تاج «خبرش الأزرق» المصنوع من جلد النعام، يزين صدره القلادات، وتتحلى يداه بالأساور الذهبية، بينما نقبته القصيرة المصنوعة من أجود أنواع الكتان يلفت بياضها الأنظار يتوسطها غمد احتوى على خنجر والصنادل المذهبة تزين أقدام الملك الذي يرقد بجواره أسده الأليف الذي سيرافقه في معركة «قادش» يومًا ما.

أما عن المنطقة المحيطة بالقصر فاحتوت على المقرات الحكومية ومقرات العجلات الحربية، بالإضافة إلى ذلك كان هناك ثلاث مناطق للتسليح وثكنات عسكرية وحتى استراحات للحرس الشخصي للملك.

أماالإسطبل الملكي العظيم من جهة الشرق والذي عند الكشف عنه في عصرنا الحديث سيحصل على رقم قياسي في موسوعة جينيس للأرقام القياسية كونه أول إسطبلات خيول في العالم، وربما يبدو مصطلح إسطبلات خادعًا؛ فهذه المنشأة قد كان بها ٤٥٠ مكانًا لمبيت الخيول مع نظام لتصريف المخلفات يسمح بإعادة تدويرها مرة أخرى لاستخدامها سمادًا، بالإضافة إلى ساحات واسعة للجري، والأغرب من ذلك حديقة الحيوانات التي احتوت الحيوانات الموجودة بالبيئة المصرية بالإضافة إلى الأفيال والزراف والأسود، بينما مخازن الغلال على مرمى البصر يحيط بها أسوار عالية من الطوب اللبن ممتلئة عن آخرها بالمنتجات والخيرات التي لا تنضب أبدًا والتي تعمل السفن على جلبها لمرفأ المدينة يوميًا بشكل متواصل.

وقد كانت حدود المدينة محمية من الاتجاهات الأربعة بلمسة إلهية فنجد معبد الإله «ست» بالجنوب؛ ذلك الإله المحلي الذي سبغ حمايته على تلك المنطقة (الختعنة تحديدًا) لقرون عديدة وتبنى الهكسوس أحد أشكاله يومًا ما بعدما وجدوا فيه من صفات إلههم «بعل»، أما الشمال فكان في حماية معبد الإلهة «واجيت» سيدة منطقة «تل نبيشة - تل فرعون حاليًا»، والشرق معبد للربة الآسيوية «عشتارت» في إشارة إلى اندماج المعبودات الآسيوية في المنظومة المصرية القديمة وأيضًا لاحتواء الأجانب والوافدين لتلك المدينة من شرقها الذي يواجه حدود مصر مع آسيا، أما في الجنوب في اتجاه مدينة «طيبة» فكان معبد الإله الإمبراطوري «آمون» الذي ماثل في بهائه أعمدة الكرنك العظيمة مع واجهة بها أربعة تماثيل على الأقل للملك يبلغ طوال الواحد منها ما يقرب من ٢١ مترًا.

كانت تلك المدينة التي أحاطتها المياه وتخللتها تغطي مساحة تتجاوز ١٥ كم مربع، وهي آخر المدن الإمبريالية والأعظم في تاريخ مصر بأسرها.

تلك المدينة التي يقع معظمها الآن أسفل حقول المزارعين والمناطق السكنية في منطقة

«قنتير» حاليًا بعد آلاف الأعوام من تشييدها لتختفي في باطن الأرض.

«لقد وصلت إلى مدينة «بر رعمسو» محبوب «آمون»، ووجدتها في أفضلحال، منطقة لا مثيل لها، لها سمت «طيبة»، لقد أسسها الإله «رع» بنفسه، وسكانها سعداء وريفها مملوء بكل شيء طيب، وبها طعام ومؤن كل يوم، البرك فيها مملوءة بالأسماك، والطيور وحدائقها مخضرةبالأعشاب، والخروب طعمه مثل العسل، وشن غلالها مليئة يناطحطولها السماء، بصل، وخس، ورمان، وتفاح، وزيتونتين البستان، والنبيذ المعتق الأشهى من العسل... إلخ

تبحر سفنها ذهابا وإيابًا لتزودها بالمؤمن كل يوم، والفرح يسكنها ولا يقول أحد ينقصنيبها شيء، الصغير الشان فيها كالعظماء، تعالَ لنحتفل بأعيادالسماء بها..إلخ..».

رسالة من الكاتب باباسا إلى الكاتب آمون إم اوبت سيده (مديره)

بردية أنستازي(75).2 II

ها هو «وسر ماعت رع» ملك مصر المتوج المتألق يبدو أنه أنهى أعماله بداخل البلاد، وحان الوقت للنظر إلى ما بعد حدودها لمجابهة الأعداء، يتحرق شوقًا للتوجه إلى مدينة وقلعة «ثارو» ليبدأ المسيرة على أول «طريق حورس الحربي» ليبدأ فصلًا جديدًا من الأمجاد.

إلى «قادش» مرة أخرى.. معركة «قادش الثانية»

في السنة الرابعة من الحكم ومع بلوغه عامه التاسع والعشرين كان «رمسيس» في أوج حيويته واندفاعه، وما إن استتبت له الأمور بداخل البلاد حتى بدأ في طرق أبواب حلم يلح عليه منذ زمن بعيد وهو العودة إلى آسيا مرة أخرى، وقد كان صوب أعين «رمسيس» قناعة لم يتخلّ عنها أبدًا؛ وهي أن «أمورو» و«قادش» أراضي مصرية منذ زمن «تحتمس الثالث» الذي كان يعتبره هو وأسرته مثلهم الأعلى، وكانتا هما أيضًا السبب المباشر في عدم تقبل «رمسيس» لـ«إخناتون» الذي أضاعهما مع هيبة مصر في آسيا، فلم يطلق عليه طوال حياته سوى لقب: «مجرم آخت أتون»، وعلى الرغم مما حققه أبوه من نجاحات إلا أن «موتالي» ملك الحيثيين لا يكل ولا يمل؛ فهو يؤمن أيضًا بأن هذه المناطق لن تقع سوى تحت سلطانه هو، بل إنه كان السبب في وضع المدعو «بنتشيما» على رأس السلطة هناك، والذى كان ولاؤه وتحيزه للحيثيين واضحًا.

وضع «رمسيس» خطة بعيدة المدى لتحقيق أهدافه تباعًا، ستبدأ بزحفه حتى «أمورو» لمعاقبة الخائن «بنتشيما» الذي لا يخشى مصر، فخرجت الحملة الأولى ولم تواجهها صعوبات كثيرة؛ فالوضع في «كنعان» هادئ لا يشوبه تمرد مكن «رمسيس» من الوصول بقواته إلى «صور» في سهولة والتي تقدم منها إلى «جبيل» حتى استولى على «إرقاتا» (عرقة)، واتجه من هناك شرقًا حتى وصل إلى «أمورو» نفسها الذي بوغت ملكها «بنتشيما» بهذا الهجوم المفاجئ، فلم يستطع حتى الاستنجاد بسيده «موتالي»، ولم يجد مفرًا سوى الخضوع لمصر ودفع جزية سنوية، وأرسل رسالة إلى «موتالي» مفادها أنه لم يعد تابعًا له، وإنما لمصر منذ هذه اللحظة، على أن تلك الرسالة كانت أقرب للاستغاثة وتجديد الولاء لـ«موتالي» ليس إلا من جانب «بنتشيما»، رأى «رمسيس» أن الغرض من الحملة قد تحقق وبدأ في إجراءات العودة إلى مصر وقبل أن يغادر «أمورو» أعاد لقوات الـ«نعرن» من حلفائه مركز قيادتهم في «عرقا»، ونصب لوحات تذكارية لانتصاراته في الطريق كان أهمها واحدة بالقرب من نهر الكلب، واستغرقت الحملة حتى العودة إلى مصر ستين يومًا بالتمام والكمال، اليوم وقعت «أمورو»، وبعد زمن قصير سيعود «رمسيس» مرة أخرى لاستعادة «قادش» هذه المرة، ولنرى إن كان «موتالي» يجرؤ على إيقافه!

على الجانب الآخر فإن «موتالي» العتيد لم يقف ساكنًا، فلما علم بما حدث في «أمورو» بدأ بالفعل في حشد القوات وعمل التحالفات اللازمة، ليس لاستعادة «أمورو» فقط ولكن للقضاء على «رمسيس» مرة واحدة وإلى الأبد، ولنرى إن كان يجرؤ على وضع قدمه في آسيا مرة أخرى!

إلى «قادش» مرة أخرى.. معركة «قادش الثانية»

في السنة الرابعة من الحكم ومع بلوغه عامه التاسع والعشرين كان «رمسيس» في أوج حيويته واندفاعه، وما إن استتبت له الأمور بداخل البلاد حتى بدأ في طرق أبواب حلم يلح عليه منذ زمن بعيد وهو العودة إلى آسيا مرة أخرى، وقد كان صوب أعين «رمسيس» قناعة لم يتخلّ عنها أبدًا؛ وهي أن «أمورو» و«قادش» أراضي مصرية منذ زمن «تحتمس الثالث» الذي كان يعتبره هو وأسرته مثلهم الأعلى، وكانتا هما أيضًا السبب المباشر في عدم تقبل «رمسيس» لـ«إخناتون» الذي أضاعهما مع هيبة مصر في آسيا، فلم يطلق عليه طوال حياته سوى لقب: «مجرم آخت أتون»، وعلى الرغم مما حققه أبوه من نجاحات إلا أن «موتالي» ملك الحيثيين لا يكل ولا يمل؛ فهو يؤمن أيضًا بأن هذه المناطق لن تقع سوى تحت سلطانه هو، بل إنه كان السبب في وضع المدعو «بنتشيما» على رأس السلطة هناك، والذى كان ولاؤه وتحيزه للحيثيين واضحًا.

وضع «رمسيس» خطة بعيدة المدى لتحقيق أهدافه تباعًا، ستبدأ بزحفه حتى «أمورو» لمعاقبة الخاسن «بنتشيما» الذي لا يخشى مصر، فخرجت الحملة الأولى ولم تواجهها صعوبات كثيرة؛ فالوضع في «كنعان» هادئ لا يشوبه تمرد مكن «رمسيس» من الوصول بقواته إلى «صور» في سهولة والتي تقدم منها إلى «جبيل» حتى استولى على «إرقاتا» (عرقة)، واتجه من هناك شرقًا حتى وصل إلى «أمورو» نفسها الذي بوغت ملكها «بنتشيما» بهذا الهجوم المفاجئ، فلم يستطع حتى الاستنجاد بسيده «موتالي»، ولم يجد مفرًا سوى الخضوع لمصر ودفع جزية سنوية، وأرسل رسالة إلى «موتالي» مفادها أنه لم يعد تابعًا له، وإنما لمصر منذ هذه اللحظة، على أن تلك الرسالة كانت أقرب للاستغاثة وتجديد الولاء لـ«موتالي» ليس إلا من جانب «بنتشيما»، رأى «رمسيس» أن الغرض من الحملة قد تحقق وبدأ في إجراءات العودة إلى مصر وقبل أن يغادر «أمورو» أعاد لقوات الـ«نعرن» من حلفائه مركز قيادتهم في «عرقا»، ونصب لوحات تذكارية لانتصاراته في الطريق كان أهمها واحدة بالقرب من نهر الكلب، واستغرقت الحملة حتى العودة إلى مصر ستين يومًا بالتمام والكمال، اليوم وقعت «أمورو»، وبعد زمن قصير سيعود «رمسيس» مرة أخرى لاستعادة «قادش» هذه المرة، ولنرى إن كان «موتالي» يجرؤ على إيقافه!

على الجانب الآخر فإن «موتالي» العتيد لم يقف ساكنًا، فلما علم بما حدث في «أمورو» بدأ بالفعل في حشد القوات وعمل التحالفات اللازمة، ليس لاستعادة «أمورو» فقط ولكن للقضاء على «رمسيس» مرة واحدة وإلى الأبد، ولنرى إن كان يجرؤ على وضع قدمه في آسيا مرة أخرى!

ما قبل المعركة

مع وقوع «أمورو» تحت سيطرة مصر (ولو مؤقتًا) أصبح الصدام المصري الحيثي وشيكًا؛ وهو ما كان يعلمه الطرفان «موتالي» و«رمسيس»؛ لذلك كانت العدة لتلك المواجهة ليست كمثلها عبر تاريخ البلدين، وعلى الرغم من أنهما من نفس الجيل إلا أن من الواضح أن لكل منهما سياسة مختلفة عن الآخر، ف«رمسيس» يميل إلى المواجهات الحاسمة التي تصل إلى حد الاندفاع في اتخاذ قرار الحروب التي خاضها منذ نعومة أظافره، وذاق فيها طعم النصر سعيًا وراء الحلم الكبير وهو الإمبراطورة التحتمسية، تحمل نصوص عصره وتعبيراته روح ملوك مصر المقاتلين الذين يصفون أعداءهم بأنهم خاسئون أذلاء مهزومون جبناء دنيئون، لا يعرفون الإله بل إنه وصف نفسه بالأسد في وادٍ من الأغنام، لا يقبل بالمفاوضات أو أنصاف الحلول، ويرى أن مصر تستحق أن تكون هي الأقوى في العالم القديم، ولا يرى ذلك صعبًا خاصة مع استيلائه على «أمورو» الذي كان في غاية السهولة مع عدم وجود رد فعل من «موتالي» زاد من ثقة «رمسيس» بنفسه، وجعل اتخاذ قرار الحرب الكبرى سهلًا.

«موتالي» حتى الآن لم يظهر في أرض المعركة ضد مصر بل إننا لا يوجد لدينا أدلة على مواجهته بنفسه لـ«سيتي» في أرض المعركة عند أسره لـ«قادش» في المرة الأولى والتي عادت إلى ممتلكاته عن طريق المواءمات السياسية وليس الحرب، وهو على العكس تمامًا من «رمسيس» يبتعد عن المواجهات الحربية المباشرة، ويميل إلى دهاليز السياسة، وتأليب الممالك ضد مصر ليخرج هو بأكبر المكاسب.

مع إصرار «رمسيس» على الزحف نحو «قادش» هذه المرة لم يكن أمام «موتالي» سوى الاستعداد لها وعلى أرض الواقع، فإن الكفة تميل قليلًا ناحيته بالفعل ف«قادش» أقرب لعاصمته «خاتوشا»، وتحت نظره على العكس من مصر التي تبعد عنها بمسافة كبيرة، «موتالي» يمكنه تأليب ممالك «سوريا» وحتى بدو «الشاسو» ضد مصر الذين يغيرون على الحدود بين الحين والآخر ما بين «ثارو» و«با كنعان» بل وفي بعض الأحيان يستطيعون السيطرة على بعض الحاميات الحدودية المصرية التي تستعيدها مصر في النهاية، ولكنها تستنزف بعض قواها.

العجيب أن المصادر المصرية هي التي أمدتنا بتلك التجهيزات، عن طريق المعلومات المخابراتية علمت مصر أن «موتالي» قد استخدم ماله وسلطانه في عملية تعبئة عامة استطاع من خلالها اجتذاب حلفاء وتابعين بلغ عددهم ما يزيد على ثماني عشرة إمارة ومملكة وقبيلة ليصبح سهل آسيا الصغرى وشمال سوريا كله متحدًا معه ضد مصر حتى بدو «الشاسو» كانوا في صفه، كان قوام جيشه فرقتين بلغ عددهما مجتمعين سبعة وثلاثين ألف

مقاتل (ربما كانت الأعداد مبالغًا فيها!)، أما القوات الحيثية نفسها فكانت مركز الأحداث والرابط القوى لتلك القوات التي لا يجمعها أصل أو عِرق واحد، وقد بلغ عددها ألفين وخمسمائة من المركبات الحربية الحيثية بالإضافة إلى اثنين من إخوة «موتالي» على الأقل ومعهم ابن عمه أمير حلب «تالمي ساروما» حفيد شيبلوليوما هو الآخر، هذه التجهيزات المهولة أوضحت نية «موتالي» في توجيه ضربة قاضية لـ«رمسيس» تحسم صراعه مع مصر إلى الأبد، وقد استهلّ «موتالي» تجهيزاته بقسمه وولائه لآلهته في «خاتوشا» لينصروه في معركته.

«والآن فإن العدو الخسيس من «خاتي» جاء وحوله كل البلاد الأجنبيةحتى نهاية حدود البحر، كل بلاد «خاتي» قد أتت ومعها«نهران» و«إرثو» و«أردني» و«كشكش» و«ماسا» و«بداسا» و«أرونت» و«قرقيشا» و«لوكا» و«كيجودن» و«قرقميش» و«عكرث» و«قدى»، وكل أرض نجس و«موشانت» و«قادش»، لم يترك بلدًا إلا وأحضره، كل هذه البلادالبعيدة ورؤساؤها كانوا معه، وكل منهم معه مشاته و٥٠ من عجلاته الحربية في عدد مهول لا مثيل له، غطوا الجبالوالوديان وكأنهم الجراد، لم يترك ذهبًا ولا فضة في بلاده، جردها من كل ممتلكاتها ليعطيها لكل تلك البلادلتحارب معه».

من نص ملحمة «قادش» الذي دونهالكاتب «بن تا ور»(76).

في العاصمة المصرية «بيت «رمسيس» عظيم الانتصارات» فقد حشد «رمسيس» للمواجهة أربع فرق رئيسية للجيش؛ وهي فرقة آمون التي خُشِدت من «طيبة» والتي كان على رأسها «رمسيس» شخصيًا، فرقة «بتاح»، والتي حشدت من مدينة «منف»، فرقة «رع» والتي حشدت من مدينة عين شمس، فرقة «ست» والتي خُشِدت من العاصمة «بر رعمسو» ليكون قوام الجيش أربع فرق مقاتلة تحمل أسماء الآلهة الثلاثة الكبار للإمبراطورية ومعهم «ست» إله مسقط رأس «رمسيس»، ليختلف عن نقوش أبيه في ذكره لفرقة تحمل لواء الإله «بتاح» بصفتها فرقة رابعة للجيش المصري.

يتألق وسط القوات سلاح العجلات الحربية باعتباره السلاح الفتاك ذا السرعة الخاطفة، فالعجلة الحربية المصرة سلاح خفيف الحركة يستطيع حمل فردين واحد لحمل الدرع، وتزود السهام، والآخر لإطلاقها، ومع وجود النبالة المصريين بأقواسهم المركبة بعيدة المدى.

بجوار الوزير الأعلى والكتبة العسكريين وكبار قادة الجيش المصري ضمت قوات «رمسيس» جنود الشردانا بدروعهم الدائرية والخوذة نصف المستديرة التي يعلوها قرنان، بل إن بعضهم من عناصر قوات الحرس الشخصي لـ«رمسيس»، من المثير للإعجاب استطاع

الضباط المصريون تجنيدهم بهذه السرعة.

من المثير للإعجاب أن «رمسيس» قام بقيادة الجيش المصري بنفسه كما فعل أسلافه من قبل، وضم جيشه العديد من أبنائه صغار السن نذكر منهم ولي عهده «آمون حر خبش إف» (الذي غير اسمه)، الأمير اللامع «خع إم واست»، وكذلك الأمير «با رع حر وتم إف» الذي سيحمل لقب «أشجع شجعان الجيش»، بالإضافة إلى بعض الحريم الملكي ورجال الحاشية.

و«رمسيس» نفسه تجم متوج وسط كل هؤلاء يقود عجلته الحربية المذهبة وبجواره حامل درعه «مئنا»، يحيي «رمسيس» الجموع رافعًا سيف «خبش» المصر الذي يشبه منجل الحصاد، دروعه تتألق تحت أشعة الشمس فتجعله مثل «مونتو» إله الحرب، وتاج «خبرش» الأزرق يزين رأسه، التاج الذي ارتداه أبوه وجده من قبله، وكانا جديرين به، والآن حان وقت «رمسيس».

كان على كل هؤلاء قطع مسافة تتجاوز ١٦٠٠ كم تقريبًا للوصول إلى «قادش» القريبة جدًا من «موتالي»؛ لذلك كانت منظومة الإمدادات والتموين المصرية على أعلى مستوى بدءًا من العاصمة «بر رعمسيس»، وبطول طريق حورس الحربي، وحتى في القلاع والنقاط الإستراتيجية التابعة لمصر خارج الحدود.

سيبدأ المسير كالعادة من «تارو»، وبجوارها النقطة الحصينة الأخرى التي كانت تسمى «عرين الأسد»(77) في إشارة لوالده المتوفى، وأصبحت الآن تسمى «عرين سسي»(78) وهو اسم تدليل «رمسيس» الذي حفظه لنا هذا المكان الفريد.

الكل على أهبة الاستعداد والجيش كامل العدد والعتاد.. فلتتحرك القوات..

---

54 كنت كتشن، "رمسيس" فرعون المجد والانتصار ص ٤٥.

55 OIP 107, Reliefs and Inscriptions at Karnak, Volume IV: The Battle Reliefs of King Sety I, Oriental Institute Publications (OIP) (1986) P07.

56 "رمسيس" فرعون المجد والانتصار ص ٤٦.

57 سليم حسن، الجزء السادس، عصر رعمسيس الثانى وقيام الإمبراطورية الثانية، ص ٢٠٤.

58 كريستيان نوبلكور، "رمسيس" فرعون المعجزات ص ٨٢.

59 Herbert Ricke, George R. Hughes, and Edward F. Wente, Oriental Institute Nubian Expedition, OINE 1, The Beit el Wali Temple of Ramesses II.P11.

60 OINE 1, *The Beit el Wali Temple of Ramesses* II.P12.

61 أدب الحكمة ص ٥٨.

62 أحمد شوقي، الشوقيات، مؤسسة هنداوي ٢٠٢٠.

63 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، ج٢، ص ٤٧.

64 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة ج٢، ص ١٢

65 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، ج٢، ص ٤١.

66 سيرج سونيرون، كهان مصر القديمة، ترجمة: زينب الكردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٨٩.

67 أدلوف إرمان، هرمان رانكه، مصر والحياة المصرية، ص ٢٩٥.

68 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، ج٢، ص ٣٨.

69 سيرج سونيرون، كهان مصر القديمة، ص ٩١.

70 Lichtheim, Miriam (1976), Ancient Egyptian Literature, Volume II: The New Kingdom, Votive Stela of Nebre with Hymn to Amen Re PP105:107.

71 "رمسيس" فرعون المجد والانتصارات، ص ٧٤.

72 "رمسيس" فرعون المجد والانتصارات ص ٧٥.

73 Kitchen, K.A., Ramesside Inscriptions, Translated & Annotated, Translations, Volume III, Blackwell Publishers, 1996.

74 Pithom and Raamses: Their Location and SignificanceE. P. UphillJournal of Near Eastern StudiesVol. 28, No. 1 (Jan., 1969), Published By: The University of Chicago Press P 15.

75 Pithom and Raamses: Their Location and Significance P15.

76 Lichtheim, Miriam, Ancient Egyptian Literature, Volume II: The Kadesh battle

inscriptions of Ramses II, The poem P64.

77 تا عت با مای.

Al_Ayedi, Abdul Rahman (2000). THARU: THE, STARTING POINT ON THE "WAYS OF HORUS", A thess submitted in conformity with the requirements for the degree of Master of Arts, Graduate Department of Near and Middle Eastern Civilizations, University of Toronto. P24.

78 تا عت سسى، تا عت رعمسو مرى إمن.

Al_Ayedi, Abdul Rahman (2000). THARU P24

الفصل الرابع: «قادش».. صراع إمبراطوري

يحكى في «قادش»

«والآن فإن جلالته جهّز مُشاته وعجلاته الحربية والشردانا الذين وقعوا في أسر جلالته، وجلبهم من انتصارات ذراعها القوية، وتم تزويد الكل بالأسلحة، وأعطيت التعليمات لهم، توجه جلالته شمالًا ومعه مشاته وعجلاته الحربية في بداية مبشرة، وفي اليوم التاسع من الشهر الثاني من فصل الصيف، العام الخامس عبر قلعة «تارو» قويًا ذا بأس مثل «مونتو» (إله الحرب)، كل الأراضي الأجنبية ترتعد أمامه وزعماؤها يجلبون هداياهم، والمتمردون ينحنون خوفًا من قوة جلالته، عبر جلالته الطرق الضيقة كما لو كان يمشي في شوارع مصر»(79).

انطلق الجيش المصري في طريقه المعتاد من العاصمة «بر رعمسو» متجهًا شرقًا إلى «تارو» عبر طريق حورس الحربي حتى وصل إلى «با كنعان» (غزة) والتي عبرها بسرعة حتى امتداد الساحل حتى «صور» متجهًا إلى «جبيبل»، وهناك تقابل مع قوات شباب النعرن التابعة لمصر والتي تمركزت هناك سابقًا منذ عدة أشهر، فأعطاها التعليمات ودورها في الصدام الذي سيحدث في «قادش»، كانت خطة «رمسيس» هي تقدم القوات المصرية وراء بعضها البعض تتقدمها فرقة «آمون»، ثم «رع»، ثم «بتاح»، وأخيرًا «ست» لضمان سرعة التقدم وتنظيم الوقفات التعبوية بشكل أسهل(80).

واصل بعدها «رمسيس» المسير بفرقة «آمون»، حتى وصل إلى «أوبى» (بالقرب من دمشق)، حيث المنطقة الإدارية المصرية التي حملت اسم «بيت «رمسيس» محبوب آمون»(81). في وادي الأرز، وحان الوقت لتمركز القوات في المنطقة الجبلية عند الضفة الشرقية لنهر العاصي وقضاء الليل هناك.

«والآن وبمرور الأيام على هذا، كان جلالته في مدينة «بيت «رمسيس» محبوب آمون» المدينة الموجودة بوادي شجر الأرز، وتوجه جلالته شمالًا، وعندما وصل إلى تل «قادش» تقدم جلالته مثل «مونتو» سيد طيبة، وعبر نهر «أورونتوس» (العاصي) مع فرقة «آمون» المعطي النصر» وسر ماعت رع ستب إن رع»، ووصل جلالته لمدينة قادش»(82).

مع إشراقة اليوم الجديد تعجل «رمسيس» الوصول إلى «قادش»، فسبق فرقة «آمون»، وتقدم على عجلته الذهبية برفقة أسده الأليف الفاتك بالأعداء، ومعه الحاشية وحرسه الشخصي الذي كان أغلبه من جنود الشرادانا وخاض «غابات اللبوة» ليتخطى بعدها معبر نهر العاصي جنوب مدينة «شيتونا»(83).

ما إن يصل «رمسيس» إلى جنوب «شبتونا» لن يفصله عن «قادش» سوى بضعة كيلومترات، وهنا يحدث أمر مهم وعجيب، استطاعت فرقة الاستطلاع القبض على اثنين إخوة من بدو «الساشو»، وبعد التحية الواجبة من الضرب كان الأمر بإحضارهم ليمثلوا أمام «رمسيس».

«وجاء اثنان من قبائل بدو «الساشو» وقالا لجلالته، إن إخوتنا زعماء القبائل المتحالفة مع «خاتي» أرسلونا لجلالتك ليقولوا لك إنهم سيصبحون خدمًا لك ويتركوا زعيم خاتي».

وهنا سألهم «رمسيس»:

« أين هم؟ إخوتكم الذين أرسلوكم لتخبروا جلالتي بهذا الأمر؟».

فأجابوه:

«هم مع زعيم «خاتي»، إن العدو بعيد في حلب شمال «تونيب»؛ لأنه خاف من التقدم للجنوب عندما علم بتقدمكم شمالًا»(84).

يبدو أن فكرة الاستيلاء على «قادش» كانت مسيطرة على «رمسيس» إلى حد الهوس لدرجة تصديق أن «موتالي» كان بالفعل خائفًا منه لا يجرؤ على التقدم بل ويختبئ بجيشه في منطقة تبعد عن موقع «رمسيس» الحالي ما لا يقل عن مائتي كيلومتر، وهنا بدأت سلسلة من الأخطاء التي لا تُغتفر فلم يُستجوب البدويان أكثر من ذلك ولم يكلف «رمسيس» نفسه بإرسال ولو جندي استطلاع واحد ليؤكد ما قاله البدويان اللذان إن كانا من الكاذبين سيعني ذلك فخًا قاتلًا لن ينجو منه «رمسيس»، وربما يكلفه حياته، يبدو أنه لم يطلع بما فيه الكفاية على حكمة الأجداد.

«أما الأجانب فإليك نصيحتي فيما يخصهم

إن الآسيوي (البدوي) خسيس، شقي

فهو دائم الترحال لندرة الماءوالخضرة

وطرقه وعرةلكثرة الجبال في أراضيه

وهو لا يعرف الاستقرار في مكانواحد

تحركه الحاجة والعوز

فيرتحل في الصحاري سيرًا علىالأقدام

وهو يسفك الدماء ويقطع الطريق منذ زمن حورس (منذ الأزل)

وهو لا يحارب بشرف (دفاعًا عن أرضه)

ولا يعلن أبدًا عن اليوم الذي يبدأ فيه الحرب

هو كاللص الذي ينبذه المجتمع».

(جزء من التعاليم التي لقنت للملك المصري مري كا رع - عصر الفوضى الأول ٢١٥٠-٢٠٢٥ ق.م)(85).

فخ قاتل.. خديعة البدو

بغرابة شديدة أخذ «رمسيس» وحاشيته وحرسه الشخصي في المضي قُدمًا نحو «قادش» خلفه بمسافة قريبة فرقة «أمون»، ومع انتصاف اليوم ووصول الشمس إلى كبد السماء يصل «رمسيس» وحاشيته وحرسه، وكذلك فرقة «أمون» إلى شمال غرب «قادش» ليبدءوا على الفور في نصب المعسكر وإحاطته بسياج مؤمن مع عمل مدخل على جانبيه تماثيل لأسدين رابضين، وتبدأ الخيام في الانتصاب الكبرى لـ«رمسيس»، وخيام أخرى للأسرة المالكة والأمراء، وفجأة يعود جنود الاستطلاع المصريون ومعهم اثنان من الحيثيين عثروا عليهما بالقرب من المعسكر، وبعد تقديم التحية اللازمة من الضرب المبرح انهمر منهما سيل الاعتراف المرعب الذي سيقلب الأمور.

«عندما أطلق سراح البدويين تقدمجلالته شمالًا حتى وصل إلى شمال غرب «قادش»، ونصب المعسكرهناك، وجلس جلالته على عرشه المصنوع من الذهب شمال «قادش» غرب نهر العاصي، وهنا جاء كشاف استطلاع لجلالته ومعه جاسوسانتابعان لـ«خاتي» اللذان أحضرا لجلالته فقال لهما: من أنتما؟ فردا: نحن من أتباع زعيم «خاتي» الذي أرسلنا لمعرفة مكانكم، فقال جلالته: أين هو؟ لقد سمعت أنه في حلب شمال تونب! فقالوا لجلالته: انتبه، إن الخسيس زعيم «خاتي» جاء ومعهبلدان كثيرة حلفاء له؛ «دردني»، «نهرين»، «كشكش»، «ماسا»، «بيداسا»، «كركيشا»، «لوكا»، «قرقميش»، «أرزاوا»، «أوجاريت»، «إيرون»، «إنيسا»، «موشانت»، «قادش»، «حلب»، وكل أرض «خاتي»، كلهم مجهزون بمشاتهم وعجلاتهم الحربيةوأسلحتهم وعددهم أكثر من حبات الرمل، انتبه إنهم مستعدون خلف «قادش» القديمة»(86).

اتضحت الحقيقة كاملة أمام «رمسيس»، المعلومات التي أدلى بها الساشو كانت خدعة من «موتالي» الذي استدرج «رمسيس» لساحة المعركة بلا أي تجهيزات، كان الاعتراف المرعب الذي سمعه «رمسيس» يعني أن «موتالي» يمكنه الهجوم في أي لحظة الآن.

وجرى إعلان حالة الطوارئ في المعسكر كله بينما اجتمع «رمسيس» بكبار القادة للتشاور في الأمر.

لم يدخر «رمسيس» جهدًا في صب جام غضبه عليهم وتأنيبهم على الخطأ الفادح وربما تناسى أنه شخصيًا كان شريكًا فيه.

«وعلى ذلك جمع جلالتهالقادة ليسمعوا بأنفسهم كلمات كشافة العدووقال لهم: إنتبهوا للموقف، ظل الحكام الموالين والقادة يرددون لى كل يوم أن العدو في حلب شمال تونيب،

وأنه هرب عندما علم بقدومكرروا هذا على مسامعي كل يوم، والآن وفى هذه اللحظةفإن العدو وحلفاؤه وجيوشهم مختبئون خلف «قادش» القديمةبينما (المخابرات) فشلت في إعلامى بقدومهم»(87).

بدا الاضطراب يعم المعسكر المصري، بينما الأمير «آمون حر خبش إف» يعلن عن اختراق المعسكر المصري، «رمسيس» يصدر خطة مرتجلة بدأت بأوامره للوزير لاستعجال فرقة «بتاح» التي لا تزال في «شبتونا»: «أسرعوا فالملك يقف وحيدًا».

كُلّف الأمير «با رع حر ونم إف» ابن «رمسيس» بأن يتجه بمن حضروا من أفراد الأسرة إلى الغرب ليبتعدوا عن أرض المعركة، كذلك التوجه مع الوزير لاستعجال فرقة «بتاح»، ستلتقي فرقة «رع» التي اقتربت كثيرًا ببقية القوات في أرض المعركة وفرقة «ست» يبدو أنها لن يكون لها أي دور؛ فهى لا تزال بعيدة جدًا.

وسط صرخات الضباط والقادة بالأوامر والاستعداد السريع المتخبط للقوات إذا بالهول يحدث، هول وراءه صوت صرخات ورائحة دماء!

«رمسيس».. أسد المعركة

يدوي صليل السيوف والالتحامات بل وصرخات الموت في آذان «رمسيس» والمعسكر بأكمله، «موتالي» قد بدأ الهجوم! عجلاته الحربية التحمت مع فرقة «رع» وقصمتها نصفين، هاجموهم على غرة حين عبورهم للنهر، واخترقت عجلاتهم الحربية الصفوف تدهس الجنود وحاملو الرماح لا يدخرون جهدًا في تسديد الطعنات، مذبحة تعالت فيها صرخات جنود مصر، والنصال تخترق أجسادهم، والغبار يغطي المشهد بالكامل، وفي نهايته يخرج البقية الباقية من فرقة «رع» مولين الأدبار في اتجاه المعسكر المصري الذي بدأت قوات الحيثيين في حصاره بالفعل تمهيدًا للضربة القاضية.

«والآن فإن «خسيس خاتي» والبلاد الأجنبية الكثيرة معه اختبئوا مستعدين شمال شرق مدينة «قادش»، بينما كان جلالته وحيدًا مع حاشيته وخلفه فرقة «آمون»، وفرقة «رع» تعبر النهر جنوب شبتونا على مسافة (إتر) واحد منموقع جلالته، بينما فرقة «بتاح» جنوب مدينة «أروناما»(88)، وجيش «سوتخ» على الطريق، وقد بدأ جلالته المعركة مع صفوة مقاتلي جيشه على ضفاف أرض «أمورو»، بينما وقف «خسيس خاتي» وسط جيشه ولم يأتِ ليقاتل خوفًا من جلالته ومعهرجال وخيول بأعداد هائلة مثل حبات الرمل، ثلاثة رجالعلى كل عجلة حربية مجهزين بالأسلحة على استعداد خلف «قادش»، ثم انطلقوا من جنوب «قادش» وهاجموا منتصف فرقة «رع» الذين لم يدروا بالهجوم ولم يكونوا مستعدين له، ثم انهارت مشاة وعجلاتجلالته أمامهم»(89).

عند هذه النقطة لم يَضِع «رمسيس» الوقت، وفي ثبات أعصاب يحسد عليه اعتلى عجلته الحربية، وأحاط خصره بزمامها بينما «مننا» يقف بجواره على العجلة الحربية يمسك بالدرع ويجهز له السهام، يزأر «رمسيس» في أرض المعركة مناديًا فرقة «آمون» وما تبقى من قواته ليعلن بدأ المعمعة: «إن كان الموت قادمًا فليمت كالرجال».

«عندما رأى «مننا» حامل درعي العدد الهائل للعجلات الحربية حولي، ارتعد وضعف قلبه وغزا الخوف جسده قائلًا: يا إلهي الطيب! الحاكم الجبار ومنقذ مصر في الحروب.. إننا نقف وحيدين في منتصف المعركة، هجرتنا مشاتنا وعجلاتنا الحربية، ماذا تبقى لتنقذهم؟

«فلنكن واضحين، أنقذ نفسك وأنقذني يا «وسر ماعت رع».

وهنا قال جلالته لحامل درعه:

اثبت مكانك! وثبت قلبك يا حامل درعي

سأواجههم مثل الصقر، وسأعمل فيهم القتل والتذبيحوألقيهم أرضًا

لم تخاف من هؤلاء الضعفاء الذين لا يهمني كترتهم؟

واندفع جلالته إلى الأمام والتحم بقوات العدولست مرات»(90).

يدوي صفير عجلات الحيثيين الحربية الثقيلة وسط فرقة «آمون» التي يبدو مع ارتباكها ستلقى مصير فرقة «رع»، تدوي صرخات «رمسيس» القتالية في أرض المعركة، ويظهر بجوار عجلته الحربية أسده الأليف الذي أتى يؤازره وينشب أنيابه فيمن يلقاه من الأعداء.

يزلزل نداء الملك أرض المعركة، ويبدأ من تبقى من قواته في الالتفاف حوله إثر صرخاته التي بعثت الحماسة في العروق.

وعلى الرغم من هول الوغى والمحنة الهائلة لم ينس «رمسيس» أباه «آمون» أبدًا فكان ذهنه يناجيه مع كل ضربة يضربها وكل عدو يصرعه.

«ما هذا يا أبي «آمون»؟

هل من الحق أن يتجاهل الأب ابنه؟

ألم أتحرك وأسكن وفقًا لكلماتك؟

لم أعصِ أمرًا لك!

من يكون هؤلاء الآسيويون بالنسبة إليك يا «آمون»؟

البانسون الذين لا يعرفون الإله؟

إني أناجيك يا أبي «آمون».

أنا في وسط جمع غفير من أعداء لا أعرفهم

كل البلاد احتشدت ضدي

أنا وحيد وليس معي أحد»(91).

«رمسيس» لا يزال في المقدمة يصوّب سهامه نحو الحيثيين، فيحتك به سيف أحدهم ويصيبه الآخر فلا يبالي حتى يتحول إلى آلة حرب حقيقية، لا تكل ولا تمل، يصب نيرانه عليهم بلا توقُّف حتى ينجح في اختراق صفوف الحيثيين لست مرات متتالية، أحدثت ثغرة مرتبكة بينهم، ولكنها لم تكفِ، فقوات الحيثيين يبدو أن لا نهاية لها مع تقدمهم لتضييق الخناق على «رمسيس» حتى أحاطوه من كل جانب.. يبدو أنها لحظة النهاية!

«النعرن» قادمون!

وتحدث المعجزة!

تبدأ صفوف الحيثيين في التشتت من الناحية الغربية مع قدوم فرقة شباب «النعرن»، قدموا في الموعد تمامًا كما صدرت لهم الأوامر بل وفي اللحظة المناسبة أيضًا، تتقدم القوات في صفوف الجنود المتلاصقين كتفًا بكتف متعاكسي الدروع وحولهم العجلات الحربية التي اشتبكت على الفور، وتحوّل الوضع إلى كماشة أطبقها عليهم من الجهة الأخرى ما تبقى من قوات «رمسيس» بمساندة «الوافدين الجدد لأرض المعركة.

بدأت قوات الحيثيين في التراجع جنوبًا لإعادة تشكيل صفوفهم لشن هجوم مضاد، ولكن «رمسيس» لم يمنحهم الفرصة، وضغط عليهم ليوجههم ناحية الشرق ليعبروا النهر من حيث أتوا، ليرسل الحيثيون النجدة في أسوأ موقف ممكن؛ حيث دفعوا بعربات إضافية زادت من ارتباك الموقف مع تراجع القوات ليصدها «رمسيس» هي الأخرى حتى لا يجد الحيثيون مفرًا سوى عبور النهر والعودة من حيث أتوا. القوات المصرية لا تتوقف عن مطاردتهم حتى يتعثر الجميع في الطين أثناء عبور النهر، وبينما «موتالي» على الجهة الأخرى ينتظر بشائر النصر، إذا به يرى مشهدًا لن ينساه طوال حياته، قواته تحطمت والجنود غرقوا في الطين، يتكدس بعضهم فوق بعض، والبقية تسبح في مياه النهر في اتجاهه، تليها مأساة شخصية متمثلة في جثة أخيه «با ـ تجار» طافية فوق صفحة المياه، ويكتمل المشهد بمنظر أشبه بالهزل يظهر فيه ابن عمه «تالميساروما» أمير حلب وقد أمسكه رجاله من قدميه كالقربة ليفرغوا ما بجوفه من ماء بعدما انتشلوه من المياه والطين(92).

تبدأالقوات المصرية في السيطرة والانتشار غرب النهر، بينما فرقة «بتاح» وعلى رأسها الوزير والأمير «با رع حر ونم إف» تصل أخيرًا لتشارك على الفور في حصار الأسرى، وفرض السيطرة التامة على المشهد، لاحقًا ستصل فرقة «ست» هي الأخرى للمعسكر لتكتب آخر فصول المعركة مع تراجع قوات الحيثيين بالكامل للاحتماء بالحصن الذي رفعت جسوره المتحركة لتمنع الوصول إليهم بينما يبدأ الجنود المصريون في وضع لمساتهم الأخيرة بتجميع الصفوف وإحصاء الأسرى ليبدأ المشهد الرهيب لعد قتلى الأعداء فيمسك جنود «الشردانا» باليد اليسرى للقتلى فيقطعها من المعصم لتتكون كومة كبيرة من الأيدى، لا بد أن هذا المشهد ظل في كوابيس كل من شاهده من الأعداء حتى على الجانب الآخر في القلعة.

«لعب القدر لعبته مع «رمسيس» واستجاب «آمون» لصلواته، يبدو أنه النصر!

وعلى الرغم من أني أبتهل في الأرض البعيدة

فإن صوتي يتردد في «طيبة»

أتى «آمون» عندما ناديته

مد لي ذراعه فابتهجت

ناداني وكأنه في ظهري: تقدم أنا معك

أنا أبوك، وذراعي معك»(93).

بعد المعركة.. ماذا سيفعل «رمسيس»؟

يجلس «رمسيس» في خيمته الملكية مختليًا بنفسه بعد انتهاء المعركة ليقيم الوضع الحالي.

حقًا كان يومًا طويلًا مليئًا بالأحداث، كارثة خرج منها بمعجزة في أرض المعركة حالفه النصر بلا شك ولكن الحرب لم تنتهِ بعد، لا بد من استكمالها في اليوم التالي.

هل يتخذ قرار الهجوم؟

وحتى إن فعل فهل سيربح المعركة بالغد؟

إنفيالق «آمون» و«رع» أصابهم خسائر جسيمة، والعجلات الحربية أقوى أسلحة الجيش خسائرها فادحة هي الأخرى، كذلك فخسائر «موتالي» جسيمة هو الآخر فقد مات له اثنان من إخوته وكثير من أتباعه الشخصيين وقادة جيشه، وعلى الرغم من ذلك هل لا يزالون يتفوقون في العدد؟

منذ وقت قليل وصلت رسالة من معسكر الحيثيين يطلب منه «موتالي» السلام، سلام ستبقى فيه «قادش»، وربما «أمورو» هي الأخرى في قبضة الحيثيين ليعود «رمسيس» إلى نقطة الصفر، إن قبل بالسلام فما فائدة الحرب إذن؟

لقد رفض شخصيًا ما فعله أبوه «سيتي» عندما أقر السلام مع «موتالي» سابقًا فكيف يفعل هو ذلك الآن؟

حتى عندما اجتمع بكل قيادات جيشه لمناقشة الرسالة تكلموا وكأنهم جوقة في صوت واحد: «السلام شيء عظيم»، معلنين موافقة فورية على العرض، الجيش إذن لا يرغب في المزيد من القتال!

والأسوأ أن هناك شرخًا كبيرًا في فرق استطلاعه وجهاز مخابراته كاد يكلفه إهمالهم حياته.

سينفجر رأسه من التفكير ولا بد من اتخاذ قرار!

وفي النهاية تغلب شخصية «رمسيس» العنيدة على قراره، سيعود الجيش إلى أرض الوطن ولكنه سيرفض توقيع أي معاهدات أو الالتزام بأي شروط في الوقت الحالي ليضمن لمصر حق العودة إلى أرض المعركة في أي وقت، وسيأخذ معه إلى مصر ما غنمه من أسلاب وأسرى ليساقوا في موكب عظيم.

«العودة في سلام إلىمصر، في مدينة «بيت «رمسيس» عظيم الانتصارات» ارتاح في قصره معطى الحياة والسلطان مثل «رع» في أفقه، آلهة البلاد تحييه قائلة: مرحبًا بعودتك ابننا الحبيب، « وسر ماعت رع ستب إن رع» ابن رع «رمسيس محبوب آمون» المعطي الحياة، أعطوه ملايين اليوبيلات للأبد على عرش «رع»، كل الأراضيالمرتفعة والمنخفضة تركع تحت قدميه لأبد الآبدين»(94).

لماذا «قادش»؟

تلك الأهمية الفائقة التي أظهرتها المملكتان المصرية والحيثية لمنطقتي «قادش» و«أمورو» تجعلنا نتساءل عن سبب ذلك الاهتمام المبالغ فيه.

بنهاية عصر الملك «توت عنخ آمون» بدأ نجم الحيثيين في الظهور بوصفهم قوى فتية على الساحة العالمية، وبجلوس ملك قوي مثل «شبيلوليوما» على عرش تلك المملكة -وهو من أقوى ملوك الحيثيين في تاريخهم- توسعت طموحات تلك المملكة لتشمل «سوريا» و«أمورو» مع انحدار الميتانيين ليصبح «شبيلوليوما» زعيم قوى ضاربة جديدة في العالم القديم.

مع تسارع الأحداث في تلك الفترة، بدأت الكفة تتزن مع تولي «حور إم حب» عرش البلاد ليجد الحيثيون في مواجهتهم عنقاء مصرية أسطورية قامت من رماد كبوتها، ومن اللافت للنظر أن تطور قوة إمبراطورية الحيثيين قد تزامن وبشكل مدهش مع تعافي مصر من كبوتها في فترة حكم «إخناتون»، لعبت الأقدار لعبتها مع مصر بعد هجومه ضد مصر على إثر مقتل ابنه «زانانزا» (كما ذكرت المصادر الحيثية)، فأتى الأسرى المصريون بالطاعون لقصره، وأدى لوفاته هو وابنه وخليفته على العرش «أرنواندا الثاني» لينتهي الأمر بجلوس ابنه الآخر «مورسيل الثاني» على عرش تلك المملكة وقد كانت سياسة «مورسيل» مع مصر متزنة إلى حد كبير لا تشكل خطرًا كبيرًا مع انشغاله بمشاكل بلاده شمالًا وغربًا ليتسلم عرشه بعد سنين طوال ابنه «موتالي»، وقد تزامن ذلك مع تطور الوضع في مصر منذ عهد «حور محب»، وحتى تولى «رمسيس الثاني» العرش ليكون الوضع النهائي أن مصر والحيثيين هم القوى العظمى العالمية في ذلك الوقت؛ لذلك كان الصدام بينهما حتميًا؛ لأن التوسع الإمبريالي كان يتطلب السيطرة على طرق التجارة والمعابر والمنافذ البحرية، وعلى رأس تلك المراكز الحيوية كانت «قادش» و«أمورو» التي سيطر عليها من قبل «تحتمس الثالث» في فتوحاته الكثيرة التي جعلت مصر القوة العظمى المنفردة في زمنه.

وقد كان واضحًا في مصر أن «تحتمس» هو المثل الأعلى لملوكها بداية من عصر «حور إم حب» الذي استطاع ومن بعده «رمسيس الأول» إرسال رسالة واضحة للحيثيين بأن مصر لم تعد اللقمة السائغة التي كانت في الماضي، وعلى أرض الواقع بدأ الصراع المصري الحيثي، وبشكل مباشر في عصر«موتالي» و«سيتي الأول» الذي نجح بالفعل في الاستيلاء على «قادش» و«أمورو»، ولكنه أدرك سريعًا أن الحرب وحدها لن تكفي لحسم ذلك الصراع؛ لأن الخريطة العالمية نفسها قد تغيرت فاتخذ القرار الأقرب للصواب؛ وهو عقد السلام مع الحيثيين لتجنيب بلاده حروبًا مستقبلية ربما لن يكون لها داعي.

وقد اختلف الجانب الحيثي عن الجانب المصري في اتباع سياسة النفس الطويل واتخاذ الأساليب السياسية الملتوية، ففي بعض الأوقات يمكنك أن تنهك عدوك بتأليب عدو آخر له ضده أو حتى باستخدام المال، وقد كان بدو الساشو منعدمي الولاء أحد العناصر المهمة في إثارة القلاقل ضد مصر، بل إنهم في النهاية كانوا الأداة التي مكنت «موتالي» من خداع «رمسيس» في «قادش».

اختلفت شخصية «رمسيس الثاني» عن أبيه وجده، حيث كانت نشأته منذ الصبا في القصر الملكي، ومع تلقيه لأفضل تعليم وتدريب ممكن ليشغل أهم وظيفة في مصر، وهي ملكها لم يخض «رمسيس» دهاليز السياسة بشكل كافي، وبدأت أحلامه العسكرية في الظهور مع مرافقته لوالده في ساحة القتال، ثم خوضه المعارك منفردًا حتى في حياة والده والتي كانت كلها متوجة بالانتصارات، وربما رسخ ذلك في نفسه أن الحرب يمكن أن تفرض الأمر الواقع؟!

ماذا حدث حقًا في «قادش»؟

يتفق الكثير من علماء المصريات والمؤرخين بشكل عام أن النصر كان حليفًا لـ«رمسيس» في المعركة بينما يختلفون في مسميات ووصف هذا الانتصار وحقيقة حجمه مع نتائجه النهائية التي ستتضح بعد سنوات، بينما يرى البعض الآخر من منظور تقارب القوتين أن تلك المعركة خرجت بالتعادل مع خسائر جسيمة للطرفين.

أما الأغرب على الإطلاق فهو اتجاه شعبي معاصر بداخل مصر يقر ودون تردد في عداوة غير مبررة- هزيمة «رمسيس» في «قادش» بل ويدافعون عن ذلك، حيث يستدلون على هذا الافتراض بوقوع معاهدة سلام بين الطرفين كونها نتيجة مباشرة للحرب، ذلك الاتجاه يغفل ربما دون علم -ولهم العذر- أن معاهدة السلام المصرية الحيثية قد وقعت بعد (١٥-١٦) عامًا من معركة «قادش»، بل إنها وُقعت بين «رمسيس» الذي كان سنه وقتها يقترب من ٤٦ عامًا وبين إمبراطور حيثي آخر وهو «خاتوسيل الثالث» الأخ الأصغر لـ«موتالي»!

فالصراع المصري الحيثي لم يقتصر فقط على معركة «قادش»، وإنما تلتها العديد من الاشتباكات لمعارك والأحداث المثيرة في سجال امتد لزمن طويل بين البلدين؛ لذلك فإن تقييم الموقف المصري الحيثي لا بد أن يكون من خلال الإطار الأكبر لهذا الصراع الذي سنتحدث عن بقية تفاصيله لاحقًا.

بخلاف أن المنطق العام يقول: إن معاهدات السلام لا تكون إلا بين طرفين من الأقوياء لتفادي صدامات مستقبلية بينهما، وإنشاء نوع من أنواع التحالف، وقد سبق وأن فعلت مصر المثل في عصر «سيتي» نفسه ومن قبله تحالف مصر مع مملكة «ميتاني» القوية في عصر سابق، فهل كانت تلك التحالفات أو المعاهدات إقرارًا بنوع ما من الهزيمة لمصر؟

يتوقع البعض أن كلا البلدين قد وثّقا المعركة ونتائجها، فنستطيع بسهولة إصدار حكم نهائي على ما حدث في «قادش»، ولكن الواقع أن التدوين المصري كان هو المصدر الرئيسي للقصة بأكملها بينما خلت سجلات الحيثيين من أي تأريخ لمعركة «قادش» بخلاف إشارات مبهمة للغاية لا نستطيع استنتاج أي تفاصيل دقيقة منها.

«قادش» كما رواها الحيثيون

كانت المصادر الحيثية عن المعركة هي رسالة على لسان «خاتوسيل الثالث» شقيق «موتالي»:

«لان أخي «موتالي» قاد حملة ضد ملك «مصر» وملك «أمورو»، وعندما هزم ملوك «مصر» و«أمورو»، توجه إلى «أوبي»، وعندما هزم «موتالي» أخي «أوبي»، هو... (نص مفقود) عاد إلى «خاتوشا»، وتركني في «أوبى»(95).

ومن ثم نص آخر على لسان «تودخاليا الخامس» ابن «خاتوسيل»:

عندما أصبح «موتالي» أخو «أبي» ملكًا، كسر أهل «أمورو» العهد معه، وبعثوا له برسالة:

«كنا أناسًا أحرارًا وأصبحنا تابعين، والآن نحن لسناتابعين لك! ودخلوا في كنف ملك مصر، وهنا دخل «موتالي» ابن أخي أبي في حرب مع ملك «مصر» على أهل «أمورو»، (للسيطرة على أمورو)، هزم «موتالي» ملكمصر، ودمر بأسلحته أرض «أمورو» وأخضعها»(96).

هذه المصادر لم تذكر أي تفاصيل على الإطلاق عن «قادش»، ولم تقدم لنا أي معلومات عنها، ولكنها أكدت أن الحيثيين أعلنوا انتصارهم في الحرب، ولكن الفارق أن الصراع من وجهة نظر الحيثيين كان على «أمورو»، وأظهرت الرسالة أهمية تلك المستعمرة لدى الحيثيين وضيق «موتالي» من استيلاء مصر عليها، وكما نرى فإن «موتالي» قد صب جام غضبه على «بنتشيما» حاكم «أمورو»، وسنعلم بعد ذلك أنه أخذه أسيرًا إلى «خاتوشا» عاصمة الحيثيين، وعيّن مكانه شخصًا اسمه «شابيلي» لا نعلم عنه شيئًا سوى اسمه، ستمر السنوات ويبدو أن «بنتشيما» هذا أكثر دهاءً مما كنا نتوقع، فقد استمال «خاتوسيل» شقيق موتاليـ الذي اقتنع أنه كان مجبرًا لاتخاذ الجانب المصري رغمًا عن إرادته، فطلب «خاتوسيل» إعادته إلى مكانه مرة أخرى ليقضي بعد الوقت في شمال إمبراطورية الحيثيين ثم يعود بعدها على عرش «أمورو» في عصر لاحق!

تخبرنا النصوص أيضًا أن «موتالي» قد استولى على «أوبي» (مستعمرة مصرية بالقرب من دمشق)، ووضعها تحت تصرف «خاتوسيل» نفسه.

«قادش» كما رواها المصريون

أما المصادر المصرية فقد ذكرت معركة «قادش» بالتفصيل في ثلاثة أشكال مختلفة:

الأول:

هو التقرير العسكري (المختصر) بعض الشيء عن المعركة التي دُوِّنت عقب المعركة واحتوى على تفاصيل مهمة بخصوص خط سير الجيش المصري والأحداث المتعلقة بالمعركة، وكان يتسم بالواقعية التي تظهر أنه كُتب من خلال تقارير لشهود المعركة أنفسهم(97).

أما المصدر الثاني:

فهو الملحمة الشعرية المطولة التي ذكر في نهايتها أن الكاتب المصري «بن تا ور» هو مَن دوَّنها، ولا يعني ذلك أنه مؤلفها وإنما هو من قام بتدوينها فحسب، وتذهب بعض الآراء أن «رمسيس» هو من قام بإملاء تلك الملحمة بنفسه، حيث إنها احتوت الكثير من عبارات المديح لشجاعة وقوة «رمسيس»، وأظهرته وكأنه المقاتل الوحيد في الجيش المصري وسط غمار معركة تركه فيها الجيش يحارب وحده(98).

هذان المصدران مدعومان بمشاهد المعركة التي صُوِّرت على جدارن العديد من المعابد المصرية «الكرنك»، «الأقصر»، «الرامسيوم»، «أبو سمبل»، «أبيدوس»، التي صاحبت نصوص المعركة فشكَّلت لنا المصدر الثالث لمعلوماتنا عن «قادش»، وقد كانت من الدقة أنها زوَّدتنا بتفاصيل أكثر عما ذكر في النصوص؛ حيث ظهر أشخاص بعينهم بالاسم في أرض المعركة من الجانبين الحيثي والمصري، وكذلك ظهرت أماكن مثل «قادش» بكامل تفاصيلها، بل وترتيب القوات المصرية والحيثية، ورتبهم وحتى أجناس المرتزقة الحيثيين وأسمائهم(99).

وتعد مناظر المعابد وكأنها بالفعل مشاهد حية من المعركة تصف ما حدث وبدقة شديدة بل إنها أوضحت أن الجيش المصري لم يحاصر قلعة «قادش» التي احتمت بها قوات «موتالي»، وظلت رايات الحيثيين مرفوعة عليها، مما أعطى وجهة نظر معقولة جدًا وواقعية للمعركة في أن الجيش المصري لم يكن مجهزًا بعد المعركة لفرض حصار طويل الأمد على «قادش».

ومجموع هذه المصادر الثلاثة مفا أعطتنا صورة معقولة لأحداث المعركة كان أهمها المناظر، ثم التقرير الرسمي، ثم الملحمة التي دونها الكاتب «بن تا ور».

وقد ظلت معركة «قادش» حيَّة في وجدان الشعب المصري لأجيال كثيرة بعد نسخها على أوراق البردي أكثر من مرة لتُصبح واحدة من أشهر أحداث التاريخ المصري على الإطلاق، وفي عصرنا الحديث حصدت معركة «قادش» رقمين قياسيين في «موسوعة جينيس للأرقام القياسية كأول معركة موثقة بالكامل، وأول دعايا سياسية في التاريخ.

ووصلت أصداء «قادش» إلى مصر الحديثة، حيث ألهمت الملحمة الشعرية التي دونها «بن تا ور» أبيات أمير الشعراء «أحمد شوقي» الآتية:

جَلَّ "رمسيس" فِطرَةً وَتَعالى شيعَةُ أَن يَقودَهُ السُفَهاءُ

وَسَما لِلعُلا فَنالَ مَكانًا لَم يَنَلهُ الأَمثالُ وَالنُظَراءُ

وَجُيوشٌ يَنهَضنَ بِالأَرض مَلكًا وَلِواءً مِن تَحتِهِ الأَحياءُ

وَوُجودٌ يُساسُ وَالقَولُ فيهِ ما يَقولُ القُضاةُ وَالحُكَماءُ

وَبِناءٌ إِلى بِناءٍ يَوَدُّ الخُلدُ لَو نالَ عُمرَهُ وَالبَقاءُ

وَعُلومٌ تُحيي البِلادَ وَبِنتاهورُ فَخرُ البِلادِ وَالشُعَراءُ (أمير الشعراء أحمد شوقي)(100).

بلا شك تخبرنا المصادر أن «رمسيس» قد أعلن انتصاره في المعركة هو الآخر، ولكنها زودتنا بتفاصيل دقيقة عن المعركة لحظة بلحظة كما سردنا سابقًا، بالإضافة إلى ذلك فقد قدمت لنا قائمة بأبرز قتلى الحيثيين في المعركة الذين حملوا الأسماء والألقاب الآتية:

«سبتر»: شقيق «موتالي».

«خمترم»: شقيق «موتالي»

«ترجنس»: قائد عجلة حربية.

«جربتس»: حامل الدرع.

«ترجتسس»: قائد فيلق قوات «كبسو».

«عجم»: قائد قوات.

«كميث»: قائد قوات مقاتلي النهر (المشاة).

«خربسر»: كاتب ملكي.

«تيدر»: رئيس الحرس الشخصي لـ«موتالي».

«بيس»: قائد عجلة حربية.

«سمرتس»: قائد عجلة حربية.

«ربسنن»: قائد قوات «إنس»

«تدر»: زعيم قوات تحر.

«ثوتس»: قائد قوات «إنس».

«ث.. م»: حامل الدرع.

«بنق»: قائد عجلة حربية.

وآخرون(101).

من هذه القائمة نرى أن خسارة «موتالي» كانت فادحة بالفعل، شملت اثنين من إخوته والمقربين منه وكبار قادته، وكذلك أمير حلب الذي نجا من الموت بأعجوبة.

أخبرتنا المصادر أيضًا خيبة أمل «رمسيس» في قواته وعرفانه بالجميل لـ«مننا» قائد عجلته الحربية والساقي الملكي (لم يذكر اسمه)، وكذلك خيوله الاثنان اللذان أنقذاه من الموت.

«لا يوجد منكم من يستحق الثقة

ألم أكن عليكم سيدًا وأنتم في الدرك الأسفل

وجعلتكم زعماء بإراداتي كل يوم؟

وضعت الابن مكان أبيه في منصبه

وطردت الشر من البلاد

وأعطيتكم الأشياء التي أخذت منكم؟

ووقتما قدم لي أي منكم مظلمة كنت أجيبه يوميًا: سأنفذها

لم يفعل قائد لجنوده مثلما فعل جلالتي لكم

ماذا سيقول الناس عندما يعلمون أنكم تركتموني وحيدًا بلا رفيق؟

ولا ضابط ولا قائد عجلة حربية أو جندي جاء ليمد لي يده بينما أقاتل؟

لقد سحقت ملايين البلاد بمفردي على متن «النصر في طيبة» و«موت مبتهجة» خيولي العظيمة.

هم من وجدتهم يساندوني

سوف يطعمون بحضوري عندما أصل إلى قصري، فهم من وجدتهم في وسط المعركة ومعهم قائد عجلتي الحربية «مننا» حامل الدرع، والساقي الملكي الذي كان بجانبي»(102).

وهناك أثر فريد قد أهداه «محمد علي باشا» إلى «تشارلز العاشر» ملك فرنسا وهو عبارة عن خاتم ذهبي مصور عليه اثنان من الخيول (موجود حاليًا بمتحف اللوفر)(103)، ربما كانا هما بالفعل خيول «رمسيس» في «قادش».. يبدو أن عرفان «رمسيس» بالجميل لخيوله لم يكن مجرد مجاز شعري وأنه كرمها فعلًا كما ذكر بالحرف.

واللافت للنظر في التدوين المصري هو ذكر وزير مشارك لـ«رمسيس» في المعركة دون تدوين اسمه، وكذلك لم يدون أسماء قادة المعركة، بخلاف أبناء «رمسيس»، وعلى رأسهم «با رع حر ونم إف» الذي أنقذ أفراد العائلة الملكية المرافقين للجيش من الموت بعدما أبعدهم عن ساحة القتال، وربما كان دوره أكبر من ذلك؛ حيث أنعم عليه بعد «قادش» لقب «أشجع شجعان الجيش»، ومعه ولي العهد الأمير «آمون حر ونم إف» الذي غير اسمه إلى «آمون حر خبش إف» وأخوه «خع إم واست» وآخرون.

ويمكننا أن نستنتج أن إغفال تدوين بعض الشخصيات بعينها وعلى رأسهم اسم الوزير المشارك في المعركة يعكس مدى غضب «رمسيس» الشديد من التقصير الذي حدث في المعركة من قادته، وبالخصوص جهاز مخابراته الذي لم يكتشف فخ «موتالي» القاتل، وقد حدث بالفعل أن قام «رمسيس» بإعادة هيكلة بعض قيادات الجيش لدى عودته إلى أرض الوطن في السنوات التي تلت «قادش».

العودة إلى «مصر»

عقب معركة «قادش» قام «رمسيس» بالعودة إلى مصر بعدما رفض إقرار معاهدة سلام تبدو معقولة من الجانب الحيثي، وربما كان «رمسيس» متفائلًا بخصوص المستقبل، وظن أنه يستطيع العودة في أي وقت لاستكمال السجال، وهو ما حدث بالفعل، وهو ما يعني أن اتجاه «موتالي» السياسي كعادته لم يفلح هذه المرة لإبعاد «رمسيس» عن الساحة ليظل الأخير هو منافسه الأول على الساحة الدولية.

وقد استغل «موتالي» تراجع الجيش المصري، ليلتقط أنفاسه، ويعاود فرض سيطرته على «قادش» و«أمورو» مرة أخرى بعدما خلع «بنتشيما» من على عرش «أمورو» كما ذكرنا من قبل.

بل إن «موتالي» تمكن من وضع يده على مستعمرة «أوبي» المصرية مما يعني أن نفوذه قد وصل إلى «دمشق» حاليًا، وهناك عين أخاه «خاتوسيل» عليها، ولكن «موتالي» توقف عند هذا الحد مما يجعلنا نطرح التساؤلات عن أسباب توقفه ومقدرة جيشه على القتال طويل الأمد وتقييمه الخصم المصري.

وعلى الرغم من ذلك فلم يكن الوضع كله مكاسب؛ فقد واجه الحيثيون ضربة كارثية غير متوقعة من ملك آشور «حداد نيريرى»، حيث قام «وساشاتا» ملك «هانيجالبات» (أحد آخر معاقل مملكة ميتاني حليفة مصر السابقة) بالتمرد على «حداد نيريري» مع إرساله الاستغاثة للحيثيين لطلب العون ولكنه لم يحدث، فقام «حداد نيريري» بتدميرها وأسر العائلة الملكية، وبعث برسالة إلى الحيثيين يُعلن فيها حقه في الغزو باعتباره يحمل لقب الملك الأعظم «شاررو رابيو»، ويعرض عليهم التحالف والأخوة أو العداوة والحرب.

فيرد الحيثيون (على عكس الدبلوماسية المعهودة) بالرفض الممزوج بالغضب العارم، وكانت المحصلة النهائية هي تهديد إمبراطورية الحيثيين بالكامل من الشرق بينما أعظم مكاسبهم كانت مستعمرة «أوبي» التي لم تكن بنفس أهمية خسارتهم لتحالف «هانيجالبات»، لتدخل «أشور» هي الأخرى على الخط غريمًا قويًا شديد الخطورة يهدد الحيثيين.

ومن كل هذه المعلومات يمكننا استخلاص بعض النقاط وطرح تساؤلات:

يمكننا أن نفسر تراجع قوات «موتالي» في «قادش» بأن قوام جيشه كان من أعراق وأجناس مختلفة من التابعين والمرتزقة الذين تغلب عليهم ثقافة السلب والنهب فبعد أن اقتحموا المعسكر المصري، وشتتوا فرقة «رع» حدث ارتباك في صفوفهم مع انشغالهم بالسلب والنهب وجمع الغنائم مما مكن الجيش المصري من قيادة هجوم مضاد نجح في

النهاية.

«موتالي» كان خياره الأول هو السياسة واستخدام القوة فقط عند الضرورة والحرب ربما كانت خياره الأخير، وهناك بعض التساؤلات بشأنه، لماذا لم يخض أرض المعركة بنفسه في المقدمة واكتفى بالانتظار خلف «قادش» مع بقية قواته؟ بل لماذا لم يقود قواته بأكملها في هجوم ساحق على معسكر المصريين؟ واكتفى بدفع مجموعات من قواته في هجوم أول فشل أعقبه إرساله لدفعة ثانية من القوات فشلت هي الأخرى بينما انتظر هو على رأس بقية القوات والمشاة على الجانب الآخر من أرض المعركة؟

هل كان لموت بعض إخوته وكبار قادته أثر في تدمير روحه المعنوية؟

والتساؤل الأهم: لماذا لم يكمل «موتالي» طريقه خلف جيش «رمسيس» بعد «قادش» ليصل إلى مصر؟ أو حتى يقترب من حدودها؟

أما عن «رمسيس» فما لا شك فيه أنه كان بنفسه على رأس الجيش المصري «رمسيس»، كان في غاية الشجاعة عندما انطلق من مصر على رأس فرقة «آمون» التي كانت في مقدمة الجيش المصري تتبعها بقية الفرق (رع، بتاح، ست) بل إنه من الواضح أن ثقته في النصر كانت لا متناهية عندما انفصل عن فرقة «آمون»، وسبقها في المسير إلى «قادش» ومعه فقط حرسه الشخصيون الذين كان أغلبهم من الشرداتا، وعدد قليل من حاشيته، وهو ما يمكن أن نصفه بالاندفاع أو حتى التهور، ولكنه يحسب له نجاح الخط الأخير الدفاعي المتمثل في قوات «نعرن» التي أنقذت الموقف في الوقت المناسب، وتسببت في قلب كفة المعركة لينتزع النصر من براثن هزيمة محققة.

ويمكننا أن نلخص الموقف في أن «رمسيس» انتصر فعليًا على أرض المعركة، ولكن هذا لم يكن ليكفي لنصنفه انتصارًا كاملًا، حيث إنه دفع ثمن رفضه للسلام، وخسر في معترك السياسية في الوقت الراهن على الأقل، مع تراجع ما أحرزه في الحملة الأولى ليعود الصراع المصري الحيثي إلى نقطة البداية ولتسود سياسة الشد والجذب مرة أخرى.

على ما يبدو أن التعادل بين القوتين هو الكلمة الأكثر إنصافًا التي يمكن أن نصف بها الموقف ككل بعد «قادش»؛ لأن كل طرف منهما قد عاد إلى وطنه معلنًا انتصاره بينما الواقع أنها كانت مجرد فصل واحد من فصول كثيرة لصراع طويل بين الأمتين.

ما بعد «قادش».. «مؤاب» و«إدوم»

عمّ الفرح البلاد، وأقيمت الاحتفالات بنصر «قادش»، عاد «رمسيس» إلى أرض الوطن سالمًا بعدما قاد الجيش المصري بشجاعة، وكان احتفاظه بحياته هو محور الأحداث، فماذا كان ليحدث لو مات هو في «قادش»؟ ماذا كان سيحل بأرض مصر وقتها؟

بينما داخل القصر الملكي كان «رمسيس» مشغولًا بإعادة تقييم الموقف، انتصر في «قادش» ولكن «موتالي» لم يصمت، واستغل تراجع القوات المصرية، واحتل «أوبي» (بالقرب من دمشق) لتصبح الإمبراطورية المصرية في وضع خطير لم تشهد مثله منذ عصر والده «سيتي»، كان «رمسيس» لا يزال واثقًا من النصر ومن سهولة استعادة ما فقد ولكنه أيقن أن ذلك لم يحدث سوى باتخاذ بعض الخطوات الصارمة، من خلال بعض الإشارات التاريخية نعرف أن «رمسيس» قام بإعادة هيكلة قواته بل وحتى طرق تدريبهم، فنجد المجيدين يُرقون لتصدُّر المشهد، فها هو ابنه البكر وولي العهد «آمون حر خبش إف» مع القائد «أيورخي» يشرفان على ذلك التطوير، أما «آمون إم إينت» فأصبح المبعوث الملكي في كل البلاد الأجنبية وهو أرقى المناصب الدبلوماسية وقتها الذي يخبرنا أن «رمسيس» يُؤسس لنواة جهاز استخبارات قوى على يده، يُعوّض فشل القيادات وعلى رأسهم الوزير الذي رافقه في «قادش» والذي من المرجح أنه كان وزير الشمال، بينما بقي الوزير الآخر «باسر» الذي لا غنى عنه في أرض الوطن وقتها ليدير شئون البلاد، فمن مثل «باسر» ليقوم بتلك المهمة؟

أما على الساحة الخارجية فمارس الحيثيون هوايتهم المفضلة في التأليب، بدو الشاسو أصبحوا يغيرون على الحدود مرة أخرى بل إنهم أغاروا على «كنعان»، وحتى أمراء «كنعان» يتغاضون عن أوامر القصر الملكي، وكذلك مملكتي «إدوم» و«مؤاب» (تقعان بالأردن حاليًا) الفتيتان نما لديهما الحس الوطني وأصبحتا يرفضان الهيمنة المصرية، «وأوبي» نفسها وقعت في يد الحيثيين.. كان الوضع فوضى عارمة في الشرق يلزمها اتخاذ إجراءات حاسمة من «رمسيس».

مع أواخر العام السادس وبدايات السابع من الحكم بدأت إجراءات «رمسيس» الوقائية، فتوجّه بقواته لقمع بدو الساشو، وتأمين الحدود من شرهم بل وطردهم خارج حدود «كنعان»، وفرض السيطرة المحكمة على أرض «كنعان» في رسالة واضحة لاستحالة التمرد على مصر، ومع استقرار الأوضاع أصبح «رمسيس» على أهبة الاستعداد للخوض في «سوريا» لاستعادة أملاكه هناك، ولكنه كان عليه في البداية أن يرسل رسالة ترهيب أخرى إلى «مؤاب» و«إدوم».

في هذه الفترة تبلور دور الأمير «آمون حر خبش إف» الذي شارك والده في تلك الحملات، من صحراء النقب انفصلت فرقة على رأسها الأمير ولي العهد، توجهت شرقًا لجنوب البحر الميت متجهًا إلى «إدوم»، بينما توجه والده من قلب «كنعان» إلى غرب البحر الميت، ثم شماله حتى وصل إلى غربه ليهاجم «مؤاب»، تتكلل الخطة بالنجاح ليتم إخماد أصوات التمرد بالمملكتين، ومن ثم تلقى القوات مرة أخرى (ربما في البتراء؟) بعد تنفيذ الهجوم الناجح مع فرض السيطرة التامة على «كنعان» و«مؤاب» و«أدوم»، وطرد الشاسو حتى البحر الميت.

وهنا أصبحت الفرصة سانحة أمام الجيش المصري بكامل قواته للتوجه شمالًا واستعادة «أوبى»، واتخذ الجيش المصري طريقًا مروا فيه «بكوميدي» (كامد اللوز حاليًا) ومن ثم السيطرة على «أوبي» دون أي مقاومة تذكر.

«دابور».. مرة ومرتان!

مع استعادة الأمور تدريجيًا قرر «رمسيس» المضي للأمام فتقدم غرب «فينيقيا» مستعيدًا كل الموانئ والمدن على امتداد الساحل، واتخذ طريقه شمال «أمورو» هذه المرة ليتوجه إلى محطة جديدة وهي «دابور» الواقعة بـ«تونيب» جنوب «حلب» ليأسرها هي الأخرى، مكتسحًا في طريقه ثماني عشرة نقطة حصينة، سجلت على معبد الرامسيوم، وبهذا التقدم يكون «رمسيس» قد أعاد فرض سيطرته مرة أخرى في أراضي لم تسلكها مصر منذ ما يزيد عن مائة عام، ليعزل «أمورو» عن «قادش»، ويضيق الخناق على شمال «سوريا» على الرغم من إرسال «موتالي» المدد لـ«حلب» و«قرقميش» اللتين أصبحتا في خط المواجهة مع مصر إلا أن «رمسيس» لم يكتفِ بحصار «دابور» وأسرها فحسب بل شيّد لنفسه تمثالًا عملاقًا هناك.

وقد صور حصار «دابور» على جدران معبد الرامسيوم بلمسة إبداعية ثرية التفاصيل، فيبدأ المشهد من اليسار بـ«رمسيس» على مثن عجلته الحربية يكتسح قوات الأعداء الذين تساقطوا تحت سنابك خيوله وسهامه تخترق أجسادهم فيسقطون صرعى لنيرانه، بينما عجلة حربية تحاول الفرار أمامه في فزع وهي تنظر للوراء، بينما لم يفلح الدرع الذي يحمله أحد راكبي المركبة الفارة من تلقي سهم في مؤخرته من «رمسيس»، بينما صورت قلعة «دابور» في أقصى اليمين يخترق علمها السهام المصرية، بينما جنودها في يأس يحاولون صد الهجوم المصري الذي توزعت قواته أسفل القلعة محمية بالدروع، ومعها بقية القوات التي نجحت في الصعود لمستوى أعلى وفردوا السلالم تمهيدًا لاقتحامها.

وفي المشهد كذلك نجد أبناء «رمسيس» في الخطوط الأولى للمواجهة، فهو الذي واجه الموت مع أولاده في «قادش» لم يهب العودة مرة أخرى إلى ساحة القتال ومعه ثمانية من أولاده دفعة واحدة هذه المرة كان على رأسهم مع والدهم في المواجهة ولي العهد «آمون حر خبش إف» والأمير الاستثنائي «خع إم واست» يصرعان زعماء الأعداء يقترب منهم زعيم آخر يتوسل للعفو، وأربعة من إخوتهم أسفل القلعة تحت دروعهم يباشرون الهجوم عليها، بينما اثنان آخران يتسلمان سلمًا بالأعلى ليكونا في طليعة القوات المقتحمة.

ومع حلول العام العاشر من الحكم نجد أن وفاة «موتالي» لم تغير من الوضع كثيرًا، فمارس الحيثيون لعبتهم المعتادة من تأليب تلك المدن ضد مصر مرة أخرى، لترتد متمردة على مصر مرة أخرى مما استلزم العودة مرة أخرى بطول الطريق حتى «دابور» التي ظهر «رمسيس» ابن الخامسة والثلاثين أمامها هذه المرة مترجلًا من على عجلته الحربية واقفًا دون درع يصوب سهامه ناحيتها في استهانة واضحة وثقة عمياء من النصر، بينما الحيثيون يحاولون بيأس إلقاء الحجارة من أعلى لدرء الهجوم والجنود المصريين جنبًا إلى جنب مع

جنود الشرادانا (حرس «رمسيس» الشخصي)، كانت ثقة «رمسيس» مبررة؛ لأن النصر جاء في وقت قصير، ووقعت «دابور» مرة أخرى، وخلال ثلاث سنوات أو أكثر بقليل كان «رمسيس» قد استعاد ما فاته ويزيد دون رد فعل قوي من الحيثيين إزاء انتصاراته باستثناء التأليب المعتاد ضد مصر الذي أصبح متكررًا وبشكل مُمِل ليتواصل الصراع الحيثي المصري في شد وجذب دون نتائج حاسمة نهائية.

أوقات صعبة في «خاتوشا»

مع وفاة «موتالي» ملك الحيثيين خلفه على العرش ابنه «أورحى تشوب» الذي توج باسم «مورسيل الثالث» ومع وجود عمه «خاتوسيل الثالث» الذي كان دوره بالغ الأهمية في حياة أخيه، فكان هو الرجل الثاني في الإمبراطورية بعد الإمبراطور، وهو الذي صدّ خطر قبائل «كاسكا» (الكاسيين) بل إنه نجح في القضاء عليهم وقام بالسيطرة على «نيرك» موطن إله العواصف «تيشوب»، وقد كافأه أخوه «موتالي» بتنصيبه ملكًا على «حاكبيس» التي كانت عاصمة الحيثيين الشمالية.

مع تتويج «أورحى تيشوب» بدا وكأن لعبة العروش قد بدأت، استهلها الإمبراطور بإرسال عمه إلى الشمال إلى «حاكبيس» ليكون حاكمها في حركة أشبه بالنفي، وقد كان «رمسيس» يدرك أن هذا الصراع سيكون في مصلحته فنشط جهاز المخابرات المصري لجمع المعلومات تحسبًا للتدخل في الوقت المناسب، وساد بسبب ذلك الصراع الهدوء على الجبهة المصرية الحيثية لمدة تقارب سبع سنوات.

أخذ الوضع يزداد سوءًا بعدما ازدادت قوة «خاتوسيل» في الشمال في «حاكبيس» ومعها «نيرك» وهي البلاد التي كان نفوذه فيها يفوق الإمبراطور نفسه، وهنا قرر الإمبراطور «مورسيل» (أورحى تيشوب) نقل الصراع المستتر إلى العلن ليعلن عن نيّاته في إقصاء عمه من المشهد تمامًا، فتوجه بقواته للقضاء عليه أو حتى اعتقاله، توجه «أورحى تيشوب» بقواته شمالًا ليواجه عمه متفاديًا صراعًا دمويًا في العاصمة «خاتوشا»، وقد كان الزحف شمالًا مقامرة كبيرة من جانب «أورحى تيشوب»، فخاتوسيل حاكم المنطقة منذ زمن وحلفاؤه هناك كثيرون بل إنها أرضه التي تدين له بالولاء، وقد حاول «أورحى تيشوب» تجنيد حلفاء له هناك بلا جدوى حتى انتهى زحفه بالفشل بعدما حاصره «خاتوسيل» واضطره للاستسلام واقتاده إلى «خاتوشا» نفسه أسيرًا، ثم نفاه، وقد فسر «خاتوسيل» فعلته في نص مطول شقي بنص اعتذار «خاتوسيل»:

عندما أخي أصبح إلهًا (توفي)، .. احترامًا لأخي لم أفعل أي شيء (الشر) لذلك، بما أن أخي لم يكن له ابنشرعي ثبته (أورحى تيشوب) في حكم «خاتي»، ووضعت كل «خاتي» في يديه، ثم كان الملك العظيم على أراضي «خاتي».

«هم تخلوا عني، أصدقائي وأصحابي، حيث حصل «أورحى تيشوب» علىدعم كبير منهم».

«كان «أورحى تيشوب» يغار مني، وحاول أن يصنع الشر لي، ونقل المدن كافة التي أملكها مرةأخرى له، وعمل على إذلالي، واحترامًا لأخي أنا لم أفعل أي شر، وتحملت لسبع سنوات».

«لسبع سنوات سلّمت للأمر، ولكن بأمر إلهي وإلحاح بشري سعى «أورحى تيشوب» لتدميري، أخذ مني «هاكبيس» و«نيرك»، لن أخضع له بعد الآن، وأعلنت عليه الحرب، ولكني لم أفعل جريمة عندما قمت بذلك،تمردت عليه باستخدام العجلات الحربية أو في الصقر بطريقة متحضرة، تواصلت معه قائلًا: لقد بدأت العداء معي، أنت ملك عظيم بينما أنا ملك لقلعة واحدة، هذا كل ماتركته لي!

تعالي يا عشتار سيدة «ساموحا» ويا إله العواصف سيد «نيرك» وافصلوا بيننا!

منذ كتبت إلى «أورحى تيشوب» بهذه الطريقة، فإذا سألني أحد «لماذا بعد أن جعلته ملكًا تكتب له الآن عن الحرب؟ وسأردُّ قائلًا: إن لميبدأ هو بالحرب معي، هل كانت «عشتار» وإلهالعواصف أخضعاه لملكصغير؟

«ولأنه كان البادئ فكان حكم الآلهة عليه هو الخضوع لي».

«أنت ملك عظيم، بينما أنا ملك صغير، تعال نحتكم لأسيادي إله العواصف وعشتار، وإما ينصروك أو ينصروني».

(خاتوسيل الثالث ـ نص الاعتذار)(104).

وهكذا أصبح «خاتوسيل» أصغر الأبناء الأربعة للإمبراطور الراحل «مورسيل الثاني»، ذلك الطفل الذي وُلد مريضًا، ولم يتوقع أحد أن يعيش طويلًا، ولكنه نجا وبقي على قيد الحياة التي دان طوالها للإلهة «عشتار» بإنقاذه من الموت في الطفولة كما ذكر هو بنفسه؟

«عندما كنت طفلًا.. أتت سيدتي «عشتار» برسالة إلى أخي «موتالي» من «أبي مورسيل» في الحلم تقول: إن سنين «خاتوسيل» قصيرة، سيموت قريبًا، أعطه لي ليكن في خدمتي، ودعه يكون كاهنًا لي، إن فعلت ذلك فسوف يعيش»(105).

ومن ثم ذكر نداءه لها في صراعه مع ابن أخيه فأنصفته وجعلته ينتصر عليه في أرض «ساموحا» أرض الإلهة «عشتار»، ليتوج إمبراطورًا جديدًا للحيثيين بعد سنوات خدم فيها أخاه الراحل وبلاده بإخلاص.

على الرغممن الصورة البراقة التي رسمها «خاتوسيل» لصراعه مع «أورحى تيشوب» إلا أنه كان يدرك يقينًا أنه مغتصب للعرش، وأن فعلته ستكون وخيمة العواقب، بالفعل انقسمت البلاد ما بين مؤيديه ومؤيدي «أورحى تيشوب»، بل إن هذا الانقسام أدى إلى صراع مسلّح ثم نهب خزائن «خاتوشا» نفسها؛ لذلك لجأ إلى تهدئة الأوضاع وسرد القصة من المنظور الذي رأيناه الذي صور فيه مساندة الآلهة له، وعبر عن تفانيه في خدمة أخيه المتوفى

وبلاده، كما أنه تعهد بعدم تتبع أو اتهام أو اعتقال كل من ساند «أورحى تيشوب» ضده، إلا أن هذا لا يعني الشرعية الكاملة لـ«خاتوسيل»، فلا يزال «أورحى تيشوب» هو ابن «موتالي»، ومن ثم هو الوريث الشرعي للإمبراطورية، وحتى وإن كان إقصاؤه شرعيًا فلأولاد «أورحى تيشوب» الحق في تولي العرش؛ لأنهم من نسل «موتالي».

وما زاد الطين بلة أن هناك ابنًا آخر لـ«موتالي» كان لا يزال على قيد الحياة وهو الأمير «كورنتا» شقيق «أورحى تيشوب» والذي كان بمثابة شوكة في الظهر، بل إنه يمكن أن يقصيه هو شخصيًا، ويصبح الإمبراطور، ومخابرات الدول المجاورة وحتى البعيدة يمكن أن تدعمه لإدخال الإمبراطورية في نفق مظلم، فأي جانب يتخذ يا ترى؟ أخيه أم عمه؟

على هذه الجبهة على الأقل نجح «خاتوسيل» في السيطرة عليها؛ حيث إن «كورنتا» قد نشأ في كنف عمه وتربى بين أولاده، وقام وقت الأزمة بتعيينه ملكًا على إمارة «تورخونتاشا» إرضاءً له وليبعده عن المشهد المشتعل في العاصمة «خاتوشا» تحسبًا لأي انقلابات ضده، ليحسم ولاية العرش له ولأولاده ولو بشكل مؤقت.

«في المستقبل لا بد أن تدعموا أبنائي، وإذا حدث أي شيء لابن لي فلا بد أن يدعم الشعب حق أبنائي أنا وزوجتيالملكة، لا تتخذوا أحدًا من نسل آخر، لا تبحثوا عن ابن لـ«أورحى تيشوب».

«خاتوسيل الثالث ـ نص الاعتذار»(106).

مع كل هذه الضغوط نجد أن «خاتوسيل» اكتفى بنفي «أورحى تيشوب» ليستقر تحت الإقامة الجبرية في «نوهاشي» شمال سوريا، ووضعه على رأس بعض القلاع هناك ليعطيه دورًا حكوميًا رسميًا في الإمبراطورية في محاولة لاستمالته، وفي نفس الوقت طلب من «بنتشيما» حاكم «أمورو» الموالي للحيثيين هل تذكرونه؟ بوضع عينه عليه تحسبًا لأي نيّات انقلابية.

على الرغم من كل الاحتياطات التي أخذها «خاتوسيل» إلا أن انقلاب «خاتوشا» قد أصبح حديث الساعة في العالم القديم كله، وأصبحت الممالك كلها تترقب وبشغف وعلى رأسها مصر نتيجة ذلك الصراع الذي سيرسم مستقبل المنطقة بأكملها، خاصةً أن «أورحى تيشوب» لم يكن بالفريم السهل هو الآخر، فمن الواضح أنه لم يرض بما حدث ومصر على استعادة عرش أبيه، فنجده تواصل من منفاه مع ملك بابل وهي الأخبار التي وصلت إلى «خاتوسيل» ليقرر نفيه إلى مكان آخر، وهنا حدثت المفاجأة المدوية وهرب «أورحى تيشوب» من قبضة عمه ليذهب إلى آخر مكان متوقع على وجه الأرض.. مصر.

اختار «أورحى تيشوب» اللجوء السياسي إلى مصر، التي وافقت على استضافته لتكون ضربة مخابراتية موجعة للحيثيين ولـ«خاتوسيل» نفسه الذي تلقّى صدمة عمره بهذا الخبر، ترى هل يمكننا القول أخيرًا بأن «رمسيس» دخل دهاليز السياسة من أوسع أبوابها ودبر تلك الضربة؟ ها هو بين يديه ابن غريمه «موتالي» الذي سيصبح بلا شك كنزًا معلوماتيًا غاية في الأهمية، مع عدم وجود دليل مباشر على هذا الافتراض إلا أننا يمكننا أن نفترض بشيء من الأريحية أن هذا هو ما حدث بالفعل.

«عدوي هرب إلى دولة أخرى، ذهب إلى ملك مصر الذي عندما أرسلت له قائلًا: أعد لي عدوي! لم يعده لي، أصبحت أنا وملك مصر أعداء، كتبت إلى والدك «كاداشمان تورجو» أقول له: «ملك مصر ساعد عدوي» فاحتجز والدك رسول مصر إليه».

خاتوسيل الثالث في رسالة إلى «كاداشمان إنليل الثاني» ملك بابل(107).

كان «خاتوسيل» يسعى لاستجداء الشرعية من الممالك الكبرى، فقام بالتحالف مع «كاداشمان تورجو» ملك بابل، وأبقى علاقات طيبة مع «شالمنصر الأول» الذي اعتلى عرش «آشور» منذ وقت قريب.

أما في مصر فمع حلول العام الثامن عشر من حكم «رمسيس» استُضِيف «أورحى تيشوب» في العاصمة «بر رعمسو»، ورفض «رمسيس» طلب عمه بإعادته إليه، لتنقطع العلاقات الدبلوماسية بين «مصر» والحيثيين وحليفتهم «بابل» التي عرض ملكها إرسال قوات لمساعدة «خاتوسيل» في هجومه على «مصر» يقودها بنفسه إلا أن «خاتوسيل» رفض لسبب مجهول!

يبدو أن الموقف قد اشتعل تمامًا والحرب على الأبواب، فقام «رمسيس» بنشاط عسكري مُوسَّع ضمن به إجراءات احتياطية على الحدود، وفي الممالك الموالية لمصر تحسُّبًا للحرب القادمة، أصبحت الساحة الدولية الآن على أوجها بأطرافها «خاتوشا» و«آشور» و«بابل» و«مصر».

بحلول نهاية العام الثامن عشر وبداية التاسع عشر من حكم «رمسيس» يتوفى ملك بابل «كاداشمان تورجو» بعد أقل من عام من تحالفه مع الحيثيين، ليخلفه على العرش ابنه «كاداشمان إنليل» الذي سارع باستعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر، ليصاب «خاتوسيل» بالإحباط ويرسل له قائلًا:

«عندما أسست أنا وأبوك علاقات جيدة وأصبحنا إخوة، ألم نؤسس للأخوة والصداقة إلى الأبد؟ اتفقنا على أن يحمي من يعش منا أطفال الآخر بعد موته، لقد بكيت عليه كأخٍ وبعدما

أظهرت الحزن اللائق عليه مسحتدموعي وأرسلت رسولًا إلى نبلاء بابل قائلًا: إن لم تحافظوا على ذرية أخي في الملك فسأصبح عدوكم وسأغزوبابل، ولكن إن تمرد عليكم عدو أو سبب لكم المشاكل، اكتبوا لي وسآتي لمساعدتكم، ولكن أخي كان طفلًا وقتها (يقصدكاداشمان إنليل)، ولم يقرءوا تلك الألواح في حضورك، ألا يوجد فيهم كاتب لا يزال على قيد الحياة؟ ألم تُوثَق تلك الألواح؟ اجعلهم يقرءوها على مسامعك الآن»(108).

وعلى جبهة أخرى كانت «آشور» في وقت سابق قد قامت بالسيطرة على مملكة «هانيجالبات» (ميتاني سابقًا) والتي ارتضت وصاية الآشوريين عليها خوفًا منهم إلا أن ملكهم الجديد «شاتورا الثاني» قد تواصل مع «قرقميش» حليفة الحيثيين للتمرد ضد الآشوريين، وهنا وبكل قسوة قام «شالمنصر الأول» باجتياح «هانيجالبات»، وكتب شهادة وفاتها بأن ضمها إلى مملكة «آشور»، وكان مصير «قرقميش» المثل حيث تم تدميرها تمامًا هي الأخرى بل إنه وصل إلى «نهارينا» لتصبح حدوده مواجهة للحيثيين مباشرةً في تهديد واضح لـ«خاتوسيل» دمّر أحلامه المستقبلية تمامًا ليواجه أصعب أوقات حياته على الإطلاق.

لم يعد لديه سوى «بنتشيما» حاكم «أمورو» ليعقد معه معاهدة يبقى بمقتضاها «بنتشيما» وذريته على «أمورو» ووثقاها بزواج ابن كل منهما ابنة الآخر، ومعه «كورونتا» ابن «موتالي».

لتتردد في ذهنه رسالة سابقة من «حداد نيري» ملك آشور السابق:

«أنت لست سوى مجرد بديل احتياطيللملك العظيم»(109).

السلام أفضل للجميع (توقيع معاهدة السلام)

مما لا شك فيه أن هذا التغيير الدرامي للموقف بأكمله كان أشبه بالمعجزة! فإمبراطور الحيثيين الجديد في موقف لا يُحسد عليه، ما كانت تعاني مصر بعضه في الماضي في ساحات السياسة العالمية أصبح يعانيه الحيثيون وأسوأ، فالعلاقات بين «خاتوشا» و«آشور» سيئة بينما هي في تقارب مع «مصر»، وكذلك «بابل»، الحدود أصبحت في خطر داهم بعد متاخمة الآشوريين وتدميرهم لـ«قرقميش» أقوى نقاط الارتكاز، بينما «هانيجالبات» ضاعت للأبد، ماذا سيحدث إن تكون حلف مصري آشوري بابلي؟

وحتى الآن على الصعيد الدولي لم تعترف أي من القوى العظمى بـ«خاتوسيل» ملكًا شرعيًا ويمكنهم مقابل مكاسب مستقبلية أن يدعموا أعداء «خاتوشا» ليخلعوا «خاتوسيل» نفسه، أو حتى استمالة «كورونتا» نفسه ابن «موتالي» ليؤدي نفس الدور، الأمر تجاوز المشاكل الدبلوماسية، ووصل إلى تهديد عرش «خاتوسيل» نفسه.

telegram: @alanbyawardmsr

على الجانب الآخر «فرمسيس» يبدو أنه يعيش أزهى الأوقات، فعلاقاته الدولية في صالحه، وورقته الرابحة «أورحى تيشوب» في ضيافته، أدق أسرار الإمبراطورية الحيثية بأكملها الآن بين يدي «رمسيس» ومخابراته والذي يبدو أنه استغلها أسوأ استغلال ضد الحيثيين، الحرب أصبحت بعيدة المنال بل أشبه بالانتحار بالنسبة للحيثيين بينما «رمسيس» فائق العتاد يمكن أن يتخذ هذا القرار، ومن يدري ربما يتحالف معه الجميع؟!

«العام (٢١)، الشهر الأول من فصل برت (الشتاء) اليوم (٢١)، تحت ولاية جلالته ملك مصر العليا والسفلى،«وسر ماعت رع ستب إن رع» ابن «رع» «رمسيس» محبوب آمون.. في هذا اليوم كان جلالته في مدينة «بر رعمسومرى آمون» يفعل ما يرضي الآلهة.. الذين أعطوه في المقابل ملايينياليوبيلات وسنين لا نهائية من السلام، كل البلاد، وكل الدول تحت نعاله إلى الأبد، أتى رسول الملك النائب والساقيالملكي ومعهم رسل خاتوشا «تار تيشوب» و«رعمس» ومندوب «قرقميش»، يحملون لوحًا فضيًا أرسله «خاتوسيل» ملك «خاتوشا» العظيمإلى جلالته ملتمسًا السلام»(110).

وحدث السلام! أعداء الماضي أصبحوا اليوم إخوة، والصراع يقترب من نهايته، في العام (٢١) من حكم «رمسيس الثاني» وُقّعت معاهدة السلام والدفاع المشترك بينه وبين «خاتوسيل» إمبراطور الحيثيين، والتي حصدت في زمننا هذا رقمًا قياسيًا في موسوعة «جينيس» لكونها أول معاهدة سلام موثقة في التاريخ!

لا نعلم على وجه التحديد كواليس ما قبل توقيع معاهدة السلام بين مصر والحيثيين،

وليس لدينا أية معلومات واضحة عن تفاصيل المفاوضات من الجانبين، ولكن بناء على الوضع السابق للمعاهدة يبدو توقيعها منطقيًا للطرفين خاصةً مع عدم قيام «رمسيس» بأي أنشطة عسكرية عدوانية تهدد الحيثيين وبالمثل «خاتوسيل»، والحرب التي كانت على الأبواب قد تبخرت فجأة، يمكننا أن نتوقع أن الوضع في «آشور» كان غير مريح للطرفين خاصةً الحيثيين مع بعد «آشور» جغرافيًا عن «مصر» بمسافة كبيرة ولكنها لا تزال قوة لا يستهان بها على الساحة الدولية، إذن يمكن للبلدان تغيير السياسات تجاه كل منهما، استمرت المفاوضات لمدة سنتين على الأقل أخذت البعثات الدبلوماسية تتنقل ما بين العاصمتين «خاتوشا» و«بر عمسو» حتى أُقِرّت المعاهدة في العام (٢١) من حكم «رمسيس الثاني» الذي ناهز الستة والأربعين عامًا ويزيد وقتها، ما ينبهنا أن «رمسيس» أيقن أخيرًا استحالة استعادة الوضع الإمبراطوري خارج الحدود كاملًا كما كان في عصر «تحتمس الثالث»، فاتخذ القرار الأصوب لبلاده وكذلك فعل «خاتوسيل».

كُتِبت المعاهدة بالأكادية البابلية، وأرسلت نسخة إلى مصر لتراجع، وكذلك فعل «رمسيس المثل»، وأرسل نسخة إلى «خاتوشا، لتوثيق المعاهدة في النهاية بين البلدين، وشارك في كتابتها مشرعو بلاد الحيثيين وكذلك صفوة المشرعين المصريين، وقد كتبت النسخة الحيثية بالأكادية البابلية، وأرسلت إلى مصر لتترجم إلى اللغة المصرية القديمة، وبالمثل أرسلت النسخة المصرية إلى «خاتوشا» لتترجم بالأكادية البابلية، وبعد التفاهمات والتعديلات على النصوص في تناغم تام بين البلدين بشكل يحترم ويحفظ هيبة الطرفين، وُضِعت النسخة المصرية من المعاهدة تحت قدمي الإله «تيشوب» إله العواصف، بينما النسخة الحيثية وُضِعت في هليوبوليس تحت أقدام الإله «رع حور آختي»، كما قام «رمسيس» بكتابة نص المعاهدة على جدران معبدي «الكرنك» و«الرامسيوم»، ونسخت بعد ذلك عدة مرات ليوثقها الجانب المصري أكمل توثيق كعادة مصر منذ القدم في التدوين المفصل لكل شيء.

«اتفاقية «رياماشيشا ماي أمانا» (رعمسو مري إمن) ملك مصر العظيم القوي، مع أخيه «خاتوسيل» الملك العظيم لأرض «خاتوشا»، لجلب سلام وأخوة طيبة ومملكة عظيمة بينهما لطالما حيينا وللأبد:

«رياماشيشا ماي أمانا» (رمسيس الثاني)، ملك مصر القوي في كل البلاد ابن «من موريا» (من ماعت رع - سيتي الأول) الملك العظيم ملك مصر القوي، ابن «من باخيريتاريا» (من بحتى رع - «رمسيس» الأول) الملك العظيم، ملك مصر القوي، مع «خاتوشيلي» (خاتوسيل) الملك العظيمملك «خاتوشا» القوي، ابن «مورشيلي» (مورسيل

الثاني) الملك العظيم، ملك «خاتوشا» القوي، ابن ابن «شوبيلوليوما» الملك العظيم، ملك «خاتوشا» القوي.. انتبه الآن تحدث أخوة جميلة وسلام رائع بيننا إلى الأبد عن طريقمعاهدة تضمن الأخوة والسلام بين «مصر» و«خاتوشا» إلى الأبد».

(افتتاحية المعاهدة من الجانب الحيثي)(111).

«المعاهدة التي عقدها ملك خاتوشا العظيم «خاتوشيلى» القويابن «مورشيلي» ملك خاتوشا العظيم القوي، ابن ابن «شبيلوليوما» ملك خاتوشا العظيم القوي، التي صنعت على لوح من الفضة لـ«وسر ماعت رع ستب إن رع» (رمسيس) ملك مصر العظيم القوي، ابن «من ماعت رع» (سيتي) ملك مصر العظيم القوي، ابن «من بحتى رع» (رمسيس الأول) ملك مصر العظيم القوي؛المعاهدة الطيبة للسلاموالأخوة، التي تحققهما بنودها بين «خاتوشا» و«مصر» إلى الأبد».

(افتتاحية المعاهدة من الجانب المصري)(112).

اتفق النصّان المصري والحيثي للمعاهدة على البنود كافة في تناغم تام باستثناء بعض الاختلافات الطفيفة التي لم تؤثر في السياق العام للمعاهدة التي غطت بنودًا كثيرة ربما يتعجب منها القارئ! قامت نصوص تلك المعاهدة على الاحترام المتبادل بين البلدين سواء رمزيًا بألقاب التعظيم والتفخيم لكلا الملكين وصفهم من الآن فصاعدًا بالإخوة، وكذلك فعليًا مع بنود المعاهدة التي ستوثق تلك الأخوة، وسنستعرض معًا أهم بنود تلك الاتفاقية:

- أخوة إلى الأبد:

تنص المعاهدة على ضمان الأخوة وعدم العدائية بين «رمسيس» ونسله، و«خاتوسيل» ونسله إلى الأبد، والمدة الزمنية للمعاهدة إلى الأبد.

- إقرار المعاهدات السابقة:

وهي المعاهدات التي وُقّعت في عصر «شبيلوليوما» «وموتالي» مع مصر، التي أقر ووقّع عليها الطرفان بوصفها أحد بنود تلك المعاهدة الجديدة.

- سياسة عدم الهجوم:

عدم استخدام أيٍ من الطرفين القوة العسكرية أو الهجوم على بلاد كل منهما لسلبها ونهبها.

- الدفاع المشترك بين البلدين:

والذي ينص على أن يهبّ كلا الملكين لنجدة الآخر في حالة حدوث هجوم على بلاده أو استهداف من الأعداء.

- ضمان عرش الحيثيين لصالح نسل «خاتوسيل»:

وينص ذلك البند على تدخل «مصر» في حالة حدوث تنازع على العرش لإقصاء نسل «خاتوسيل» مستقبلًا، ليضمن «رمسيس» بنفسه مستقبل عرش أخيه الجديد، وفي حالة تمرد أي من نبلاء «خاتوشا» اعتراضًا على ذلك فسيتدخل «رمسيس» عسكريًا.

- تبادل اللاجئين:

اللاجئ ذو الشأن العظيم (نبيل، أمير.. إلخ) يعاد إلى بلاده ويرفض استقباله من الطرف الآخر، وكذلك اللاجئ الأقل شأنًا الذي يريد خدمة سيد جديد (ينقلب على ملكه) يعاد أيضًا إلى بلاده.

تبادل الهاربين من المجرمين:

أي مرتكب لجريمة يفر إلى أرض الآخر فعلى الطرف الآخر تسليمه إلى بلاده مع عدم لومه أو إيذائه جسديًا هو أو عائلته أو نسله، ولا يوجه له أي تهم من أي نوع، ولا يمس على الإطلاق، بل يُسلَّم إلى بلاده الأصلية.

شهود المعاهدة وعواقب مخترقها وثواب متبعها

الآلهة المصرية والحيثية هم شهود المعاهدة، وسيدمرون أراضي ومنازل وقوم من يخترقها وينعمون على من يتبعها(113).

أعقب المعاهدة إقامة الاحتفالات في كلا البلدين وتبادل التهاني والهدايا بينهما، بل إن المراسلات لم تقتصر على «رمسيس» و«خاتوسيل» فقط فامتد الأمر إلى الملكة الكبرى «تويا» أم «رمسيس» وزوجته «نفرتاري» وحتى الأمير ولي العهد «آمون حر خبش إف» (غير اسمه للمرة الأخيرة في هذه الفترة إلى ست حر خبش إف) يرسل بدوره الرسائل هو الآخر.

ملاحظات حول معاهدة السلام

اختلف علماء المصريات في تفسيرهم لنص المعاهدة وأي الملكين بدأ بالسلام، بينما نجد على سبيل المثال «تريفور برايس» (عالم الحيثيات) يؤكد أن «خاتوسيل» هو من طلب السلام. وفي النهاية لا توجد لدينا معرفة فعلية موثقة تخبرنا عن البادئ بطلب السلام.

تضمنت المعاهدة إقرار معاهدات سابقة، وربما يشير ذلك إلى فوضى ما بعد مقتل الأمير «زانانزا» ابن «شبيلولوميا» كما ذكرنا سابقًا في أعقاب وفاة «توت عنخ آمون»، أما معاهدة «موتالي» فربما تشير إلى الهدنة التي طلبها من «رمسيس» بعد «قادش»، وربما يؤكد ذلك بالفعل عرض «موتالي» الصلح مباشرة بعد معركة «قادش» والذي رفضه «رمسيس» سابقًا.

كذلك فإننا نعلم أن «خاتوسيل» كان على عِلْم بما دوَّنته جدران المعابد المصرية من نصوص ونقوش بخصوص معركة «قادش»، وقد اشتكى لـ«رمسيس» من الصورة المهينة التي ظهر بها الحيثيون (حلفاء مصر الجدد) على جدران المعابد، وفي النصوص المصرية، وكان رد «رمسيس» يخلو تمامًا من أي اعتذار، بل إنه تمسك بموقفه؛ لأنه كان يرى أن ما رواه هو الحقيقة! وفي نهاية الأمر لم يُجْرَ أي تعديل على التدوين المصري لمعركة «قادش».

لم يذكر نص المعاهدة أية حدود ما بين البلدين، ولكن بعض الشواهد تخبرنا أنه كان على «رمسيس» التخلي عن حلم «قادش» و«أمورو» في مقابل السلام؛ أي: أن ما كان مصريًا سيبقى مصريًا وما كان حيثيًا سيبقى حيثيًا، وكانت أكبر مكاسب «رمسيس» ضمان إرسال القوافل التجارية والبعثات المصرية التي ستمضي بحرية عبر سوريا بأكملها وبامتداد الساحل، كما أن السلام سيعطيه وقتًا أكبر للتركيز في مشاريعه الداخلية وضمان استقرار البلاد.

على الجانب الحيثي نجد أن «خاتوسيل» كان مستفيدًا هو الآخر من المعاهدة بشكل شخصي مباشر، فـ«رمسيس» هو أول ملك من القوى العظمى العالمية يعترف بشرعية «خاتوسيل» على العرش، بل إن المعاهدة تضمنت إقرار«رمسيس» بشرعية تولي نسل «خاتوسيل» لخلافته على عرش الإمبراطورية مؤمنة باتفاقية الدفاع المشترك بين البلدين وهو ما يعني أيضًا «رمسيس» سيكون حائط الصد أمام أي محاولة مستقبلية من أعداء «خاتوسيل» للمطالبة بالعرش، والأهم من ذلك أن المعاهدة ضمنت لـ«خاتوسيل» تأمين أي خطر مستقبلي أو أطماع من «آشور» أو حتى أي قوى ستظهر على الساحة بوجود حليف قوي مثل «مصر» يدعمه، وكذلك الوضع بالنسبة لـ«مصر» مع حليف قوي مثل الحيثيين.

مشكلة «أورحى تيشوب»

كان وضع الأمير الهارب مصدر توتر بين البلدين لفترة طويلة، بدأ أثناء المفاوضات وحتى بعد توقيع المعاهدة، وعلى الرغم من أن المعاهدة تضمنت بندًا ينص على تسليم اللاجئين السياسيين بين البلدين، وعلى ما يبدو أن هذا البند وُضِع خصيصًا لحسم مشكلة «أورحى تيشوب» التي ظلت قائمة لفترة طويلة بعد المعاهدة، وقد تحسب «خاتوسيل» لذلك في بنود أخرى للمعاهدة عندما ضمن عدم حدوث أي انقلابات عليه وعلى نسله، وكان لا يزال متشككًا عبوشا فيما يخص تلك المشكلة فنجده يكتب لـ«رمسيس» يلومه مدعيًا أنه خاطبه بوصفه واحدًا من خدمه أو رعيته، ولكن «رمسيس» حسم شكوك «خاتوسيل» العبوس بدبلوماسية وحرارة وصدق قائلًا له:

«لقد سمعت الكلمة غير المحمودةالتي كتبتها لي: إنني أكتب لك وكأنك واحدمن خدمي! هذا ليس حقيقيًا، ألم تتولَّ الملك وعلمت أنا بذلك؟ ألم يستقر ذلك في قلبي؟ أنت ملك خاتوشا العظيم، أنت بطل في كل البلاد، إله الشمس وإله الرعدقد منحوك الحق في الجلوس على العرش في مكان جدك،يجب عليك ألا تعتقد أنني سأكتب لك باعتبارك واحدًا من خدمي، الكلمات التي ينبغي أن ترسلها إلي: فليسعد قلبك كل يوم وليس هذا الكلام الفارغ، أنا أخاطبأخي بسبب العلاقة الدافئة التي أسسناها»(114).

بمرور السنوات يبدو أن تلك المشكلة قد تفاقمت بعض الشيء مع المراسلات المتبادلة بين الملكين فنجد أن «أورحى تيشوب» هرب من مصر بعدما أدرك أنه انتهى دوره بوصفه مصدرًا للمعلومات، وقلَّت أهميته لدى «مصر»، ومسألة بقائه بها في أمان هي مسألة وقت لا أكثر، وهنا نجد «خاتوسيل» بعدما علم بهروبه يطلب من «رمسيس» طلبًا غاية في الغرابة؛ وهو أن يتعقب «أورحى تيشوب» بكل جدية ويعيده إلى مصر! لا بد أن يمنعه من أن يصبح قويًا ويشن الحرب على «خاتوسيل».

كان «أورحى تيشوب» من الذكاء والقوة والدعم أنه نجح في تضليل الاثنين اللذين لم يعثرا له على أثر تمامًا، فلم يستطع «رمسيس» إعادته إلى مصر، ولم يستطع «خاتوسيل» القبض عليه وإعادته إليه لتظل تلك المسألة مُعلَّقة لبعض الوقت حتى يختفي «أورحى تيشوب» من المشهد في النهاية، ولم يعلم أحد على وجه اليقين ماذا كان مصيره بعد هروبه في نهاية المطاف.

«بالنسبة لما كتبته لي بخصوص مسألة «أورحى تيشوب»، المسألة ليست أنه ذهب إلى «قادش» أو «حلب» أو «كيزواندا»! ولكنك كتبت تسأل، انظر أنا لا أفهم كلماتك بخصوص

مسألة «أورحى تيشوب» عندما قلت: أعده إلى مصر، أنا لا أعلم مكانه، لقد طار مثل العصفور»(115).

وبشكل عام فإن أول سنوات ما بعد المعاهدة قد شهد بعض التوترات الأخرى والاختلافات وحتى المفاوضات الجديدة أحيانًا بين الطرفين اللذين تعلما في النهاية أن عليهما التعلم على قبول الوضع كما هو ليسود المنطقة سلام طويل الأمد مع رابط قوي بين الإمبراطورتين حدث في العام (٣١) من حكم «رمسيس».

لن أزوج ابنتي لأحد غيرك

كان توثيق العلاقات بين ملوك الشرق القديم يتبعه عادة المصاهرة، حدث ذلك من قبل في عصور الإمبراطورية المصرية مع أباطرة مثل «تحتمس الثالث»، و«أمنحتب الثالث» اللذين امتلأ حريم قصورهما بالأميرات الأجنبية؛ لذلك لم يكن من المستغرب أن تصل إلى مصر في العام (٣١) من حكم «رمسيس» رسالة من «خاتوسيل» يخبر «رمسيس» فيها أنه يريد أن يزوجه ابنته بل إنه ذكر في مراسلاته أنه لن يزوجها لملك «بابل»، ولا أي مملكة أخرى، ابنته ستكون لـ«رمسيس»، وسيرسل معها ما يفوق الخيال، وهو العرض الذي لاقى ترحيبًا من «رمسيس» ليرد على أخيه بالموافقة، ويخبره أن نفس الملوك طلبوا تزويجه من بناتهم ولكنه بالطبع يتشرف بالزواج من ابنة إمبراطور الحيثيين.

استمرت المراسلات بين الطرفين للتجهيز لهذا العرس العالمي ما يقارب أربع سنوات، وذكرت الملكة «بودوخيبا» زوجة «خاتوسيل» في المراسلات مرات عديدة برسائل موقَّعة منها لـ«رمسيس» وهو ما يوضح دور ملكات الشرق القديم في مسائل الزيجات الملكية، وتربية الأميرات، فإن «بودوخيبا» هي التي ربّت ابنتها بنفسها وجهّزتها بيديها لـ«رمسيس»، وقد أعلمتنا الرسائل أن هناك مشاكل تسببت في تأخير العرس فنجد «رمسيس» يرسل لـ«بودوخيبا» قائلًا:

«أختي، لقد وعدتِ أن تعطيني ابنتك، هذا ما أرسلتيه إليّ! ولكنك منعتيها عني وغاضبة مني؟ لماذا لم تعطيها لي حتى الآن؟»(116).

لترد الملكة:

«لقد منعت ابنتي بالفعل، وبالتأكيد أنت ستوافق على هذا، أنا لا أستطيع إرسال ابنتي الآن؛ لأنه كما تعلم فإن (قصر خاتوشا) قد اشتعلت فيه النيران، وما تبقى أهداه «أورحى تيشوب» للإله العظيم، وبما إن «أورحى تيشوب» في ضيافتك اسأله إن كان ذلك حقيقيًا أم لا؟»(117).

لم تُفوّت الملكة الفرصة لتذكر «رمسيس» بمسألة «أورحى تيشوب» الذي راوغ «رمسيس» في تسليمه بعدما تعرت أدق أسرار إمبراطورية الحيثيين لـ«رمسيس» على يديه، وبدأت في ممارسة سطوتها كحماة مستقبلية لـ«رمسيس» مبكرًا جدًا في رسالة خالية من الود أشبه بالتوبيخ بل إنها استكملتها بما هو أكثر من ذلك ولجأت للهجوم المباشر.

«ألا يملك أخي شيئًا؟ أنت تريد الإثراء على حسابي! هذا لا يليق بشمعتك أو مكانتك، بمن

أقارن ابنة السماء والأرض التي سأعطيها لأخي بابنة ملك بابل أو ملك آشور؟»(118).

يبدو أن مسألة «أورحي تيشوب» كان شديدة الحساسية لدى الحيثيين بالفعل، بل إن «تودوخيبا» أشارت صراحة إلى الإشاعات التي كانت متداولة في بلاط الممالك الأخرى!

بمعنى أدق وفي إشارة خفية أخرى ربما قصدت أيضًا أن آخر زيارة ملكية حيثية إلى مصر كانت الأمير «زانانزا» ابن «شبيلولويما» الذي أتى للزواج من ملكة مصر واغتيل.

كذلك فإن الزواج بالفعل كان من النوع الفريد، فالأميرة الحيثية التي سترسل إلى مصر هي ابنة «خاتوسيل» «وبودخيبا» ليست مجرد أميرة من زوجة ثانوية أو محظية، ما يعكس أهمية تلك الزيجة للحيثيين أيضًا، فبالفعل الأميرة التي سترسل إلى «مصر» حجزت لـ«رمسيس» فقط ولا أحد سواه.

وهي فرصة ذهبية لـ«رمسيس» الذي يبدو أن زمام الأمور بيديه على صعيد السياسة، ولا نعلم سبب توتر الوضع بهذا الشكل لتصل رسالة أخرى من «خاتوسيل» موجهة لـ«رمسيس».

«فلترسل الناس ليضمخوا رأس ابنتي بالزيوت الطيبة، ليرسلوها إلى منزل الملك العظيم ملك مصر، أخي»(119).

«رائع هذا الموقف الذي كتب لي أخي عنه، إله الشمس وإله العواصف وآلهة مصر وخاتوشا سيتوحدون إلى الأبد»(120).

تهدأ الأمور مع رسالة «رمسيس» الأخيرة التي بعثها لحماه وحماته المستقبلية تباعًا بصيغة دبلوماسية مرنة توحي بالفعل أن هناك مشكلة وقد حلّت، ومن ثم استعاد البلدان الهدوء، رسل «مصر» يصلون بالفعل إلى «خاتوشا» لاصطحاب الأميرة التي أرسلت أمها تُبشّر بطقوس بدء المسيرة، وتحدث «رمسيس» عن الأخوة واتحاد البلدين مرة أخرى، لتبدأ رحلة طويلة إلى «بر رعمسو» يرافق الموكب كبار رجال الدولة من البلدين، وعلى رأسهم مبعوث الملك ونائبه في بلاد «كوش» وقتها المدعو «حوى» ومعه أحد إخوة العروس من الجانب الحيثي.

«عندها أرسل «خاتوسيل» ابنته الكبرىمع هدية مذهلة تتقدمهامن الذهب والفضة والنحاس بكميات كبيرة؛ عبيد وأزواجلا حضر لها من الخيول، قطعان من الماعز والكباش تُقدّر بعشرات الآلاف، ومنتجات لا نهاية لها أحضروها لملك مصر العليا والسفلى «وسر ماعت رع ستب إن رع» ابن «رع رمسيس» المعطي الحياة، وقال أحدهم لجلالته «ملك خاتوشا العظيم» أرسل ابنته الكبرى مع هدايا من كل الأنواع غطت الطرق في مسيرها ومعها الأميرة

وكل عظماء أرض خاتوشا»(121).

«لقد كانت جميلة في قلب جلالته، وأحبها أكثر من أي شيء»(122).

كانت هذه الكلمات الأخيرة هي التي دونها «رمسيس» يصف رؤيته لعروسه لأول مرة في حفل زواجهما الذي حدث في العام (٣٤) من حكم الملك الذي اقترب من الستين عامًا، وقد شيَّد لها قصرًا آية في الجمال في قلب العاصمة جهزه بكل شيء جميل، والغريب أننا لا نعلم اسم تلك الأميرة الحيثية؛ حيث سجل لنا التاريخ الاسم الذي أطلقه «رمسيس» عليها وهو «مآات حور نفرو رع» (التي ترى «حورس» (الملك نفسه)، جمال رع).

وقد دوَّن «رمسيس» في لوحة زواجه من تلك الأميرة بعض اللمحات التي يمكن أن تُفسِّر لنا تغير موقف الحيثيين من طلب الزواج، ثم رسالة «بودوخيبا» العدائية ثم انتهاء المشكلة وإرسال العروس، فقد بعثت «بودوخيبا» في وسط تجهيزات الزواج لـ«رمسيس» تطلب منه إرسال الخيالة والفرسان لمرافقة الموكب بسبب مجاعة ضرب «خاتوشا»، وهو ما ذكره «رمسيس» أيضًا على لوحة الزواج أن «خاتوسيل» قد قدم زواج ابنته على المجاعة التي ضربت بلده وأرسلها لـ«رمسيس» بمهرها الفخم الذي من المؤكد أنه أرهق الخزانة الحيثية.

كما أننا لو توقفنا قليلًا سنجد أن بحلول هذا العام كانت «نفرتاري» الزوجة الرئيسية لـ«رمسيس» قد رحلت عن عالمنا، معها اختفت سيرة زوجته الأخرى «آست نفرت» (ربما كانت توفيت هي الأخرى)، هل كان توقيت ذلك الزواج مقصودًا من الحيثيين؟ هل رغب والدا العروس أن تلعب دورًا مهمًا في الإمبراطورية المصرية؟

فنجد «بودوخيبا» تبعث لـ«رمسيس» تطلب منه أن يجعل ابنتها زوجة رئيسية، فيوافق «رمسيس» ضمنيًا على طلبها بينما في حقيقة الأمر نجد أن الأميرة الحيثية أرسلت في نهاية المطاف إلى قصر حريم «مر ور» بالفيوم.

بينما «خاتوسيل» يبعث برسالة أخرى تؤكد ظنوننا:

«لكنت سأعطي أرض خاتوشاإلى ابن ابنتي، إن كانت أنجبت ابنًا، ولكنك لم تنجب منها، هل من الممكن كما قيل إن أخي لا يستطيع إنجاب ابن؟»(123).

أرسل «خاتوسيل» تلك الرسالة بعدما قام بتنصيب ابنه «تودوخاليا» منذ فترة طويلة وريثًا للعرش، كما أنه كان يعلم أن لـ«رمسيس» عددًا مهولًا من الأبناء ذكورًا وإناثًا ولكنه على الرغم من ذلك قام بإرسال تلك الرسالة، يبدو أنه لم يكن يقصد عرش «خاتوشا» عندما تحدث عن أنه على استعداد أن يورثه لحفيده المنتظر من «رمسيس».

يبدو أن «رمسيس» ذلك المحارب الذي لا يشق له غبار، قد أصبح سياسيًا محنكًا لا تقل قدراته الدبلوماسية عن العسكرية ليثبت وبجدارة أنه بالفعل بطل الحرب والسلام، وبمرور الوقت يبدو أن تلك الأحلام الحيثية قد تبخرت مع تودد «رمسيس» ودبلوماسيته اللامتناهية فنجد أن أن «خاتوسيل» قد تخلى عن حذره المعهود رويدًا رويدًا، وأيقن أنه أمام حليف قوي يطلب الود بلا تصنع.

لقاء القمة.. «خاتوسيل» يزور مصر

بمرور الزمن ازدهرات العلاقات المصرية الحيثية بشكل فائق التناغم، ويبدو أن التوتر قد زال وإلى الأبد فنجد الأمير ولي العهد «تودخاليا الرابع» يزور مصر ويستقر بها عدة أشهر فينهل من علومها ومن وجهاء القوم والأمراء الملكيين ما يصقل خبراته المؤهلة ليكون الملك القادم، ليعود إلى بلاده معززًا مكرمًا كما جاء.

بعدها اتخذ «رمسيس» خطوة أكثر جرأة، ونظّم لقاء قمة عالمي جمع بينه وبين «خاتوسيل» إمبراطور الحيثيين شخصيًا، نجح «رمسيس» بعد إلحاح شديد ومراسلات مكثفة أخيرًا في إقناع ذلك الرجل المتشكك دائمًا في الإقرار بنيات «رمسيس» الحسنة وقبل الزيارة ليكون لقاء القمة أخيرًا بين أعداء الماضي وإخوة الحاضر في عقر دار «رمسيس».

«إله الشمس المصري وإله العواصفالحيثي وآلهتي وآلهةأخي سيجعلون الأخ يرى أخاه، وليحمل أخي نواياه الطيبة معهلنستطيع رؤية بعضنا وجهًا لوجه في القصر الذي يجلسفيه الملك «رمسيس» متوجًا، سأذهب بنفسي إلى «كنعان» لالتقي أخي وجهًا لوجه، وأستقبله على أرضبلادي»(124).

بحلول العام (٤٢) من حكم «رمسيس» يبدو أن أخاه «خاتوسيل» قد لاقى ربه، وأرسلت التعازي إلى «خاتوشا» حدادًا على رحيل ذلك العاهل المحنك شديد المراس.

وفي فترة ما بين العام (٤٠-٤٥) من حكم «رمسيس»، وبعد تلك الزيارة، وربما بعد وفاة «خاتوسيل»، أرسلت أميرة «حيثية» أخرى إلى مصر ليتزوجها «رمسيس»، وتنضم إلى أختها في قائمة الزوجات المهولة لـ«رمسيس الثاني»، لعل هذه كانت محاولة أخرى من الملكة الأريبة «تادوخيبا» للوصول إلى عرش مصر.

الأغرب من ذلك أنه مع تلك الزيجتين ومع زيارة ولي العهد الحيثي لمصر بل وإمبراطور الحيثيين نفسه، لم تُشِر النصوص ولا مرة إلى طلب زواج حيثي لأميرة مصرية، وعلى الأرجح كان لهذا ما يُبرّره، فكانت القواعد المصرية صارمة بهذا الشأن، فلم يحدث سابقًا أن تزوجت أميرة مصرية من أجنبي.. تذكرون ماذا حدث لـ«زانانزا»؟

معذلك السلام الممتد الأمد، وفي خضم العلاقات الطيبة نجد بعض الشد والجذب وحتى من المواقف الفكاهية؛ ففي رسالة من «خاتوسيل» إلى «رمسيس» طلب منه أن يرسل طبيبًا مصريًا بالدواء لأخته «ماتانازي» التي لم تنجب فيجيبه «رمسيس»:

«أما عن ما كتبه لي أخي بخصوص أخته «ماتانازي» قائلًا: فليرسل أخي طبيبًا ليصنع

دواءليجعلها تنجب أطفالًا، في هذا الشان أقول لأخي: انظر! إني أعرف شقيقتك، إنها في الخمسين أو الستينمن عمرها! إن امرأة في الخمسين لا تستطيع الإنجابفما بالك بمن هي في الستين؟ لا يستطيع أحد صنع دواء ليجعلهاتنجب، لعل إله الشمس وإله العواصف يأمران، وحسب مشيئتهمستسير الأمور مع أخت أخي، ومن ناحيتي أنا الملكأخوك سأرسل كاهنًا وطبيبًا خبيرًا، وسوف يصنعون الأدويةلمساعدة أختك على الإنجاب»(125).

هل كان ذلك ردًا على التوبيخ الذي تلقاه «رمسيس» من حماته في رسائل الماضي؟

لا ندري.. لن نستطيع أبدًا فهم دهاليز السياسة حتى ولو كانت في الماضي السحيق، وحتى لو كانت بين طرفين عظيمين متحابين بلا رياء يجمعهما ودٌ حقيقي وعلاقة نسب ودم.

---

79 Lichtheim. Miriam (1976), Ancient Egyptian Literature, Volume II: The New Kingdom, The Kadesh battle inscriptions of Ramses II, The Bulletin, The Poem P 57:72.

80 David, Rosalie (2014), Voices of Ancient Egypt, Contemporary Accounts of Daily Life PP 144:146.

81 نوبلكور، "رمسيس" فرعون المعجزات ١٣١.

82 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

83 David, Voices of Ancient Life PP 144:146.

84 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

85 أدب الحكمة ص ٥٣.

86 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

87 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

88 David, Voices of Ancient Life PP 144:146.

89 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

90 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

91 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

92 نوبكلور، "رمسيس" فرعون المعجزات ١٦٩.

93 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

94 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

95 Bryce, Trevor (2005), The Kingdom Of the Hittites, P240.

96 Bryce, The Kingdom Of the Hittites, P240.

97 Lichtheim, Miriam (1976), Ancient Egyptian Literature, Volume II: The New Kingdom, The Kadesh battle inscriptions of Ramses II, The Bulletin.

98 Lichtheim, Miriam (1976), Ancient Egyptian Literature, Volume II: The New Kingdom, The Kadesh battle inscriptions of Ramses II, The Poem.

99 Gardiner, Alan, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II (1975) . Breasted, James Henry, Ancient Records of Egypt; Historical Records (1906).

100 الشوقيات، كبار الحوادث في وادى النيل.

101 Gardiner, Alan, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II (1975) pp. 39 - 41.

102 Lichtheim, AE Literature, Volume II: P 57:72.

103 "رمسيس" فرعون المعجزات ص ١٧٤.

104 Bryce, Kingdom Of the Hittites P261.

105 Bryce, Kingdom Of the Hittites P246.

106 Bryce, Kingdom Of the Hittites P263.

107 Bryce, Kingdom Of the Hittites P265.

108 Bryce, Kingdom Of the Hittites, P267.

109 Bryce, Kingdom Of the Hittites, P276.

110 Bryce, Kingdom Of the Hittites, P277.

111 S. Langdon and Alan H. Gardiner, The Treaty of Alliance between Ḫattušili, King of the Hittites, and the Pharaoh Ramesses II of Egypt, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 6, No. 3 (Jul., 1920), pp. 186-198.

112 S. Langdon and Alan H. Gardiner, The Treaty of Alliance, pp. 186-198.

113 S. Langdon and Alan H. Gardiner, The Treaty of Alliance, pp. 186-198.

114 Bryce, Trevor (2005). Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P84.

115 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P209.

116 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P107.

117 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P107.

118 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P107.

119 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P108.

120 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P109.

121 Bryce, Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P110.

122 كريستيان نوبلكور، "رمسيس" فرعون المعجزات، ص ٣٢٥.

123 Bryce, Trevor (2005). Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P111.

124 Bryce, Trevor (2005), The Kingdom Of the Hittites. P28.

125 Bryce, Trevor (2005). Letters of the Great Kings of the Ancient Near East, P15.

الفصل الخامس: مملكة «رمسيس».. الإرث العظيم

«مصر» داخليًا ما بعد «قادش»

على الرغم من انشغال مصر على الساحة الدولية في الصراع الحيثي وما بعد «قادش» إلا أن ذلك لم يمنع «رمسيس» من الاهتمام بقضايا خارجية أخرى، وكذلك الجبهة الداخلية التي أوكلت مهمتها للوزير النشيط «باسر» في غياب «رمسيس».

بعد عودة «رمسيس» من «قادش» خلّد ذكرى المعركة على الكثير من الآثار المصرية كما ذكرنا سابقًا لتدون نصوصها مصاحبة للمناظر التي وصفت تفاصيلها بدقة، ولكن «رمسيس» في خضم تلك الاحتفالات لم ينسَ إخفاق قيادات الجيش في «قادش» فاستبدل بعضهم وقام برأب الصدع الكبير في جهاز مخابراته الذي كاد يكلفه حياته، كان جزءًا من خطة إعادة هيكلة الجيش هو الالتفات إلى الحدود الغربية، فمثلها مثل حدود مصر تتعرض للإغارة ما بين الحين والآخر من سكان الصحارى وبدوها، فقام ببناء عدة قلاع في الغرب كان بعضها بالقرب من البحر لتأمين الجبهة الليبية بنجاح تام.

telegram: @alanbyawardmsr

بمرور الوقت يتحول «رمسيس» من الحنق والغضب التام على جيشه وقياداته إلى الرضا خاصة بعد أسر «دابور» لأول مرة فنجده يكرم قياداته وجنوده ويغدق عليهم الهدايا والمنح.

أما في الجنوب فأتت لـ«رمسيس» أخبار من نائب الملك في «كوش» من مقره بالعمارة غرب عند الشلال الثالث بتمرد في «إرم» النوبية، وقد وجدها «رمسيس» فرصة سانحة لاختبار قدرات جيشه بل وتدريب الأمراء الصغار من أبنائه، فنجد أن «آمون حر خبش إف» ولي العهد قد أحرز النجاح الكافي بجوار والده في قمع ثورات «مؤاب» و«إدوم»، ليظهر في النوبة أسماء أمراء آخرين كانوا على رأس فرقة من فيلق «آمون» الذي كان في طيبة وقتها، وهم الأمراء «خع إم واست» الذي شاركه سابقًا في حملة النوبة المُسجّلة على جدران معبد بيت الوالي، وهو طفل ومعه هذه المرة إخوته «ست إم ويا» و«مرنبتاح»، وقد نجحوا في القضاء على تلك الثورة، ومن ثم دُوّنت نتائج تلك الحملة على الباب الرئيسي لمقر «نائب الملك في كوش» في العمارة غرب، ومنها أسلاب وغنائم وسبعة آلاف أسير.

وبالتوازي مع الأحداث في سوريا كانت الجبهة الداخلية في مصر مستقرة تمامًا، فنجد تغيير القيادات الكهنوتية يسير على نفس النسق المقرر له سابقًا، فيتولى منصب نائب الملك في «كوش» موظف يدعى «حقا نخت» حلّ محلّ «إيوني» الذي تقاعد ليشرف «حقا نخت» على ممتلكات مصر في النوبة القديمة وكذلك مشاريع «رمسيس» الإنشائية هناك وعلى رأسها «معابد أبو سمبل»، وقد ظهر بجواره في تنفيذ مشروع «معابد أبو سمبل» الموظف

المخلص «مشا حب سد» الذي كان مبعوث الملك في كل الأراضي الأجنبية.

بينما بقي منصب العشرف على الصوامع بين أبناء عائلة «سمي الكبير» فتولى ابنه «قن» من بعده بل إن ابنه «سيمي الأصغر» سيتولى خلفًا لأبيه بعد ذلك. وحتى على المستوى الكهنوتي نجد ذلك يحدث في معبد أبيدوس فيتولى «وان نفر» منصب أبيه «مري» بصفته «كبير كهنة أوزير». ومع طول فترة حكم «رمسيس» أصبح تداول المناصب من الأمور السهلة السلسة التي لا يشوبها أي نزاعات بعد تكوين «رمسيس» لحكومة قوية جدًا في وقت مبكر مع توليه العرش، باستثناء بعض المناصب التي حجزت لأشخاص استثنائيين في الحكومة مثل «باسر» وبعض الأمراء من أبناء «رمسيس».

أما أعمال الإنشاءات التي تحققت في عهد «رمسيس» مثل مشاريعه الضخمة في معبدي الكرنك والأقصر، وكذلك سلسلة مشاريعه في النوبة. فكانت على أكمل وجه وبأقصى سرعة مع الإمدادات والإغداق الذي أغدقه «رمسيس» ماديًا ومعنويًا على منفذي تلك المشاريع أو حتى صغار العاملين به. هذا الإغداق والبذخ الذي جعل مشاريع مصر لا تقتصر على الأماكن السابق ذكرها فقط ولكن في مصر بأكملها، لم يترك «رمسيس» مكانًا في مصر إلا وشيد به أثرًا، ليصبح أعظم بناء في تاريخ مصر في واقعة استثنائية لم يضاهيه فيها أحد، وليصدق في مقولته الشهيرة:

«طالما ستبقى السماء، ستبقى آثاري على الأرض»(126).

«باسر».. الوزير المخلص

«لقد كنت قلب وعيون وآذان مولاي الملك، لقد كنت مرشده، لم أذق طعم النوم ليل نهار... أينما كان وضعي واقفًا أم جالسًا كان قلبي بالقربمن حبل المقدمة والمؤخرة (للسفينة ـ يقصد البلاد)، لم أسمحللشر أن يسيطر عليّ ولم أرتكب أي إهمال تسبب في مصيبة».

«رخميرع» وزير «تحتمس الثالث» متحدثًا عن نفسه(127).

كما كان «تحتمس الثالث» الإمبراطور المصري هو المثل الأعلى لـ«رمسيس الثاني» وعائلته بأكملها، كان «رخ مي رع» وزير تحتمس هو المثل الأعلى لـ«باسر» وزير «رمسيس».

يقول الإمبراطور تحتمس الثالث لوزيره «رخ مى رع» عندما قام بتقليده المنصب:

«قال له جلالته: انظر إلى منصب الوزير.. إنه دعامة البلدبأكملها، إن منصب الوزير ليس بالحلو وإنماهو مر كالمرارة نفسها، يأتي الملتمسون من الجنوب والشمال.. لا تحكم بغير العدل فإن الإله يكره التحيز، هذا أمر (تعليمات) خطط للعملوفقًا لها، اعتبر من تعرفه كمن لا تعرفه، اعتبر القريبمنك كالبعيد عنك فالقاضي الذي يتصرف طبقًا لذلك سوف ينجح في هذا المكان، لا تصد شاكيًا قبل أن تضع كلامه في الاعتبار، وإذا تقدم إليك أحد بشكوى فلا ترفض حديثه باعتباره يكرر كلامه، أرفض شكواه بعد إفهامهعلى أي أساس رفضتها، فهناك مثل يقول: في بعض الأحيانالشاكي يرغب في أن تسمع شكواه بدلًا من أن يُفصل في قضيته، لا تؤنِّب رجلًا ظلمًا، واستخدم التأنيب عندما يستحق الموقف ذلك.. إن قيمة القاضي في أنه يفعل الحق. ستنجح في ذلك المنصب بإقامةالماعت (العدالة)، فإن إقامة الماعت هو المنتظر من أفعال الوزير، فهو حاميها منذ الأزل»(128).

كانت هذه هي القدوة الحسنة التي ارتضاها «رمسيس» لوزيره «باسر» وارتضاها «باسر» لنفسه، ومع صعود «باسر» الصاروخي في عصر «سيتى الأول» كان ذلك سببًا مباشرًا في أن يحوز على ثقة بلا حدود من جانب «رمسيس»، بل إنه في بعض الأحيان تجاوزت مهام «باسر» الوزارية ليصبح فعليًا ذراع «رمسيس» اليمنى وعينيه وأذنيه في مصر بأكملها، كل صغيرة وكبيرة تمر على «باسر» أولًا ليقدم بها تقريرًا مفصلًا لـ«رمسيس» بصفة دورية مستمرة، في بداية عصر «رمسيس» وقبل بدء غمار معركة «قادش» أشار إليه «باسر» بتعيين موظف يدعى «رع مس» رئيسًا لكتبة قرية «ست ماعت» (مكان الحق ـ دير المدينة حاليًا)؛ وهى قرية العمال والحرفيين والكتبة الذين شيدوا مقابر وادي الملوك، فلم يتردد «رمسيس» في قبول ترشيح وزيره، وأثبت «باسر» صِدق وإخلاص مرشحه الذي عمل على تنظيم العمل في تلك البقعة المهمة لإتمام مشاريع الأبدية الخاصة بـ«رمسيس» على أكمل

وجه له ولعائلته ردًا لكرمه وإغداقه عليهم، فنجد خطابًا متكررًا من عصر «رمسيس الثاني» لعماله؛ أشهرهم لوحة من العام الثامن:

«أيها العاملون المختارونوالبواسل، إنني أعرف أيديكم التي شكلت الكثير من آثاري... فبفضلكم سوف أتمكن من تزيين كل المعابد التي أقمتها... لقد أصغيت لأحاديث بعضكم للبعض الآخر، لن أدخر وسعًا لأغدق مني عليكم وتكون أفعالي مطابقة لأقوالي.. أنا «رعمسو» محبوب«آمون» الذي يساعد الأجيال الشابة لتنمو وتترعرع فأتيح لهم أنيحيوا، وسوف تغمركم الأطعمة ولن ترغبوا أيضًا في زيادةمأكلكم من حولكم، سوف أوفر لكم كل ما تحتاجون إليهبشتى الوسائل، هكذا ستعملون من أجلي بقلب محب، فأنا حامي مهنتكمالقوي والمدافع عنها، وبين أيديكم ستكونالأطعمة أثقل من الأعمال التي تقومون بها، هكذا تتمكنون من العيش والنمو، إني أعلم مدى قسوة صنعتكم وفائدتها، وأعرف أن العمل أمر مفرحعندما تكون البطون ملآنة. من أجلكم سوف تتكدس الشون بالقمح حتى لا تقضوا يومًا واحدًا محرومين من الطعام، سيحصل كل واحد منكم مونثًا تكفيه لمدة شهر، كما عينت عددًا كبيرًا من الإداريين لتلبية احتياجاتكم.. ومن أجلكم أيضًا لا تتوقف مصر العليا عن الإبحارفي اتجاه الدلتا، والدلتا في اتجاه مصر العليا بحمولات من الشعيروالحنطة والملح والفول بكميات كبيرة... لقد فعلت كلذلك حتى يقال: إنكم تزدهرون بينما تعملون من أجلي بقلبرجل واحد».

(لوحة تعود للعام الثامن من حكم «رمسيس» موجهة لعمالوحرفيي هليوبوليس)(129).

هذا النص وغيره المئات على مَرّ العصور قد نسف أساطير تشييد الآثار العظيمة بالسخرة والعبودية لكل ذي عقل، فالحب والأجر الكريم وحده يخلقان عمالًا مخلصين أوفياء، ومما لا شك فيه أن عمال دير المدينة قد حُوطبوا بمثل هذا وأكثر.

عودة إلى «باسر» والذي كانت أصوله من مدينة «منف» من ناحية أمه إلا أن قدره قد ارتبط بالجنوب وبمدينة طيبة إلى الأبد طبقًا لمهام وظيفته، إلا أن ذلك لم يمنع أن يكون له مقر في العاصمة «بر رعمسو» مع نشاطهالفائق وتنقلاته العديدة.

ما بين العامين (٢١- ٢٧) من حكم «رمسيس» نجد «باسر» وقد تقدم في السن ولم يصبح قادرًا على أداء وظائفه كما كان في الماضي، وعلى الأرجح كان تقاعده بناء على طلبه هو، إلا أننا إذا وضعنا أنفسنا مكان «رمسيس» في ذلك التوقيت فسنجده -وبكل تأكيد- لا يرغب في فقدان أهم موظفيه على الإطلاق الذي لم يرتكب غلطة واحدة تقريبًا طوال أكثر من ربع قرن قضاها في خدمة «رمسيس» بالإضافة إلى السنوات التي قضاها في خدمة أبيه

«سيتي»، «باسر» ومن هو «باسر» الذي رافق «رمسيس» في مراهقته وشبابه، وأفنى زهرة عمره في خدمة الوطن، وكان خير ناصح وصديق لملكه، إلا أن الوداع كان مُحتمًا فذهب «باسر» بنفسه ليودِّع رجاله المخلصين من العاملين في غرب طيبة، وهناك كان له من الآثار المُكرسة له الكثير منها ما يفوق العشر لوحات حجرية جمع معظمها بينه وبين «رمسيس» في حضرة الآلهة، مع آثار أخرى حملت اسمه في ربوع مصر.

كانت تلك الحفاوة في دير المدينة لها ما يبررها، فمراسلات «باسر» مع «رع مس»- كبير كتبة تلك القرية وعُمدة غرب طيبة الذي رشَّحه «باسر» بنفسه للمنصب يومًا ما- أثبتت أنه لم يسمح حتى بتأخير أجور عمالها يومًا واحدًا أو أن ينقص منها ذرة، اتباعًا لسياسة «وسر ماعت رع»، فكان هو كالنجم في تلك القرية الصغيرة بين جبال طيبة والتي صنعت المعجزات في الوادي يومًا ما.

برحيل «باسر» يظهر مكانه اسم جديد في المنصب وهو «خعى»، والذي على ما يبدو استلم وظيفته في العام ٢٦-٢٧ من حكم «رمسيس» مع ترك «باسر» لمهام منصبه.

أما عن «باسر» بعد تركه للمنصب فكان «رمسيس» يدخر له منصبًا يليق بخدماته الجليلة لمصر فيتولى «باسر» منصب «كبير كهنة آمون» في «طيبة»، ويعود للكرسي الذي شغله أبوه «نب نترو» سابقًا، وليكن هذا مسك الختام له خادمًا للإله في آخر أيامه.

maktabbah.blogspot.com

«طوبى لمن يحتفي بجلالتكأيها الرب العظيم، ولا يتوقف عن خدمة معبدك.. ادخلوا بسلام وانطلقوا سعداء؛ ذلك لأن السعادة في يده، والسعادة في قبضته». (من نصوص معبد إدفو) (130).

استمر «باسر» مُخلصًا كالعادة في وظيفته الجديدة لمدة تقترب من عشر سنوات قبل أن يرحل هو الآخر إلى الغرب الجميل مع حلول العام (٣٨) من حكم «رمسيس» تقريبًا، وفي النهاية كان مثواه الأخير مقبرة اختارها لنفسه في غرب «طيبة» تقع اليوم في منطقة الخوخة، وتحمل رقم المقبرة الطيبية (١٠٦)، Theban tomb 106.

وكما ارتبط اسمه بملكه «رمسيس» في آثاره التي خلدتهما معًا ارتبط اسمه أيضًا بصديقه المقرب «رع مس»، والذي ظهرت أسماؤهما معًا فيما يفوق المائة أثر، مع العديد من المناظر جمعتهما بملكهما «رمسيس» لعلهم يجتمعون معًا مرة أخرى في العالم الآخر يومًا ما.

الوزارة بعد «باسر» والفساد الإداري

أما عن الوزراء بعد «باسر» فقد حاولوا جاهدين شغل الفراغ الذي تركه «باسر»، وقدأ بدأ الوزير الجديد «خعى» تولي مهامه بالكشف عن جريمة فساد كبرى في «طيبة»، فجّر تلك القضية كاتب يُدعى «حاتي عا» الذي رفع تقريره إلى الوزير يذكر فيه أن موظفًا كان يشغل منصب المسئول عن مخازن الآلهة في «طيبة»، ومع حلول العام (٣٠) من حكم «رمسيس» نُقِل إلى وظيفة أخرى في الدلتا مفتشًا لقطعان الماشية، وتزامن ذلك العام مع أول احتفال بعيد «سد» (عيد تجديد الشباب) لـ«رمسيس» فكانت البلاد كلها على قدم وساق منشغلة في أمور التحضير لذلك العيد، وهنا بدأت زوجة ذلك الموظف وابنته في التردد على المخازن في «طيبة» وفتحها وتفريغ محتوياتها لنقلها إلى المخازن الخاصة بذلك الموظف في واقعة سرقة علنية، وبالفعل أُدينت تلك السيدة ومثلت العائلة أمام المحكمة، وعلى الرغم من إدانة الوثائق لذلك الرجل بجزء من المسروقات التي وجدوها بحوزته فكان دفاعه عن نفسه غريبًا بعض الشيء؛ فقد أنكر كل التهم، واتهم هيئة الحراسة بذلك لينضم أفرادها إلى القضية التي تضخمت حتى لفتت انتباه «رمسيس» نفسه، فأرسل ابنه «رمسيس» الصغير ولي العهد وقتها ليشرف على سير التحقيقات بنفسه لتحقيق العدالة الناجزة السريعة، وعلى الرغم من انقطاع المصادر التاريخية بعد شهادة ذلك الرجل إلا أننا يمكننا أن نستنتج أن تدوين تلك الجريمة قد نتج عنه عقوبة قاسية كما اقتضت قوانين ذلك العصر ليتم رد ما سُرِق مع تطبيق عقوبة رادعة في نفس الوقت لمنع تكرار هذا الأمر، ومع نهاية فترة حكم «رمسيس» يستقر المنصب في نهايةعصر «رمسيس» بين يدي موظف يُدعى «نفر رنبت».

«رمسيس» وملكاته

منذ بداية عهده نجد أن «رمسيس» كان يولي اهتمامًا غير عادي لثلاث نساء في حياته؛ أولهن هي أمه الملكة «تويـتويا» والتي تغير اسمها بعد ذلك إلى «موت تويا» ليقترن اسمها باسم الإلهة «موت» زوجة «آمون» إله الإمبراطورية، هذه المرأة الهادئة ابنة القائد العسكري «رويا» التي تزوجها «سيتي» وهو لا يزال ضابطًا في الجيش المصري، وعاشت معه حياة النبلاء، ثم الملكات مع تتويج «سيتي»، هذه السيدة التي أنجبت لـ«سيتي» ابنته الكبرى «ثيا» التي تزوجت من موظف «ثيا» هو الآخر كُرِّم بمنصب رفيع في القصر مع تولي «سيتي» عرش مصر، وكان أحد معلمي أخيها الصغير الأمير «رمسيس» الذي سيصبح «رمسيس الثاني» فيما بعد، ومن ثَمّ ابنة أخرى أصغر وهي «حنوت مي رع» التي صورت مع أمها على تمثالها الشهير الموجود بالفاتيكان حاليًا. أما عن دور الملكة الأم فكان أول الأدوار المهمة التي لعبتها في حياة ابنها «رمسيس» هو اختيار حريمه ورفيقات حياته ملكات المستقبل وهما «نفرتاري» و«آست نفرت»؛ زوجاته الرئيسيتان وهو لا يزال في سن صغيرة، وقد اختلفت الآراء حول أصول هاتين الملكتين تحديدًا، فنجد أن هناك أسطورة متداولة في النوبة حتى الآن تقول: إن «رمسيس» أعجب بابنة أحد زعماء النوبة في حروبه هناك فتزوجها، وأن هذه الزوجة هي «نفرتاري»، بينما الوقائع التاريخية والآثار والنصوص التي تركها «رمسيس» نفسه تؤكد استحالة ذلك؛ لأن زواجه من «نفرتاري» كان في حياة والده «سيتي» وهو في سن صغيرة، كما أن تصوير «نفرتاري» في الآثار التي شيدها من أجلها لا يدل على أصول أو إشارات نوبية على الإطلاق سواء لون البشرة أو الملامح، وعلى أغلب الظن فإن اختيارات زوجات «رمسيس» من المؤكد أنها وضعت مسقط رأس العائلة (شرق الدلتا) في الحسبان وعلى الأرجح كانت واحدة منهن «نفرتاري» أو «آست» نفرت من تلك المنطقة إلا أنه حتى الآن لا يوجد لدينا أدلة تؤكد أو تنفي ذلك.

منذ البداية كانت «نفرتاري» هي الزوجة المفضلة لدى «رمسيس» والتي ظهرت بجواره في مراسم تتويجه ونشاطه في أعوامه الأولى بل إن واحدًا من أعظم آثاره في «أبو سمبل» تضمن معبدًا صغيرًا مكرسًا لـ«نفرتاري» بجوار معبده الكبير هناك.

وحتى مع توقيع معاهدة السلام، فنجد أن مراسلات القصر الملكي المصري مع الجانب الحيثي قد تضمن رسائل من الملكة الأم «تويا»، وكذلك «نفرتاري» مما يظهر مدى أهميتهما داخل القصر والدور السياسي الذي لعبتاه في عصر «رمسيس»، كذلك وُجِد على الساحة وبقوة حتى تلك الفترة الأمير «آمون حر خبش إف» ولي العهد وأكبر أبناء «رمسيس» من زوجته «نفرتاري» الذي شارك بدوره دبلوماسيًا فنجد رسائل موجهة باسمه إلى الجانب

الحيثي هو الآخر.

بداية من العام (٢٢) وحتى العام من حكمه (٢٥) تلقى «رمسيس» ضربتين موجعتين غيرتا مجرى حياته إلى الأبد، كانت الأولى في العام (٢٢) مع رحيل أمه الملكة المعظمة «تويا» إلى الغرب الجميل ودفنها بيده في مثواها الأخير في المقبرة التي أشرف على تنفيذها بنفسه في «وادي الملكات» المقبرة التي ستحمل رقم (٨٠) في العصر الحديث، ليقلق راحتها ويخرجها منها المفسدون في الأرض كما أخرجوا من قبلها، فلا يتبقى من تلك الدفنة العظيمة شيء سوى غطاء وعاء «كانوبي» الذي كان يستخدم لحفظ أحشاء الملكة يحمل ملامحها، وبقايا مهشمة من تابوتها الحجري، ومع إعادة استخدام المقبرة في عصور لاحقة حتى العصر القبطي فقدت المقبرة معظم مناظرها، لتطوي صفحة أخرى من صفحات «حياة «رمسيس» الحافلة.

أما الضربة الثانية الموجعة فكانت مع حلول العام (٢٥) من حكمه؛ وفاة «نفرتاري» حب حياته ورفيقة عمره عقب افتتاح معبد «أبو سمبل» بقليل مباشرة ليدخل «رمسيس» في طور الخمسينيات من عمره فاقدًا لأقرب الناس إلى قلبه، أشرف على دفنها بنفسه كما فعل مع أمه، ولكن هذه المرة وعلى الرغم من سرقة مقبرتها وكنوزها وحتى تدمير مومياتها وفقدانها إلى الأبد حفظ لنا الزمن مقبرتها الرائعة التي تقع في «وادي الملكات»، وحملت الرقم (٦٦)، وتقع شمال مقبرة أمه الملكة «تويا».

تلك المقبرة كانت حتى الآن واحدة من أعظم المقابر التي شيدت في تاريخ مصر بأكمله لامرأة، ظهرت فيها «نفرتاري» بهيبتها الرقيقة في مناظرها في حضرة الآلهة بطريقة فنية مذهلة لم تضاهيها؛ أي مقبرة في الوادي بأكمله، وكان هذا هو الأثر الوحيد الذي شيده «رمسيس الثاني» وخلا من أي صور له!

لم يصوِّر «رمسيس» ولا مرة على جدران مقبرة «نفرتاري»؛ لأنه وعلى ما يبدو أنك تخوض رحلتك في العالم الآخر وحيدًا حتى تجتاز أهواله لتلقى أحبابك في النهاية، وقد تركت لنا تلك المقبرة بصمة أحد العمال المشاركين في المشروع بعدما استند بأصابعه إلى سقف المقبرة أثناء عمله على إحدى السقالات بالداخل فانطبعت على السقف، وبقيت حتى الآن، كذلك فإنها احتوت على لفز كبير؛ وهو (المقبض؟) الصغير الذي حمل خراطيش وأسماء الملك «آي» ذلك الموظف والقائد العسكري الإخميمي الذي أصبح ملكًا بعد وفاة توت عنخ آمون، هل كانت «نفرتاري» إحدى حفيداته البعيدات؟ لا يوجد لدينا أكثر من هذه القطعة الذي لا تعطى أي معلومات على الإطلاق، وربما لن نعلم سر وجودها بالمقبرة أبدًا(131).

لم تكن مقبرة «نفرتاري» بوادي الملكات هي الأثر الوحيد الذي صنعه ذلك الزوج المحب لحبيبة العمر، ففي بلاد النوبة استهل «رمسيس» سلسلة مشروعات على نطاق ضخم كان من أهمها «معبدا أبي سمبل»، فمنذ البداية كان اختيار الموقع له ظروف خاصة، فكان هناك هذان الجبلان؛ وهما جبل «محا» الذي يتجلى فيه الإله «حورس محا». والجبل الجنوبي «إبشك» الذي تتجلى فيه «حتحور» سيدة «إبشك».

ومن هنا نشأت الفكرة في نقر المعبدين في أحضان صخور هذه الجبال المقدسة، ليتجلى «رمسيس» في تلك المنطقة كرسالة منه للمحليين كما اعتداد أباطرة مصر سابقًا في النوبة منذ زمن بعيد.

«أبو سمبل».. معجزات الإشراقات والتجليات

كعادة آثار النوبة كان معبدا أبي سمبل منقورين بالكامل في الصخر في أحضان الجبل الكبير مكرس لـ«رمسيس» يتجلى فيه كالإله «رع حور آختي»، والصغير تتجلى فيه «نفرتاري» كالنجمة «سبدت» والإلهة «حتحور»، وقد كانت خطة «رمسيس» لهذا المعبد مذهلة فملأه بالألغاز والتجسدات التي لم نفهم الكثير منها حتى يومنا هذا.

على أية حال دعنا نحاول إلقاء نظرة خاطفة سريعة على ما فعله «رمسيس» في «أبو سمبل».

ما إن تقع عيناك على المعبد الكبير والذي يقع جنوبًا بداخل الجبل الذي تحل فيه روح الإله «حورس» سيد منطقة «محا»، والذي تطل واجهته ناحية الشرق في اتجاه الشمس المشرقة، حتى ترى بالأعلى إفريزًا عليه (٢٢) تمثالًا لقرد بابون ممكن يهللون للشمس عند شروقها، يمثلون ٢٢ ساعة من ساعات اليوم يضاف إليهما ساعة للشروق وأخرى للغروب لتكتمل عدد ساعات اليوم الـ (٢٤).

وبالأسفل نرى ألقاب وأسماء «رمسيس الثاني» كما أراد أن تظهر واضحة محفورة في الصخر وأسفلهم التماثيل العملاقة بالغة الفخامة لـ«رمسيس»، وهو جالس، حمل كل واحد منهما اسمًا يعبر عن تجلياته وتحولاته؛ فمن اليمين «مري أتوم» (محبوب آتوم)، «مري إمن» (محبوب آمون)، «حكا تاوي» حاكم الأرضين (مصر)، «رع إن حكاو» والتي يمكن أن نترجمها ضمنيًا (شمس الحكام).

وبينهم في تجويف طولي يقف الإله «رع حور آختي» يستقبل الشمس المشرقة حاملًا في يديه علامتي «وسر» (القوة)، و«ماعت» (العدالة والاتزان الكوني)، وفوق رأسه قرص الشمس (رمز الإله رع).. مهلًا هناك رسالة خفية في هذا التصوير يمكننا قراءتها «وسر ماعت رع».. اسم «رمسيس» شخصيًا!! تجلٍ آخر من تجليات «رمسيس» ورسائله الخفية بينما على الجانبين «رمسيس» نفسه يقدم الابتهالات لـ«رع حور آختي» الذي تجلى من خلاله «رمسيس» نفسه.. لم يكن هذا التجلي هو الأول من نوعه؛ ففي العاصمة سيعثر عالم الآثار «بيير مونتييه» على تمثال آخر لطفل ملكي في حماية إله الأرض الكنعاني «حورون» المتخذ هيئة الصقر، يعلو رأس الطفل قرص الشمس (رع) ويمسك بعلامة (سو) بينما الطفل نفسه يرمز إلى كلمة «مس» مولود لتتضح رسالة خفية أخرى؛ حيث إن التمثال نفسه يمكن قراءته «رع مس سو» وهو اسم «رمسيس»!!

أما بالداخل وعلى كل جانب فنجد تماثيل لـ«رمسيس الثاني» في الهيئة الأوزيرية (هيئة

الإله أوزير) يداه متقاطعتان على صدره بينما يزين جدران تلك القاعة العديد من المناظر، أهمها يوم «قادش» على الجدار الشمالي، حملت توقيع النحات الذي صنع المنظر، ويدعى «بياي».

زُيّنت جدارن المعبد في قاعاته حتى قدس الأقداس بالعديد من المناظر لـ«رمسيس» في حضرة الآلهة ووسطهم حتى نصل إلى قدس الأقداس لنجد منظرًا آية في الغرابة فالقدس يحمل أربعة تماثيل جالسة:

من اليمين «رع حور آختي» كبير آلهة «هليوبوليس»، ثم «رمسيس» نفسه، ثم «آمون رع» سيد «طيبة» وإله الإمبراطورية، وفي النهاية بجواره الإله «بتاح» سيد مدينة «منف» ورب الحرفيين.. تباينت التفسيرات في تفسير تلك الظاهرة العجيبة الفريدة من نوعها، ومما لا شك فيه أن هذا القدس كان يرمز له أحد تجليات «رمسيس» هل كان يجسد هنا الإله «ست» إله مسقط رأسه في الدلتا؟ فكما فعل يوم «قادش» وحملت فيالقه أسماء الآلهة الأربعة الكبار «آمون»، «رع»، «بتاح»، «ست»، هل كان قدس أقداس «أبو سمبل» يرمز للأربعة الكبار أيضًا؟

ممايزيد الحيرة تلك الظاهرة الفريدة التي ارتبطت بذلك المعبد؛ وهي دخول الشمس إلى قدس الأقداس مرتين في العام، فمع حسابات صفوة الكهنة والمهندسين وجدوا أن الشمس تميل قليلًا في أشراقها كل يوم عند الاقتراب من مدارها الصيفي، بينما العكس (تميل جنوبًا) عند الاقتراب من مدارها الشتوي.

فما بين ١٠ يناير تضيء الشمس مع شروقها التمثال الأوزيري الأول بالصف الشمالي، وبين ٣٠ مارس تضيء الشمس مع شروقها التمثال الأوزيري الأول بالصف الجنوبي.

بينما الفترة الثانية لتلك الإشراقة في ١٠ سبتمبر ليضاء التمثال الأوزيري الأول جنوب الواجهة، و٣٠ نوفمبر تشرق الشمس على التمثال الأوزيري الأول شمالًا.

ليتوصل المهندسون إلى حقيقة مهمة؛ وهي أن الشمس ستعبر مباشرة إلى قدس الأقداس يومي ٢١ أكتوبر و٢١ فبراير من كل عام.

لتنفذ ظاهرة فريدة من نوعها تستمر لعشرين دقيقة تعبر فيها الشمس مسافة ٦٥ مترًا بداخل المعبد حتى قدس الأقداس لتضيء وجه «رمسيس» أولًا ومن ثم تشرق بنورها لتنير وجه «رع حور آختي» و«آمون رع» بينما يبقى «بتاح» في الظلام تطول الشمس كتفه الأيسر فقط ممثلًا للعالم السفلي المظلم.

هذه الظاهرة الفريدة (أو مجموعة الظواهر) لا تزال موضع حيرة العلماء؛ فهي ليست

بتجلٍّ واحد، وإنما هي مجموعة تجليات وظواهر مقصودة ليست في قدس الأقداس فقط بل في قاعات المعبد التي تصلها الشمس في مواعيد مختلفة من العام، وهي ليست بالغريبة على مصر وحضارتها التي ربطت منشآتها الدينية بظواهر كونية مرتبطة بالنجوم مثل: الشمس، والقمر، والانقلابات الصيفية والشتوية، وكلها من علوم كهنوت «رع» في مدينة «أون القديمة» (هليوبوليس) والتي حمل كبير كهنتها لقب «كبير الرائين».

أما تفسير ظاهرة دخول الشمس لقدس الأقداس تحديدًا في هذين التاريخين (٢١ أكتوبر، ٢١ فبراير) فهو محل جدل كبير بين العلماء، وهناك تفسير وجيه لتلك الظاهرة باعتبارها إعلانًا فلكيًا للمحليين؛ فيوم ٢١ أكتوبر هو أول يوم من أيام فصل «برت» (الشتاء والزراعة)، بينما ٢١ فبراير هو أول أيام فصل «شمو» (الصيف والحصاد) ليتم الإعلان عن تلك التواريخ بظاهرة فريدة ارتبطت بذلك المعبد، بالطبع هناك آراء أخرى تعترض على هذا الرأي استنادًا إلى أسس علمية، وآراء أخرى تفسر الظاهرة بشكل آخر جعل في النهاية صعوبة وضع تفسير علمي حاسم لتلك الظاهرة المقصودة.

أما أطرف المغالطات التي ارتبطت بتلك الظاهرة وهي زعم البعض أن هذين التاريخين هما تواريخ ميلاد الملك وتتويجه على العرش، ويبدو أن أصحاب هذا الرأي لديهم سجل خفي للمواليد في مصر القديمة عرفوا منه تاريخ ميلاد «رمسيس» بالتحديد!

ما بين أيدينا من المصادر التاريخية من عصر «رمسيس» نفسه أو حتى غيره لم تشمل أي سجل للمواليد وكذلك ف«رمسيس» نفسه لم يدوّن تاريخ ميلاده، ومن ثم فنحن لا نعرف متى وُلِدَ.

بينما وثائق عصر «رمسيس» تُخبرنا عن يوم تتويجه بالتحديد «اليوم السابع والعشرون، الشهر الثالث، فصل «شمو» (الصيف)؛ أي أن التتويج حدث في شهر يونيو.. فلا علاقة لتلك الظاهرة لا من قريب ولا بعيد بميلاد وتتويج الملك وقد استقت تلك الخرافة بكغيرها من الخرافات مصداقيتها من انتشارها فقط وليس من كونها معلومة صحيحة، لتنضم ومئات غيرها إلى سجل الخرافات المتعلقة بـ«رمسيس».

أما الرسالة الأخيرة في المعبد فكانت في مجموع عدد التماثيل العملاقة بالمعبد، فبالواجهة أربعة، يليها ٨ تماثيل أوزيرية داخل الصالة الأولى، يليها ٤ تماثيل بداخل قدس الأقداس ليبلغ مجموعها ١٦ وهو الرقم المثالي لمنسوب الفيضان المثالي (١٦ ذراعًا).

تجلي «نفرتاري» في «إبشك».. معبد «أبو سمبل» الصغير

في الشمال من المعبد الكبير، حيث تتجلى «حتحور» سيدة «إبشك» نرى المعبد الصغير المشيد «لنفرتاري» و«حتحور»، هذا المعبد الذي يمثل الجوهر الأنثوي الإلهي متحدًا مع «نفرتاري» التي تتجلى ك«سبدت» النجمة المعلنة عن قدوم الفيضان، وكذلك «حتحور» سيدة «إبشك» في المكان الذي كان المحليون يقدمون لها القرابين فيه.

واجهة ذلك الصرح تحوي ستة تماثيل، ثلاثة على جانبي المدخل؛ أربعة منها لـ«رمسيس» واثنان لـ«نفرتاري»، إذا دققنا النظر فسنجد أن التمثالين العملاقين على يمين ويسار المدخل يجمعهما إطار واحد يعلوه بروز صخري ربما كان يدعم رأس للإلهة «حتحور»، هذان التمثالان حمل كل منهما ألقابًا مركبة، فعلى اليمين شمالًا «رع إن حكاو، مرى أتوم» (شمس الحكام محبوب أتوم)، وعلى اليسار جنوبًا، فالتمثال يحمل اسم «حكا تاوي مري إمن» (حاكم الأرضين محبوب آمون)، وهي نفس الأسماء التي حملتها الأربعة تماثيل بواجهة المعبد الكبير! كما أن ملامح التماثيل التي تشير إلى الشباب ترجح أن العمل بدأ أولًا في المعبد الصغير تحت إشراف «إيوني» نائب الملك في «كوش» وقتها، ومن ثم تطبيق نفس الفلسفة على نطاق أوسع في المعبد الكبير.

عكست تماثيل الواجهة تجليات «رمسيس» التي أرادها لنفسه فمن يمين المدخل نجده متوجًا في هيئة الإله «بتاح تا تنن»، ومن ثم بجواره «نفرتاري» تتجلى في هيئة الإلهة «حتحور» بجمال فوق الوصف بجوارها «رمسيس» متوجًا بالتاج المزدوج، وعلى يسار المدخل نجد «رمسيس» بتاج الجنوب، ثم «نفرتاري» مرة أخرى»، ثم «رمسيس» متوجًا بتاج الجنوب مرة أخرى في تمثال أطول من سابقه المشابه له إشارة إلى تجليه في شكل الإله «أوزير» نفسه و«حعبى» روح الفيضان.

بداخل المعبد تبدو اللمسة الأنثوية واضحة بالأعمدة الحتحورية (المزينة برأس الإلهة حتحور) في تجليات الآلهة الأنثوية في مصر القديمة، وزينت الجدران بتقدمات للإلهة «حتحور» سيدة «إبشك» وللآلهة المختلفة الذين يعطون «رمسيس» القوة والسلطان، أشهر تلك المناظر كان تتويج «رمسيس» بين الإلهين «حورس محا» و«ست»، وكذلك «نفرتاري» بداخل قدس الأقداس؛ وهي تقدم القرابين لـ«حتحور» في هيئة البقرة المقدسة.

أما أجمل تلك المناظر على الإطلاق فكان تتويج «نفرتاري» على يد «آست» (إيزيس عظيمة السحر أم الإله)، و«حتحور سيدة إبشك» بينما «نفرتاري» تتألق وسطهما ممسكة بعلامة «عنخ» الحياة وباليد الأخرى الصلاصل، تنظر للأمام في اتجاه المدخل باعتبارها

تسكن المعبد وتتجلى فيه بجوار الآلهة.

حقًا كان معبدا «أبو سمبل» هما سلسلة متواصلة من تجليات «رمسيس» و«نفرتاري» حملت في جوهرها معظم الكيانات الإلهية لتحل في «رمسيس» و«نفرتاري» معًا بلمسة مقدسة مع الكثير من الرسائل الخفية تعكس مكانتهما بوصفهما ملك وملكة مصر المتوجين، يمكننا أن نعتبر معبدي «أبو سمبل» أيضًا تجسيدًا لروابط الأسرة بين «رمسيس» وعائلته التي كانت تماثيلها في كل مكان سواء كانت أمه «تويا» أو زوجاته وأبناؤه فتماثيلهما موضوعة أسفل أقدام التماثيل العملاقة بواجهة المبنيين.

أما أهم رسائل المعبد الصغير فكان ذلك النص الرقيق الذي كرس به «رمسيس» المعبد لزوجته «نفرتاري» باعتباره الأثر العظيم الذي أهداه لزوجته الملكية العظمى «نفرت إرى» (وبن رع إم إس) يشرق «رع» لأجلها أو بتعبير آخر التي تشرق الشمس لخاطرها.

انتهي من العمل في «أبو سمبل» مع حلول العام (٢٤) من حكم «رمسيس»، وحان وقت افتتاحه، وقد أشرف على آخر مراحله النائب الجديد بالنوبة وهو «حقا نخت»، وقد صاحب «رمسيس» في تلك الرحلة الطويلة إلى «أبو سمبل» «نفرتاري» ومعها ابنتهم البكرية «ميريت آمون»، وعلى ما يبدو فإن الأميرة حلّت محلّ أمها في المراسم التي كانت تجاوزت الأربعينيات من عمرها، ويبدو أن صحتها كانت في تدهور، إذ نفترض أن «نفرتاري» ربما رأت الواجهة وهي في قاربها من بعيد، ولم يتسنّ لها رؤية المشهد بالكامل، وقد خلد «حقا نخت» الافتتاح بلوحة نحتت في قلب الصخر تمثل «رمسيس» و«ميريت آمون»، وهما يتقدمان بالقرابين لـ«آمون» و«رع»، بينما «حقا نخت» نفسه يقدم الهبات إلى «نفرتاري» التي لم تظهر مرة أخرى في سجلات عصر «رمسيس» بعد تلك السنة لترحل عن عالمنا في بيت أبديتها الجميل الذي شيده لها زوجها المحب في «مكان الجمال» (وادي الملكات).

زلزال يضرب «أبو سمبل»

بحلول العام (٣١) تقريبًا إذا بكارثة تضرب المنطقة فيظهر الجبل الشامخ «محا»، تتلاعب به الهزة الأرضية، يعقب ذلك صوت دوي هائل مع سقوط أحد تماثيل الواجهة (الثالث من على اليسار) المسمَّى «حكا تاوي» لينشطر إلى نصفين ويقع على الأرض لتتحطم معه عضادة بوابة الدخول بينما ذراع التمثال العملاق شمال المدخل وقعت هي الأخرى، أما في الداخل فالوضع يسوء فالأعمدة تتصدع يتحطم منها العامود الثاني والتمثال الملكي بالجناح الشمالي وغيرها من الأضرار التي ما إن صمت الزلزال وانقشع الغبار ليظهر المعبد الكبير في أسوأ حال، وكان نائب الملك وقتها هو شخص يُدعى «باسر» (باسر آخر يحمل نفس اسم الوزير الشهير)، والذي بدأ أعمال الترميم على الفور وأمكنه استعادة وترميم ما دمره الزلزال باستثناء تمثال الواجهة الذي تحطم نصفه ووقع على الأرض عجز «باسر» ومهندسوه عن فعل أي شيء حياله فتركه كما هو أمام المعبد حتى يومنا هذا، وبحلول العام (٣٣) تقريبًا أصبح المعبد في حال جيدة مرة أخرى، ليعفى بعدها «باسر» من مهامه، ويظهر على الساحة نائب جديد وهو «حوى» الذي رافق العروس الحيثية إلى أرض مصر الذي لم يمضِ سنوات طويلة في الخدمة هو الآخر ليستقر المنصب أخيرًا في يد موظف شاب يدعى «ستاو» سيكون له الفضل في إنجاز عدد كبير من مشروعات «رمسيس» لإنشاء المعابد في النوبة.

وبنهايةعصر «رمسيس» ستكون معابده في النوبة بجانب معبدي «أبو سمبل»، هم: «بيت الوالي»، «الدر»، «وادي السبوع»، «جرف حسين»، «أكشا»، بالإضافة إلى إضافاته في معبد جبل البركل، ولوحة «كوبان» الشهيرة من العام الثالث، والتي تذكر نجاح معجزة حفر بئر مياه ليروي عطش عمال المناجم وغيرها الكثير.

وعلى مدى ألف عام بأكملها لم يشيد في النوبة أي معبد بعد عصر «رمسيس الثاني».

«آست نفرت» أم الملك

أما ثالث النساء في حياة «رمسيس» بعد أمه و«نفرتاري» فكانت رفيقة عمره الثانية «آست نفرت»، والتي كانت في الظل طوال فترة حياة «نفرتاري» كونها زوجة رئيسية، فلم تحظَ بنفس الاهتمام الكافي، ولم تظهر جوار زوجها بوصفها ملكة مصر مثل «نفرتاري»، إلا أن هذا الوضع قد تغير فبعد العام (٢٤) من حكم «رمسيس» ومع وفاة «نفرتاري» أصبحت «آست نفرت» هي الزوجة الملكية الرئيسية، مع ملكات ثانوية كان أولهن ابنتها «بنت عنات»؛ وهي كبرى بنات «رمسيس»، وكذلك «ميريت آمون» كبرى بنات «نفرتاري» من «رمسيس»، ويبدو أن ترقية «ميريت آمون» كانت لمحة على توهج «نفرتاري» حتى بعد وفاتها ولو حتى على سبيل الذكرى المتمثلة في ابنتها الملكة الجديدة، إلا أن هذا الوضع لم يدم طويلًا هو الآخر، فمع انضمام ابنة «خاتوسيل» إلى حريم «رمسيس» يبدو أن «آست نفرت» قد توفيت بدورها ما بين العام (٣٣-٣٤)، ولحقتها «ميريت آمون» لتظهر ملكات أخرى في حياة «رمسيس»، وهن الملكة «نبت تاوي» والتي ربما كانت ابنته من «نفرتاري»، وأخيرًا «حنوت مي رع» أخته الصغرى لينتهي ذكر الملكات الكبرى في حياة «رمسيس» مع أبناء ذكور يقدرون بالعشرات، منهم أولياء عهد كلهم من أبناء «نفرتاري» و«آست نفرت».

والمثير للعجب في هؤلاء النساء جميعًا نجد أن من حاز على أعظم الآثار في عصر «رمسيس» كانتا «نفرتاري» و«ميريت آمون»، أما ابنتا «موتالي» الاثنتان اللتان تزوجهما «رمسيس» فلم يُعثر على مقابرهما، وكذلك وبغرابة شديدة كما عاشت «آست نفرت» في الظل توفيت في الظل هي الأخرى، فلم يعثر على مقبرة لها حتى يومنا هذا، إلا أن الحديث عن هذه المرأة لم ينتهِ بعد؛ فقد كان تأثيرها يفوق تأثير جميع النساء في حياة «رمسيس»، وكانت هي الفائزة بكل شيء مع تربُّع ابنها «مري إن بتاح» على العرش خلفًا لـ«رمسيس» في نهاية المطاف.

أبناء «رمسيس»

أنجب «رمسيس» العديد من الأبناء والبنات يفوق عددهم المائة، وهو أمر طبيعي مع طول فترة حكمه وازدهارها وعدد زوجاته ومحظياته الكثيرات، وقد شغل أبناؤه العديد من المناصب المؤثرة في الدولة المصرية، كما لعبوا أدوارًا في حياة أبيهم ومعاركه، ومع طول فترة حكم أبيهم وعمره المديد تشعبت أدوارهم كثيرًا، ولكنها غيرت مصير ولاية عرش مصر أكثر من مرة لتصبح النتيجة النهائية على النحو الآتي:

«آمون حر خبش إف»: أكبر أبناء الملك الذكور على الإطلاق، ابن نفرتاري، ولي العهد الأول.

«رمسيس»: ثاني أكبر أبناء «رمسيس»، ابن «آست نفرت»، ولي العهد الثاني.

«خع إم واست»: رابع أكبر أبناء «رمسيس»، ابن «آست نفرت»، ولي العهد الثالث.

«مرنبتاح»: الابن الثالث عشر لـ«رمسيس»، ابن آست نفرت، ولي عهد ومن ثمّ ملك.

لغز المقبرة رقم ٥

مع توافد الأجانب وظهورهم على الساحة المصرية في عصر «محمد علي باشا» ظهر بينهم الإنجليزي «جيمس بيرتون» الذي وصل إلى مصر في عام ١٩٢٠، ودعاه الباشا بنفسه خبيرًا في علم المعادن بوصفه جزءًا من عملية مسح جغرافي ومعدني في مصر، وعلى الرغم من عدم وجود أي معرفة له بعلم المعادن تحققت الدعوة، وسرعان ما ترك «بيرتون» ذلك الاتجاه، واتخذ مسلكًا آخر وهو الهوس بالآثار المصرية خاصةً في «طيبة» والتي كانت مثل عموم البلاد مرتعًا للأجانب يفعلون بآثارها ما يشاءون، على أمل من الباشا أن تتحسن علاقة مصر بالقوى العظمى في ذلك الوقت لتساعد مصر على نهضتها في ذلك العصر.

تعددت أسفار «بيرتون» في «طيبة»، وكان من هواة عمل الخرائط للمواقع الأثرية التي كان يمر بها أو حتى يشارك في أعمال الحفائر بها، ومع حلول العام ١٨٢٥، وجد «بيرتون» مدخل مقبرة في وادي الملوك حصلت وقتها على الرقم (٥) بوادي الملوك، والتي ما إن دخلها «بيرتون» وجدها في حالة غاية في السوء مملوءة بالحطام والرديم الناتج عن الفيضانات التي تحدث نادرًا بالوادي، كان «بيرتون» أول شخص يدخل ذلك المكان منذ آلاف السنين واستكشف الغرف الأمامية بتلك المقبرة حتى توقف عند غرفة أكبر بها صالة أعمدة مكونة من ١٦ عامودًا، على الرغم من عثور «بيرتون» على خراطيش الملك «رمسيس الثاني» بداخل المقبرة إلا أنه لم يكمل العمل بها لاقتناعه بعدم أهمية هذه المقبرة وصعوبة الوصول لأبعد من ذلك بها مع حالتها السيئة وممراتها المسدودة، فترك توقيعه بداخل المكان، وقام بعمل خريطة للجزء الذي قام باستكشافه، ثم ترك المكان كما هو ورحل ليكمل أعماله في مكان آخر.

مع ظهور «هوارد كارتر» على الساحة في وادي الملوك وبعد أكثر من ٧٥ عامًا من زيارة «بيرتون»، كان «كارتر» ثاني شخص يحاول استكشاف تلك المقبرة، ولكن واجهته نفس الصعوبات التي واجهت «بيرتون» مع ظنه هو الآخر بعدم أهمية تلك المقبرة، ولكنه قام بشيء آخر حيث استخدم المقبرة مكانًا للتخلص من نفايات الحفر التي قامت بها بعثته، والتي أدت في النهاية لاكتشافه مقبرة الملك «توت عنخ آمون»، وخلدت اسمه في التاريخ للأبد.

نتيجة لفعلة «كارتر» وبمرور الزمن اختفى مدخل المقبرة رقم (٥)، وعملت رمال الوادي التي تراكمت فوقها مرة أخرى على ابتلاعها لتعيدها إلى غياهيب النسيان مرة أخرى، باستثناء الإشارات البسيطة التي نتجت عن أعمال الحفائر السابقة والخريطة التي تركها «بيرتون» للمقبرة.

ومما زاد من الحيرة بخصوص تلك المقبرة أن هناك مقبرة أخرى في الوادي قد حملت أسماء وخراطيش الملك «رمسيس الثاني»؛ وهي المقبرة رقم (٧)، والتي لا تبعد عن رقم (٥) بكثير، ليجد علماء الآثار أنفسهم أمام لُغز مُحيِّر تركه لهم «رمسيس» منذ آلاف السنين، هل كانت له مقبرتان بالوادي؟ ولماذا؟

«كنت ويبكس».. المقبرة المفقودة

في عام ١٩٧٨ سيؤسس عالم الآثار الأمريكي «كنت ويبكس» بجامعة بيركلي كاليفورنيا، مشروعًا سيسمى « مشروع التوثيق الخرائطى لطيبة»(132). وانتقل «د.ويبكس» نفسه إلى مصر عام ١٩٨٥ لينضم إلى هيئة التدريس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كان الغرض من المشروع هو عمل خرائط آثارية لوادي الملوك وتوثيقها، ومع الوعود والأحلام التي يقدمها مجال المصريات باكتشافات مذهلة كان «ويبكس» على موعد مع اكتشاف مهم هو الآخر.

مع استخدام السونار والرادار في موسم ١٩٨٥-١٩٨٦، كشف «ويبكس» عن المقبرة رقم ٥ مرة أخرى ليعيد تسليط الضوء عليها مرة أخرى، وبدأ العمل في الموسم التالي للحفائر مع رغبة الحكومة المصرية في توسعة الطريق السياحي الذي احتلته أكشاك بائعي الهدايا التذكارية التي نُقِلت من موقع المقبرة بأمر من الحكومة المصرية لتبدأ رحلة «ويبكس» مع المقبرة رقم ٥.

في الفترة ما بين ١٩٨٧ وحتى منتصف التسعينيات أدرك «ويبكس» أنه في المقبرة التي زارها وثقها «بيرتون» من قبل، وأصبحت مهمة حل لغز المقبرة التي تحمل اسم «رمسيس الثاني» على عاتقه.

كانت المهمة غاية في الصعوبة مع الأضرار التي تسبب مرور الحافلات السياحية فوق المقبرة لزمن طويل، مع أطنان الرديم داخل المقبرة بدأ العمل في بطء داخل المقبرة التي وُضِع مصد للفيضان عند مدخلها، وكذلك تعديمها من الداخل والخارج لتمكين البعثة من استكمال الحفائر التي كشفت عن أمور ستتداولها وكالات الأنباء في السنوات التالية.

العام (٢٩)، الشهر الأول من فصل «شمو» (الصيف)، اليوم (١٦).

«بيان من العامل «با إن عنقت» إلى الكاتب «آمون نخت» ورئيس العمال «خونسو»: أنتم رؤسائي... أنا لن أرى الدمار في الأماكن العظيمةفي الأعماق (المقابر)، وأخفي الخبر، الآن فإن «وسر حات» و«بن تا ور» حفروا نفقًا أعلى مقبرة الملك الأوزير (المتوفى) «وسر ماعت رع ستب إن رع» الإله العظيم، ورئيس العمال«با نب أبي» جعل رجالًا يفعلون نفس الشيء، بينما «قننا» ابن «روتا» فعل الشيء نفسه، وحفر نفقًا أعلى مقبرة الأبناءالملكيين للملك الأوزير «وسر ماعت رع ستب إن رع» الإله العظيم».

(بردية تورين التي سجلت الإضراب العمالي في عصر الملك «رمسيس الثالث»)(133).

مع المكتشفات التي حدثت بالمقبرة والتي أشارت إلى أسماء بعض أبناء «رمسيس الثاني»

أدرك «ويبكس» سر المقبرة الذي أكده النص المذكور بالأعلى، هذه كانت المقبرة التي قام «رمسيس» بتشييدها في الوادي لدفن أولاده كثيري العدد، وغبْر داخل المقبرة على أسماء الأمراء «آمون حر خبش إف» ولي العهد وأكبر أبناء «رمسيس»، الأمير «سيتي»، الأمير «ميري أتوم»، الأمير «رمسيس»، ومن المثير للحزن أن تلك المقبرة قد نهبت بعد مرور أقل من ٥٠ عامًا من وفاة «رمسيس الثاني»، وتحديدًا في عصر الملك «رمسيس الثالث»(134).

ومع هذه التأكيدات طار الخبر وبسرعة لوكالات الأنباء العالمية لتعلن الكشف عن المقبرة رقم ٥ بالوادي التي كرست لأبناء الملك «رمسيس الثاني»، والتي لا تزال أعمال الحفائر قائمة بها في محاولة للبحث عن غرف الدفن، ومن ثم العثور على مومياوات الأمراء التي يبشر العمل بالمقبرة أنها ربما لا تزال بالداخل.

وكالعادة بدأت الأصوات العبرانية في (حشر) نفسها في المشهد، مع تلميحات من د.«كنت ويبكس» نفسه أن العهد القديم قد ذكر من ضمن قصة النبي موسـ موت ابن الملك الأكبر كونها واحدة من الضربات العشر لمصر، ومن ثم فالعصور على مومياء ولي العهد «آمون حر خبش إف» بداخل المقبرة وفحصها ربما يؤكد القصة، وعندها سيتغير الواقع الأثري المصري الذي لم يذكر ولا مرة أو حتى يلمح لوجود النبي «موسى» بمصر أو حتى دخول وخروج العبرانيين منها، وقد استغل د.«ويبكس» هذه النقطة الدعائية لضمان تمويل جيد للبعثة.

مع توالي مواسم الحفائر فشلت البعثة في العثور على غرف الدفن داخل المقبرة ولكنها عثرت على شظايا جمجمة في غرفة حملت رقم ٢ بالمقبرة، هيكل عظمي كامل مدفون بقاع حفرة بداخل المقبرة وثلاث جماجم أخرى بالإضافة إلى بقايا بعض المقتنيات التي زودتنا بأسماء الأمراء المذكورين بالأعلى، هذه الاكتشفات التي لم تحقق الآمال العريضة من جميع الاتجاهات لم تلبث أن تبخر معها الحلم العبراني في تشويه «رمسيس الثاني» مرة أخرى كالعادة، وينتهي فصل آخر من صراع مطاردة اليهود لـ«رمسيس».

بمرور مواسم الحفائر بدأ الانتباه حول المقبرة يقل رويدًا رويدًا، خاصةً مع عدم العثور على أي كنوز بالمقبرة أو دفنات سليمة لم تمس، وتوقفت أعمال الحفر في عام ١٩٩٧، لتستكمل في العامين ٢٠١٢ ثم ٢٠١٥.

أما أبرز نتائج هذا الكشف فكانت إثبات أن هذه المقبرة هي أضخم مقبرة شُيّدت بالوادي على الإطلاق بمجموع غرف يتجاوز المائة وخمسين غرفة، يتوسط أحد تقاطع ممراتها تمثال لـ«رمسيس الثاني» في هيئة الإله «أوزير» قاضي الموتى وسيد العالم السفلي، وكأنه يستقبل أولاده الأحباء في مملكة الخلود بنفسه ليضمن لهم طريقًا آمنًا إلى الخلود، كما أثبتت الكشوف

أيضًا أن طراز تنفيذ المقبرة مطابق لطراز مقبرة الملكة «نفرتاري» بوادي الملكات وهي المقبرة الأروع على الإطلاق في تلك المنطقة؛ مما يرجح أن فريق العمال الذي نفذ مقبرتها قام بتنفيذ مقبرة الأبناء هو الآخر.

هكذا كان تكريم «رمسيس» لأبنائه الكثر الذين تُوفوا واحد تلو الآخر في حياته حتى تولى الابن رقم ١٣ «مرنبتاح» الذي كان تعدى الستين عرش مصر خلفًا لأبيه.

«آمون حر خبش إف»

منذ بداية عهده بزغ نجم بعض الأمراء والأميرات بالاسم، وكان على رأسهم ابنه الأكبر وولي عهده الذي وُلد باسم «آمون حر ونم إف» ثم غير اسمه إلى «آمون حر خبش إف»، ثم مرة أخيرة إلى «ست حر خبش إف»، وهو أمر مألوف تكرر من قبل مع «رمسيس» نفسه عند تتويجه، وكذلك مع ابن آخر لـ«رمسيس» الذي غيّر اسمه من «آمون إم ويا» إلى «ست إم ويا»، وقد سبب تغيير ذلك الأمير لاسمه حيرة بين العلماء حتى وقت قريب لاعتقادهم بأنهم أشخاص مختلفة حتى توصلوا إلى كونهم نفس الشخص ولكن بأسماء مختلفة، وقد اقترن اسم ذلك الأمير في بداية حياته بأخيه الأصغر «خع إم واست»، وظهرا وقت طفولتهما على جدران معبد بيت الوالي، ومن ثم في «قادش» حتى قاد «آمون حر خبش إف» فرقة من فرق الجيش بنفسه عندما شارك والده في قمع ثورات «مؤاب» و«إدوم»، ثم رسالته إلى «خاتوسيل» في أعقاب معاهدة السلام.

«لقد أرسلت الهدايا إلى أبي (يقصد خاتوسيل)، وكانت موقعة باسمه الأخير الذي عرف به «ست حر خبش إف» ثم مع حلول العام (٢٥) من حكم أبيه يلحق هذا الأمير بأمه «نفرتاري» إلى العالم الآخر ليضاف إلى سجل آلام «رمسيس» فردًا آخر مهمًا من عائلته بعد أمه و«نفرتاري»، ويدفن في المقبرة رقم ٥ في وادي الملوك.

«رمسيس» الصغير

ثاني أبناء «رمسيس» الذكور والابن البكري للملكة «آست نفرت»، وقد وُلِد هذا الأمير في حياة جده «سيتي الأول»، وظهر في موكب النصر بعد معركة «قادش»، وحمل لقب الكاتب بالقصر الملكي، قائد الجيش، ومع حلول العام (٢٥) من حكم أبيه وبوفاة أخيه الأكبر «ست حر خبش إف» نجد أن هذا الأمير قد أصبح ولي العهد الجديد، وسيشغل هذا المنصب حتى العام ٥٠ من حكم أبيه ليتوفى هو الآخر بدوره، ويُدفن مع أخيه «آمون حر خبش إف» في المقبرة رقم ٥ بوادي الملوك.

«با رع حر ونم إف»

ذلك الأمير الذي كان لا يزال صغيرًا في ميدان معركة «قادش»، وهو الذي أبعد أفراد العائلة الملكية بعيدًا عن المعسكر، ومن ثم أرسل مع الوزير المرافق للجيش لاستعجال قدوم فرقة «بتاح» إلى «قادش»، ويبدو أن دور هذا الأمير في أرض المعركة كان أكبر من ذلك؛ لأننا نجد أن «رمسيس» أعطاه بعدها لقب «أول شجعان الجيش» (أشجع شجعان الجيش)، ثم أصبح مشرف إسطبلات (أي: مشرفًا على الخيول)، ومن ثم القائد الأول لعجلة جلالته الحربية، وكلها ألقاب عسكرية كما نرى، وقد كان ذلك الأمير ابنًا آخر للملكة «آست نفرت» إلا أنه توفي في نهاية الأمر قبل إخوته المذكورين سابقًا فلم ينصب وليًا للعهد، ولم نعثر حتى الآن على أي دليل حاسم على مكان دفنه سواء بالمقبرة رقم ٥ بوادي الملوك مع إخوته أو أي مكان آخر.

«خع إم واست».. أنجب الأبناء

لم يوجد بين أبناء «رمسيس» وبناته من هو في علم ومكانة ذلك الأمير الذي أصبح أسطورة بعد وفاته، الأمير «خع إم واست» والذي يعني اسمه (المشرق في طيبة) هو ثالث أكبر أبناء «رمسيس» وأنجحهم على الإطلاق، ولد في عصر جده «سيتي» من الملكة «آست نفرت»، وقد حمل ذلك الاسم تيمنًا بجده المدعو «خع إم واست» شقيق «رمسيس الأول»، منذ البداية، وكان «رمسيس الثاني» يشركه معه جنبًا إلى جنب، فظهر كما ذكرنا سابقًا وهو طفل في معبد بيت الوالي يرافق أباه وأخاه الأكبر «آمون حر خبش إف»، وهم لا يزالون أطفالًا، وكان نهاية عهده بالجندية مع حملة «إيرم» جنبًا إلى جنب مع أخيه الأصغر منه «مرى إن بتاح» الذي يقاربه في العمر، وبعد سجل حافل من الحضور بنفسه في أرض معارك مثل «دابور» أو مواكب النصر لـ«قادش»، قرر «خع إم واست» أن وهب نفسه لخدمة الإله «بتاح» في معبده بمدينة «منف» العريقة وهو لا يزال في العشرينيات من عمره، وهناك حمل لقب كاهن «سم» وهو اللقب الذي يؤهل صاحبه ليكون «عظيم مشرفي الحرفيين»، أو كما نعرفه اليوم (كبير كهنة الإله بتاح)، ليستقر هذا الأمير في «منف» في رعاية كبير كهنتها المدعو «حوى»، ليبدأ رحلة طويلة في خدمة ذلك الإله سيختمها بحمله لقب كبير كهنته يومًا ما.

يبدو أن «خع إم واست» لم يجد نفسه في سلك الجندية، وفضل العلوم عليها وقد أثبت ما فعله لاحقًا صحة هذا الافتراض، فمنذ انضمامه إلى كهنوت الإله «بتاح» في «منف»، بدأ «خع إم واست» في التبحر في العلوم المصرية القديمة والاطلاع على النصوص المقدسة حتى أصبح من صفوة علماء عصره، ومع بداية خدمته للمعبد كان في غاية النشاط والإخلاص، إلا أن أشهر ما تميز به هذا الأمير كان هوسه بالآثار المصرية لأسلافه، وفي قصة الأمير «خع إم واست» الكثير من النزاهة والاحترافية فنجده يلتحق بالسلك الكهنوتي في حوالي العام السادس عشر من حكم والده ليحصل على لقب كاهن «سم» وما بين العامين (٤٥، ٤٦) من حكم والده يُنصب كبيرًا لكهنة «بتاح» في «منف»؛ مما يعني أن هذا الأمير قد أفنى عمره يتعلم ومرّ عليه ثلاث رءوس كهنوتية في المنصب، وهم «حوري»، ثم «باحم نتر»، ثم «ديديا» حتى جاء عليه الدور بعدما أصبح مؤهلًا ليتولى المنصب الكهنوتي الأعظم بـ«منف» عن جدارة واستحقاق تامّين.

تميز عصر «رمسيس الثاني» بمزية لم تتكرر كثيرًا في تاريخ مصر وهي الاهتمام بآثار من سبقوا، ويبدو أن واقعة ترميم «رمسيس» لآثار أبيه وآثار الملوك السابقين ومقابر الأسلاف في «أبيدوس» في بداية حكمه قد تركت أثرًا في نفس «خع إم واست» منذ الصغر، فكان هذا التوجه هو شغفه الذي تحول إلى هوس بعد ذلك، فبدأ مشروعًا واسعًا لترميم الآثار،

وكانت أكبر وجهة له هي جبانة مدينة «منف» الواقعة غرب المدينة على الضفة الأخرى من النيل وتحديدًا سقارة، وهناك يبدو أنه تأثر بالحالة السيئة التي كانت عليها تلك الآثار وأطنان الرمال التي غطتها، وهذا أمر ليس بالغريب، فقد كان هناك أثر مثل الهرم المدرج للملك «زوسر» يعد أيضًا أثرًا في عصر «رمسيس الثاني» مرّ على بنائه ما يزيد على الألف عام، وكذلك الحال لمعظم أهرامات تلك المنطقة، وهنا قرر «خع إم واست» أن يكون أول عالم مصريات في التاريخ.

يبدو أن هذا التوجه قد نال إعجاب «رمسيس» كثيرًا، فبمقتضى مرسوم ملكي تشكل (فريق علمي) برئاسة «خع إم واست» لدراسة تلك الآثار وترميمها بالشكل اللائق الذي يُظهر احترام «رمسيس» لهؤلاء الملوك العظماء، وبالفعل بدأت أعمال الترميم بالمنطقة وقد اتبع «خع إم واست» أسلوبًا ثابتًا في تلك العملية؛ وهو نقش أسماء الملوك أصحاب الآثار على سطحها مُصاحبًا لاسم «رمسيس الثاني» مع نص شبه ثابت:

(كبير كهنة الإله «بتاح»، كاهن «سم» الأمير «خع إم واست»، خلد ذكر الملك (فلان)، والذي لم يكن اسمهمنقوشًا على هرمه»(135).

ليصنع بذلك أول بطاقات تعريف بالآثار في التاريخ أيضًا، وقد شملت مشروعات «خع غم واست» ترميم الهرم المدرج للملك «زوسر»، ومصطبة الملك «شبسسكاف»، والمجموعات الهرمية للملوك «أوناس»، و«ساحو رع»، «ني وسر رع»، ثم هضبة الجيزة حيث الأهرامات الثلاث، ونقش هناك بطاقة تعريفية على هرم «خوفو»، ذكر «هيرودوت» وجودها، بل إن النص المحفور على هرم الملك «من كاو رع» والذي لا يزال موجودًا حتى الآن يعتقد أن من حرره هو الأمير «خع إم واست» بنفسه، بالإضافة إلى ذلك فقد انتشل التماثيل من الرمال ورمّمها وأعاد إحياء ذكرى أصحابها وتكريمهم، وقد ظلت تلك العملية مستمرة طوال حياة «خع إم واست» نفسه حتى مع ترقيه لمنصب «كبير كهنة بتاح» لاحقًا، ولولا هذه الترميمات لفني الكثير من تلك الآثار وفقدناها إلى الأبد؛ فقد كانت من الجودة أنها جعلت تلك الآثار تتحمل عصورًا طويلة لاحقة من النهب والتخريب والتدمير المتعمد لتبقى ويبقى أسماء أصحابها ومعهم «رمسيس» وابنه النبيل عالم المصريات «خع إم واست».

وقد اشتملت مهام الأمير كذلك التجهيز لعيد «سد» (عيد اليوبيل الثلاثينـ حب سد)؛ وهو ذلك العيد الذي كان يقام (في الغالب) كل ثلاثين عامًا؛ حيث يُعيد فيه الملك تجديد شبابه وحيويته، ومن ثم حيوية أرض مصر كلها في طقوس شديدة التعقيد بالغة الطول كان يجري التجهيز لها لمدة عام كامل، وقد احتفل «رمسيس الثاني» بالعديد من أعياد «سد» كان أولهم في العام الثلاثين من حكمه، أعقبها أعياد أخرى كانت تُقام كل ثلاثة أعوام وأحيانًا كل

عامين ليصل عدد اليوبيلات التي احتفل بها «رمسيس» إلى ثلاثة عشر وهو أكبر رقم مسجل لملك مصري في التاريخ، أشرف على خمسة احتفالات، منها الأمير «خع إم واست» بنزاهة وإخلاص.

العجول المقدسة والسرابيوم

في مصر القديمة كانت تجليات الإله وصوره وأشكاله متعددة إلى درجة بالغة التعقيد في بعض الأحيان، وقد كانت تلك الفلسفة تشمل التجسيد المادي في بعض الأحيان ـإن جاز التعبيرـ فالعجول المقدسة هي في بعض الأحيان «كا» (الكا هي قوى الحياة ـ القرين) أو «با» (البا يمكن أن تترجم إلى روح) الإله، ومن أشهر تلك التجسيدات في مصر القديمة كان العجل «باخ» (بوخيس)؛ تجسيد الإله «مونتو» الصقر إله الحرب في مدينة «أرمنت»، وكذلك العجل «مر ور، نم ور» (منفيس)؛ وهو تجسيد الإله «آتوم رع» في مدينة «آون» القديمة (هليوبوليس ـ عين شمس)، وكان ذلك العجل يُختار بناءً على شروط خاصة وعلامات مميزة، ويُربّى مع أمه والتي تعتبر هنا تجسيدًا للإلهة البقرة السماوية «حسات»، ويعاملون معاملة خاصة حتى الوفاة، وبعدها يدفن ذلك العجل في مراسم وطقوس خاصة، ويُختار عجل آخر بنفس المواصفات لتتكرر تلك العملية، إلا أن عجل «هليوبوليس» لم يكن أشهر العجول في مصر القديمة؛ فقد أتى ثانيًا بعد عجل آخر ارتبط بالأمير «خع إم واست».

في مدينة «منف» كان تجسيد الإله «بتاح» هو العجل «حبـ حبو»، والذي نعرفه اليوم باسم العجل أبيس، وهو بجانب أدوار مقدسة أخرـ كان تجسيدًا للإله «بتاح» نفسه، وقد كان ذلك العجل ذا مواصفات خاصة كما ذكر «هيرودوت»؛ فالبذرة التي أتى منها هي صاعقة من صواعق البرق، أسود اللون مُحلًّى بالأبيض بلا شعيرات حمراء، يتوج جبينه شامة مثلثة (جوهرة) بيضاء، وعلى أكتافه شامة أخرى لطائر العقاب وهلال على جانبه، تحت لسانه علامة تُشبه الجعران المقدس، وذيل مقسوم شعيراته من المنتصف.

يُختار ذلك العجل بواسطة هيئة كهنوتية رفيعة من معبد «بتاح»، ومن ثم ينقل إلى مكان جُهِّز له خِصّيصًا هو وأمه سيربى فيه حتى وفاته، ومن ثم يُدفن، ويُختيار عجل آخر بنفس المواصفات، فيبقى على ظهر الأرض دومًا عجل واحد يمثل الإله «بتاح».

بعد وفاته يُحنّط بأفضل أشكال التحنيط وأجود أدواته، ويحنط مثل البشر باستخراج أحشائه ووضعها في (الأواني الكانوبية)، ومن ثم تكفينه وتزيينه بالحلي والتمائم مع قناع ذهبي أو مُذهّب، ومن ثم دفنه في تابوت جرانيتي ضخم(136).

عثر في جبانة «سقارة» على دفنات للعجل «أبيس» تسبق عصر «رمسيس الثاني»، وكانت عبارة عن دفنات تحت الأرض يعلوها نصب مقوس أو مقصورة صغيرة مكرسة للعجل الذي دُفِن، ومع ظهور الأمير اللامع «خع إم واست» في وسط كهنوت الإله «بتاح» تحولت تلك الدفنات إلى إنجاز لم يتكرر في الحضارة المصرية القديمة، فقد قرر الأمير تقديرًا للإله

«بتاح» أن يقوم بحفر نفق في الصخر تحت الأرض لتدفن العجول المقدسة بها واحد تلو الآخر في غرف جانبية يدفن العجل في واحدة منها ومع وفاته يبدأ العمل بحفر غرفة مجاورة للعجل الجديد انتظارًا لوفاته، ما فعله هذا الأمير حول مدافن العجل «أبيس» إلى أسطورة حقيقية مع إتمامه لمعبد كبير كرسه لـ«أبيس» نفسه، هذه الإنجازات ألهمت حتى الملوك الذين تلوا «رمسيس» على العرش ليستمر إرث «خع أم واست» لآلاف الأعوام بعد رحيله عن عالمنا، فنجد أنه بالفعل بعد ألف عام من وفاته سيقوم «بسمتك الأول» (الأسرة السادسة والعشرون) ببناء نفق جديد لدفن العجول المقدسة (وهو المتاح للزيارة حاليًا)، ويشيد الملك «نخت نب إف الأول» (نختنبو الأول) معبدًا جديدًا لـ«أبيس» زين الطريق إليه بـ٦٠٠ تمثال لـ«أبو الهول» برأس آدمية، وفي العصور اليونانية الرومانية نجد أن العجل «حبو» قد أصبح «أوزير حبو» (أوزوريس أبيس) والذي عرف باسم «سيرابيس»، ومن ثم أتى من ذلك الاسم «سرابيوم»، والذي لا يزال يُطلق على مدافن العجول المقدسة حتى الآن.

أما رسالة الأمير «خع أم واست» للأجيال التالية فدوّنها بنفسه وعلى لسانه على جدارن معبد «أبيس» الذي شيده:

«كاهن «سم» الأمير «خع إم واست» يقول: يا كهنة «سم»، يا كبار الكهنة، ويا كل كاتب كبير، ويا كل من يشاهد هذا المعبد الذي بنيته محفورًا في الجدران الحجرية، تطوعًا مني بشيء عظيم مفيد، لم يصنع مثله من قبل، ومن يحترم غيره يكافأ ويسعد! تذكروا اسمي وأنتم تحكمون مستقبلًا على هذه الأعمال، كافئوا العمل الصالح بما هو أهله، ولتفعلوا مثله»(137).

مع حلول العام (٥٠) من حكم «رمسيس» يُتوفى الأمير ولي العهد «رمسيس الابن» ليصبح الأمير «خع إم واست» هو ولي العهد القادم وهو يقترب من الستين من عمره، وبعد مرور خمس سنوات فقط، وفي العام (٥٥) من حكم والده يرحل أعظم أبناء «رمسيس الثاني» عن عالمنا، وأعظم الأمراء في تاريخ مصر بعد خدمته للإله «بتاح» بإخلاص لأكثر من أربعين عامًا، لينصّب أخوه الأصغر «مرنبتاح» والابن رقم ١٣ لـ«رمسيس الثاني» وليًا للعهد وقد اقترب من الستين هو الآخر، ولكن يا ترى أين كان مثواه الأخير؟

هناك شبه إجماع من علماء المصريات أن هذا الأمير الاستثنائي دفن بسقارة وسط عجوله المفضلة وفي رحاب الإله «بتاح» الذي أفنى عمره في خدمته.

ما بين عامي ١٨٥١ و١٨٥٣ كشف عالم الآثار الفرنسي «أوجست مارييت» في أثناء تنقيبه داخل «سرابيوم» سقارة على العديد من اللوحات الجنائزية الخاصة بالعجل «أبيس»، وكذلك

تمثال ضخم له نُقِلت جميعًا إلى متحف اللوفر في فرنسا، ولكن كان أهم ما عُثر عليه وهو دفنة بها تابوت خشبي مُهشَّم يحوي ما يشبه بقايا مومياء آدمية!

كانت تلك الدفنة تقع خلف صخرة انهارت فوق النفق الذي شيده «خع إم واست» لتخفي ذلك الجزء من النفق ليبقى سليمًا كما هو لم تطلْه أيدي اللصوص، ولما قابل «ماريت» الصخرة فجّرها باستخدام الديناميت ليعثر على الدفنة خلفها ومعها المومياء، كانت تلك المومياء معها حلي وتمائم تحمل اسم الأمير «خع إم واست»، بينما المومياء على وجهها قناع ذهبي خشن الصنع، تقترب ملامحه من ملامح هذا الأمير اللامع.

اعتقد «ماريت» وقتها أنه عثر على مدفن الأمير وقد فقدت تلك المومياء التي لم تكن بحال جيدة، ولم تخبرنا السجلات عنها شيئًا بعد اكتشافها على يد «ماريت»، واختفت في ظروف غامضة، إلا أن الكشوفات الأثرية بالسراييوم قد عثرت على دفنات مشابهة بنفس الأسلوب، وكانت عبارة عن راتنج عطري مخلوط ببعض العظام دُفِن في هيئة آدمية خُصّصت للعجول «أبيس» السابع والتاسع؛ وهو ما يخبرنا عن معلومة أخرى غاية في الأهمية وهي أن العجل لم يكن يُحنَّط بالكامل بل بعض بقاياه، أما لحمه فكان يُؤكل كونه نوعًا من أنواع التبرك، كذلك تخبرنا تلك الدفنة أنها ربما كانت أيضًا لعجل «أبيس» آخر حمل قناعه الذهبي ملامح الأمير نفسه ليعبر عن امتزاجه بالعجل المقدس ومن ثم بالإله «بتاح» نفسه الذي كان هو كبير كهنته، وقد أشار عالم الآثار الإنجليزي «إيدان دودسون» إلى أن تلك الدفنة كانت خاصة بالعجل الذي حمل الرقم (١٤)، ليبقى حتى يومنا هذا سر ذلك الأمير ما بين ثنايا أرض مصر حتى كتابة هذه السطور دون أي تأكيدات على مكان دفنه، هو وأخواته الأميرات الإناث باستثناء اللائي أصبحنَ ملكات ودُفِنّ بوادي الملكات، والكثير من إخوته الأمراء وكذلك أمه «آست نفرت»، ليضافوا إلى قائمة أسرار العصر الاستثنائي لابن مصر البار «وسر ماعت رع ستب إن رع»(138).

إرث «خع إم واست»

أنجب «خع إم واست» ثلاث مرات؛ الأول مولود أسماه «رمسيس» تيمنًا بأبيه، والثاني «حوري»، والثالث كان ابنة أطلق عليها «آست نفرت» تيمنًا بأمه، كان الأمير «خع إم واست» بلا شك هو الأجدر والأمثل لخلافة ملك عظيم مثل «رمسيس الثاني»، بل إننا نجد أن ابن «خع إم واست» والذي حمل اسم «رمسيس» أخذ لقب «ابن الملك من صلبه» في إشارة إلى أنه حفيد «لرمسيس»، ولكن مع وفاة «خع إم واست» يختفي أثر ابنه الذي كان مقدرًا له أن يكون ملكًا فلم يحظَ بها مثل أبيه.

أما من حمل إرث «خع إم واست» فكان ابنه «حوري» الذي تولى منصب «كبير كهنة الإله بتاح في منف» خلفًا لأبيه ليخدم الإله «بتاح» بإخلاص هو الآخر حتى يرحل عن عالمنا بعدما أنجب ابنًا أطلق عليه أيضًا «حوري» (حوري الثاني) والذي سيصبح وزيرًا لمصر حتى عصر «رمسيس الثالث» لتبقى ذرية «خع إم واست» في خدمة البلاد بعد ما يقارب ستين عامًا من رحيل «رمسيس الثاني».

مع هذه الأحداث الكثيرة التي أعقبت وفاة «نفرتاري» نجد أنه في النهاية من كان الأنجب والأجدر بخلافة «رمسيس» هم أبناؤه من «آست نفرت»، فلم تُنجب «نفرتاري» من الأبناء النبغاء سوى «آمون حر خبش إف» وهو أول وآخر ولي عهد من أبنائها، ومعه الأمير «با رع حر ونم إف» أشجع شجعان الجيش، أما آخر أهم أبنائها فكان الأمير «مري آتوم» الذي سيشغل منصب كبير كهنة الإله رع في عين شمس بل إنه أشرف على دفن عجل «منفيس» تجسيد الإله «آتوم رع»، وكان تحت يديه السلطان والإمكانات أن يسلك نهج أخيه، ولكنه لم يقترب أبدًا مما أنجزه «خع إم واست» ابن «آست نفرت» في منف، أحب «رمسيس» زوجته «نفرتاري» كما لم يحب رجل امرأة ولكنه أعطى فرصًا متساوية لجميع أبنائه وبناته وذكرهم بالاسم على آثاره في تقليد لم يفعل مثله بهذا الكم ملك من قبله، في النهاية كان النبوغ من نصيب أبناء «آست نفرت» التي حظيت بثلاثة أولياء عهد لعرش «رمسيس» في مقابل واحد لـ«نفرتاري» وتوج في النهاية ابن «آست نفرت» التي ربما تبتسم في قبرها المجهول في مكان ما من أرض «طيبة»!

---

126 عبد الحليم نور الدين، اللغة المصرية القديمة، الطبعة الثالثة ص ١٠٧.

127 https://www.osirisnet.net, Rekmire Tomb TT100, Autobiography of the Vizier Rekhmire,

The duties of the Vizier, PP1:14.

128 https://www.osirisnet.net, Rekmire Tomb TT100, PP1:14.

129 كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة ص٣٢٧.

130 عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة ج٢ ص ١٢.

131 Macdonald, John (1992), In the Tomb of Nefertari: Conservation of the Wall Paintings, P43.

132 Weeks, Kent (1998). The lost tomb.

133 Edgerton, William F., The Strikes in Ramses III's Twenty Ninth Year, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 10, No. 3 (Jul., 1951), pp. 137-145, The University of Chicago Press.

134 Reeves, Wilkinson, The Complete Valley of the Kings. P144:146.

135 كنت كتشن، "رمسيس" فرعون المجد والانتصارات ص١٥٥.

136 https://www.louvre.fr/en/oeuvre_notices/apis_bull

137 كنت كتشن، "رمسيس" فرعون المجد والانتصارات ص ١٥٢.

138 Dodson, Aidan (1999), Canopic Equipment from the Serapeum of Memphis, PP65:69.

الفصل السادس: رمسيس وعائلته والمفسدون في الأرض

عودة ملك.. (با رعمسو يعود إلى أرض الوطن)

٢٦ أكتوبر ٢٠٠٣

كرنفال!

هذا ما يمكننا أن نصف به ذلك المشهد باختصار، حديقة المتحف المصري تعج بالسائحين من مختلف الجنسيات، فرقة الموسيقى العسكرية تعزف بلا انقطاع بينما لافتة إعلانية كبيرة على مدخل المبنى تصور مومياء مصرية ترقد في سلام، يتوافد الزوار إلى الداخل في أعداد كبيرة حتى ليبدو للناظر أن المتحف لن يستوعب كل هذه الأعداد!

بينما تنتهي الفرقة الموسيقية من عزف «وطني حبيبي، الوطن الأكبر»، تعالوا نعُد بالزمن لساعات قليلة:

في الليلة السابقة في مطار القاهرة تصل طائرة من طراز «إير فرانس» والتي ما إن تستقر على المهبط وتبدأ في التوقف حتى يكون في استقبالها حشد من كبار رجال الدولة المصرية وقطاع الآثار يتقدمهم رئيس المجلس الأعلى للآثار وقتها «د.زاهي حواس»، يبدو المشهد شبيهًا باستقبال مومياء «رمسيس» في فرنسا في السبعينيات، والحقيقة أن هذا صحيح، إنهم في استقبال ملك آخر!

وليس أي ملك فهو من لولاه لما أتى «رمسيس الثاني» إلى الوجود.

ما إن يخرج الصندوق الذي يحتوي المومياء الملكية الثمينة حتى يطلق «د. زاهي» تصريحه: «نحن ندعو الجميع للقدوم إلى المؤتمر الصحفي ليروا وجه الملك عندما يشتم هواء القاهرة لأول مرة!».

ما إن تدخل من المتحف المصري يوم المؤتمر الصحفي ستجد مئات الزوار داخل مبنى المتحف في كل مكان وحتى الأدوار العلوية اصطف الزائرون في كل مكان بها ليشاهدوا الكشف عن وجه الملك لأول مرة بعد عودته من رحلة طويلة، وهناك في منتصف القاعة المواجهة للمدخل مباشرة ووسط حشد من المسئولين يقوم «زاهي حواس» بإزاحة علم مصر من فوق الصندوق الذي يحتوي على المومياء، لنجد خراطيش ملكية كتبت خصيصًا بالخط الهيروغليفي على الصندوق لتخبرنا عن صاحب المومياء، «رع مسو»، «من بحتى رع» (رمسيس، الدائم في قوته هو رع)، إنه «رمسيس الأول» قائد الجيش العظيم الذي أصبح ملكًا، جد بطلنا «رمسيس الثاني».

ما إن ينكشف غطاء الصندوق حتى تدوي الموسيقى الحماسية، ويصاحبها التصفيق والصفارات من الجمهور لتحية ذلك الجد العظيم يبدأ المصورون في التقاط الصور للمومياء والتى ما إن ينكشف وجهها حتى يقوم «د.زاهي» بإعطائه تحية بيده في إحترام وتقدير(139).

ألمانيا والهوس بـ«نفرتيتي»

في عام ١٩٨٥ كان مشاهدو القناة الألمانية الثانية على موعد مع برنامج في غاية التشويق، ظهر تتر البرنامج معلنًا «نفرتيتي في نياجرا فولز!»، ومع هوس الألمان بـ«نفرتيتي» تحديدًا كان ذلك كافيًا لنجاح هذا البرنامج مهما كان ما سيتناوله.

تصدّر المشهد في تلك الفترة المهندس الألماني «مينهارد هوفمان» والذي أعلن عن مفاجأة تفيده بعثوره أخيرًا على مومياء ملكة مصر «نفرتيتي» والتي لم ينجح أحد في العثور عليها خلال عشرات الأعوام من البحث.

بدأت القصة في منتصف الستينيات عندما زار «هوفمان» متحف «نياجرا فولز» (شلالات نياجرا) والذي كان يعد متحفًا متواضعًا يعرض «غرائب الطبيعة» تشمل الرءوس المنكمشة المجلوبة من الأمازون ونماذج محنّطة أو محشُوّة لحيوانات ذات تشوهات عجيبة، وفي ركن بعيد، ومن ضمن المعروضات بعض التوابيت المصرية القديمة وكذلك المومياوات.

لفتت إحدى المومياوات انتباه «هوفمان» بشكل كبير، فقرأ على بطاقة العرض المتحفية أن هذه المومياء تخص إحدى زوجات الملك «إخناتون»، ومن ثم هناك احتمال لا بأس به أن تكون هذه مومياء الملكة «نفرتيتي».

ظلت هذه الخاطرة تجول بذهنه لفترة طويلة من الزمن، ولكنه لم يعلن عنها إلا في منتصف السبعينيات مع قراءته المتأنية لتاريخ مصر القديم، كانت أولى نقاط بحث «هوفمان» أن المومياوات الملكية المصرية الخاصة بالإناث تكون مُحنّطة بحيث تكون اليد اليسرى متقاطعة على الصدر.

مع تردد «هوفمان» على متحف «نياجرا فولز» سرعان ما تبخرت أحلامه عندما فحص المومياء، ووجد أن ذراعيها ممتدتان للأمام؛ أي أنها ليست مومياء ملكية بأي حال من الأحوال.

وعلى الرغم من ذلك لم ينل اليأس منه حيث لاحظ أن هناك مومياء أخرى بنفس المتحف تظهر فيها ذراعها متقاطعة على الصدر، وهنا نقل احتمالاته إلى تلك المومياء سريعًا، حيث قارن وجه المومياء مع رأس الملكة «نفرتيتي» الشهيرة في برلين ووجد من وجهة نظره تطابقًا كبيرًا بين المومياء والتمثال، وتحولت الفكرة في ذهنه إلى حقيقة يريد إثباتها.

بحلول عام ١٩٨٥ أقنع «هوفمان» المنتج الألماني «جونتر ألت» بفكرته، وقررا عرض برنامج يبث على القناة الثانية لكشف هوية «نفرتيتي» في متحف «نياجرا فولز»، وقد كانت آمال

«هوفمان» في السماء في ذلك الوقت؛ فالبرنامج سيعقبه كتاب، وسينال شُهرة وشعبة باعتباره حقق كَشْفًا لا مثيل له.

مع البث التلفزيوني للبرنامج ومتابعة ألمانيا لذلك الحدث، رافقه عالم المصريات الألماني «آرني إيجبرخت» وأمام الكاميرات قاما بإزالة الغطاء الذي يغطي المومياء ليكشفوها عاريةً على شاشات التلفاز.

على الرغم من كشفهما لحُزمة تلك المومياء وعرضها عارية، إلا أن أحلام «هوفمان» تبخَّرت للمرة الثانية عندما وجدا أن المومياء لها يدان متقاطعتان على الصدر وليس يد واحدة، والأهم من ذلك أن المومياء يظهر عضوها الذكري بوضوح! المومياء كانت لرجل وليس لسيدة!

ومن ثم يستحيل أن تكون هذه هي «نفرتيتي».

بشكل فوري استسلم «هوفمان» للأمر الواقع، ونُسِفت فكرته أمام الملايين الذي كان يظن أنه سيبهرهم بانتصاره، ولكن «هوفمان» كان عنيدًا إلى أقصى درجة، ويبدو أن هوسًا قد نشأ بينه وبين تلك المومياء، من خلال قراءته في علوم المصريات، كان يعلم أن المومياوات التي تتقاطع يداها على منطقة الصدر لها احتمالان لا ثالث لهما؛ الأول: أن تكون تلك المومياء لملك من الفترة الزمنية التي تسمى «الدولة الحديثة»؛ حيث كان ذلك الوضع حصريًا لملوك مصر، والثاني: أن تكون تلك المومياء من عصر احتلال الرومان لمصر؛ حيث كان ذلك الوضع شائعًا لتحنيط مومياوات العامة، ولم يعد قاصرًا على الملوك.

maktabbah.blogspot.com

انطلق «هوفمان» في رحلة بحث أخرى، وكلف محاميه بأن يصدر بيانًا عنه أنه عثر على مومياء ملكية من المومياوات المفقودة لملوك الأسرة ١٨ و١٩ المصرية، وحصر احتمالاته في ثلاثة ملوك هم: «آي» «حور محب» و«رمسيس الأول» جد «رمسيس الثاني».

بمساعدة خبير الأشعة والباحث «ولفجانج بال» الذي فحص العديد من المومياوات المصرية، ولديه خبرة سابقة بالموضوع، فحص «بال» المومياء بالأشعة السينية ليجد مفاجأة في انتظارهما، المومياء يوجد بداخلها لفائف من الكتان، وهو دليل كافٍ أن تلك المومياء تعود لعصور الاحتلال الروماني، حيث كان المحنِّطون يحنطون أحشاء المتوفى ومن ثَمَّ يلفونها بالكتان ويضعونها بداخل المومياء مرة أخرى، أما في العصور المصرية القديمة والدولة الحديثة فكانت الأحشاء تنتزع، وتوضع في أواني تسمى (الأواني الكانوبية)، بينما يوضع داخل القفص الصدري لفائف صغيرة من الكتان للمحافظة على شكل القفص الصدري واتساقه مع الجسد بوصفها نوعًا من أنواع التجميل.

على الرغم من ذلك فإن تلك اللفائف بداخل المومياء أكبر من أن تكون فارغة لو لفرض تجميلي، لذلك قرر «بال» أن تلك المومياء وبشكل قاطع تعود للعصر الروماني.

وللمرة الثالثة والأخيرة ينتهي حلم «هوفمان» عكس كل توقعاته، فيسحب التلفزيون الألماني التمويل، ويتوقف المشروع، بل إن تقرير «بال» لم يُلقِ أحد بالًا لنشره مع فشل عملية البحث.

المومياء لملك

يمضي الوقت ما بين شكوك متناثرة حول هوية تلك المومياء في الثمانينيات، ولكن لا وجود لأي عمليات بحث لاحقة حتى تغير كل شيء بحلول منتصف التسعينيات، يظهر على الساحة تاجر الآثار «بيل جيميسون» الذي يشتري مقتنيات المتحف بما فيهم المومياء وكذلك حقوق استخدام اسم المتحف.

وباستشارة من عالمة الآثار الكندية «جيل جيبسون» تُعرض مجموعة التوابيت والمومياوات المصرية للبيع بمبلغ ٢ مليون دولار أمريكي، وما إن تنتشر الأخبار حتى يفوز بالمقتنيات متحف «مايكل سي كارلوس» في أطلانتا بولاية جورجيا الأمريكية.

كانت «جيل جيبسون» قد أثار انتباهها المومياء في وقت سابق، وطلبت من عالم الآثار الإنجليزي «إيدان دودسون» إبداء رأيه في تلك المومياء وقد شك في وقتها أنها مومياء ملكية على الرغم من الأبحاث السابقة، انتشر الخبر ليصل إلى «سليمة إكرام» أستاذة المصريات الباكستانية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ليتكون فريق بحثي صغير منهم بصحبة «بيتر لاكوفارا» أمين متحف «مايكل كارلوس».

كانت الملاحظات المبدئية أن المومياء يُرجّح أنها لشخصية مهمة مع جودة التحنيط الفائقة وحالة المومياء، كما أن تحليل الحمض النووي يعتبر شبه مستحيل؛ لأن استخراج العينات من المومياوات المصرية له أثر شديد التدمير كما أن القاهرة اعتبرت وقتها أن الموضوع مجرد تكهنات ونوع من أنواع البروباجندا.

وهنا يظهر على الساحة اسم ارتبط بالمومياوات الملكية المصرية (ذكرناه من قبل في هذا الكتاب) وهو الطبيب الأمريكي «جيمس هاريس» الذي فحص المومياوات الملكية بالقاهرة باستخدام أشعة «إكس» في الستينيات.

انضم «هاريس» لفريق البحث، واعتمدوا هذه المرة على تقنية أحدث لفحص المومياء وهي تقنية CT SCAN والتي تعطي نتائج أكثر وضوحًا من أشعة «إكس»، وكذلك تستطيع تصوير المومياء من الداخل لتمكنهم من عمل رسم ثلاثي الأبعاد للمومياء بكل تفاصيلها.

كان العلماء في انتظار مفاجأة مدهشة مع ظهور نتائج فحص الأشعة المقطعية، الجمجمة ممتلئة بالراتنج الطبيعي وهو مادة باهظة الثمن استخدمها المصريون القدماء في التحنيط، ووجودها بهذا الشكل المكثف وبتلك الكميات في جمجمة الملك وكذلك في منطقة الصدر التي احتوت الراتنج وبنفس السخاء.

أما أهم الكشوف فكان اللفائف بداخل المومياء، فقد وجد فريق البحث أن تلك اللفائف فارغة من الداخل عكس ما توقعه «بال» عندما فحص المومياء وقرّر أن تلك اللفائف بداخلها الأحشاء الداخلية.

عاد الأمل مرة أخرى في احتمالية كون هذه المومياء لملك مصري، ومع وجود مرشحين كثيرين لم يُعثَر على مومياواتهم لعب «هاريس» دورًا مهمًّا في تحديد هوية المومياء.

عندما فحص «هاريس» المومياوات سابقًا كون قاعدة بيانات تحتوي ملامح وأبعاد جمجمة وجسد كل واحدة وقسمهم لمجموعات، وأدخل أبعاد المومياء المجهولة في قاعدة البيانات ليتوصل إلى نتيجة واضحة: هذا الرجل يمت بصلة قرابة للملك «سيتي الأول»، والملك «رمسيس الثاني»، وفي هذه الحالة المرشح الوحيد هو «رمسيس الأول».

مع هذه المعطيات الجديدة سيقوم متحف «مايكل كارلوس» بعمل معرض للملك ستعرض فيه المومياء بشكل يليق بجلالته في قاعة تحاكي جدرانها نقوش مقبرته رقم (١٦) الموجودة بوادي الملوك.

وفي لفتة غير متوقعة يتخلى المتحف عن المومياء لصالح المتحف المصري بالتحرير ليعود «رمسيس الأول» إلى أرض الوطن مرة أخرى بعد رحلة طيران فوق السحاب، وعلى الرغم من عودته إلا أن المومياء كان مقدرًا لها رحلة أخيرة لمتحف التحنيط بالأقصر.

ولكن يتبقى سؤال مهم: كيف انتهى الحال بمومياء ذلك الملك في كندا في المقام الأول؟

مصطفى أغا عياد

يجلس تاجر الآثار «بيل جيميسون» في مكتبه يطالع أوراقًا في غاية الأهمية وصلته من تاجر صديق، وبعد مطالعة سريعة لتلك الأوراق وَجَدَ نفسه أمام كشف مهم، هذه الأوراق كُتبت بخط الطبيب الكندي «جيمس دوجلاس» في أثناء رحلته إلى مصر بصحبة «سيدني باريت» ابن «توماس باريت» والذي كان أشهر شخصية مرتبطة بالمتحف وتجارة التحف في «نياجرا فلوز»، هذه الأوراق كانت يوميات «دوجلاس» أثناء سفرة وبها إشارة واضحة إلى تعامله مع تاجر الآثار «مصطفى أغا عياد» الذي باع له مومياء، وذكر «دوجلاس» أيضًا أنه اشترى العديد من المومياوات ليعرضها في شرفته الأمامية في زمن كانت المومياوات المصرية فيه تُباع وتُشترى ليجري عليها مزادات فك اللفائف فتجلب المومياء، ويُقام المزاد حتى يرسو على صاحب أعلى سعر وبعدها تفك اللفائف أمام الجمهور، أما تجارة «بني المومياوات» فحدِّث ولا حرج، فهو المسحوق السحري الذي استخدم في أغراض عديدة منها استخراج اللون البني ليستخدمه الرسامون أو حتى استخدام مسحوق تلك المومياوات في أغراض علاجية، إنها لمعجزة أن تنجو مومياء واحدة من أرض مصر لنراها اليوم.

لم يسمع «جيميسون» استطرادنا هذا؛ لذلك دعونا نكمل ما بدأناه، بعد تفكير عميق يبدأ «جيميسون» في ربط الخيوط ببعضها، هذه المومياء المذكورة في تلك المذكرات لا بد أن تكون تلك المومياء التي يعتقدون أنها لـ«رمسيس» الأول، هناك إشارة واضحة لـ«مصطفى أغا عياد» والذي من الواضح أنه حصل على المومياء من «الإخوة عبد الرسول» ومن ثم باعها لـ«جيمس دوجلاس».. هكذا إذا وصلت وصلت تلك المومياء لكندا!

يرسل «جيميسون» تلك الأوراق إلى فريق البحث لتكون أحد الأدلة المهمة التي حددت هوية مومياء «رمسيس الأول».

أنقذوا ملوككم.. الكهنة والخبيئة

لم يجلس على عرش مصر ملك بحجم «رمسيس الثاني» بعد وفاته، وعلى الرغم من فترة حكم مستقرة لابنه الملك «مرنبتاح» فأفول نجم مصر قد بدا واضحًا مع فترة تخبط انتهت بها الأسرة (١٩) تلك الأسرة التي بدأها «رمسيس الأول».

إلا أن قُبلة الحياة جاءت لمصر عندما تولى عرشها «رمسيس» آخر، وهو الملك «رمسيس الثالث» (وسر ماعت رع مرى إمن)، الذي اتخذ «رمسيس الثاني» قدوة له في كل شيء تقريبًا، فنجده مثل «رمسيس» اتخذ لقب «وسر ماعت رع» (القوي بماعت رع)، بل إنه أطلق على أبنائه نفس أسماء أبناء «رمسيس الثاني»، ولم يكن هذا التشبيه شكليًا فقط ولكن الأيام أثبتت أنه استحق هذا التشبيه عن جدارة، تغير العالم من حول مصر بشكل متسارع جعل فترة حكم «رمسيس الثالث» عبارة عن سلسلة حروب متواصلة، فظهر خطر يتشابه كثيرًا مع «المغول» كما حكى لنا عنهم التاريخ، هذا الخطر كان «شعوب البحر»، كما أطلق عليهم المصري القديم، أينما حلوا حلَّ الخراب، وأينما وطئت أقدامهم مكانًا فهو نهايته، بل إنهم دمروا إمبراطورية الحيثيين العتيدة التي كانت ندًا لمصر فترة طويلة من الزمن.

واجهت مصر خطر «شعوب البحر» في معارك حربية تزامنت مع غزو آخر لمصر جاء من ليبيا وفي كليهما نجح «رمسيس الثالث» في تحقيق انتصار ساحق سيجعل منه التجسيد الأخير للأسطورة المصرية «رمسيس الثاني»، ولتطلق عليه كتب التاريخ «آخر أبطال مصر».

على الرغم من هذا النجاح إلا أن وفاة «رمسيس» كانت نتيجة خيانة داخلية من قصره هو شخصيًا، فيما عرف بـ«مؤامرة الحريم» والتي انتهت بمعاقبة الجناة ولكن أيضًا بوفاة «رمسيس الثالث» ليعقبه على العرش ٨ ملوك آخرون كلهم حملوا اسم «رمسيس» تيمنًا بالجد الأكبر «رمسيس الثاني» ولكن فشل جميعهم حتى أن يكونوا ظلًا له على الرغم من أن ثلاثة منهم كانوا من أبناء «رمسيس الثالث» نفسه ولكن حتى هؤلاء فشلوا في أن يكونوا ولو صورة باهتة من أبيهم.

فمنذ وفاة «رمسيس الثالث» تعاقب على عرش مصر ملوك حكَمَ كلٌ منهم فترة وجيزة بينما كهنوت الإله «آمون» في الكرنك ثابت، فنجد ذلك الكاهن القوي «رمسيس نخت» جلس على عرش النبي الأول للإله «آمون» في الكرنك ليعاصر الملوك من «رمسيس» الرابع وحتى التاسع!

عاصر وحده ٦ ملوك، فبدا للناس أن عرش «آمون» ثابت، وعرش مصر تذروه الرياح.

تدهورت أحوال مصر، وانتشر الفساد حتى كانت الطامة الكبرى بدايةً من عصر «رمسيس

التاسع»، وبدأ حملة موسعة لسرقات مقابر وادي الملوك، وعندما جلس «رمسيس الحادي عشر» على عرش مصر، بدا وأن النهاية كتبت سطورها، فكهنوت «آمون» يتزايد نفوذه أكثر فأكثر، ويتزامن مع ضرب مصر في عام سُمّي «عام الضباع» وقتما حلّت مجاعة بكى فيها شعب جوعهم وفقرهم، بل إن علماء الآثار قد عثروا على سجل من التحقيقات القضائية في سرقات المقابر أكدت لنا أن نهب مقابر ملوك مصر العظماء قد أصبح فعلًا شائعًا لن تنجو منه مقبرة واحدة لملك كانت أو حتى لنبيل.

أطلقت رصاصة الرحمة ومع وفاة «رمسيس نخت» يتولى ابنه «أمنحتب» عرش النبي الأول لـ«آمون» في الكرنك ليظهر في جداريات المعبد مساويًا في الحكم لـ«رمسيس» التاسع، وليعلن وبكل وضوح أن الكهنة سيصبحون ملوكًا في العهد الجديد، ومع وفاة «رمسيس ١١» يعلن النبي الأول لـ«آمون» «حريحور» نفسه ملكًا في «طيبة»، بينما يدفن شخص آخر وهو «نس با نب جد سمندس» الملك «رمسيس ١١» في الشمال، ويعلن نفسه خليفته على العرش، لتنقسم مصر شمالًا وجنوبًا مرة أخرى، وتعود لنقطة الصفر التي كانت عليها في عصر الملك المؤسس «نعرمرمينا»، وليكن هذا فجر أسرة سميت بالأسرة ٢١.

telegram: @alanbyawardmsr

على الرغم من كل هذا إلا أن هؤلاء الكهنة كانوا رجال دين في المقام الأول، وكانت ديانة مصر القديمة تعد فيها الوطنية واحترام الأسلاف الآباء والأجداد العظام هي قمة التدين؛ لذلك نجد أن كهنوت الكرنك كان حريصًا على حماية إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مومياوات ملوك مصر والأسر الملكية، فتولوا مهمة نقل المومياوات إلى خبيئة الدير البحري.

وقد تكلّلت جهودهم بالنجاح ليحفظوا أسلافهم (وأسلافنا العظام) لتراهم وجهًا لوجه بعد مُضِيّ آلاف السنين، أما بطلنا «رمسيس الثاني» فقد دوّنوا بدقة شديدة ما حدث له وكيف انتهى به الحال بجوار أبيه «سيتي» وجده «رمسيس» في خبيئة الدير البحري.

دوّن الكهنة تقارير نقل المومياوات على التوابيت، وتركوا لنا على تابوت «رمسيس» ثلاثة تقارير: الأول يخبرنا عن نقل المومياء لمقبرة الملك «سيتي الأول» في وادي الملوك؛ وهو ما يعني أن مقبرة «رمسيس» قد نُهبت، والثاني والثالث لنقل مومياء «سيتي» و«رمسيس» إلى الدير البحرى؛ مما يعنى أن عملية الإنقاذ الأولى لم تفلح وأن مقبرة «سيتي» نهبت هي الأخرى، وتكللت جهودهم بالنجاح في الدير البحري لتظل الخبيئة في صمت الوادي يجتمع فيها شمل «رمسيس» وأبيه وجده لأول مرة منذ كانوا على قيد الحياة، حتى يعثر عليهم الإخوة عبد الرسول في ١٨٧١ ويبيعوا مومياء «رمسيس الأول» لـ«مصطفى أغا عياد» الذي باعها بدوره إلى «جيمس دوجلاس» والذي اشتراها لتُعرض في متحف «نياجرا فولز» في كندا.

يتبقى فقط أن نشير إلى أن وادي الملوك احتوى خبيئة ملكية أخرى في المقبرة رقم ٣٥، والتى تخص الملك «أمنحتب الثاني» والتي كان بها مومياوات لملوك آخرين أهمهم هو ابن «رمسيس» وخليفته «مرنبتاح»، وقد عثر عليها عالم الآثار الفرنسي «فيكتور لوريت» عام ١٨٩٨(140).

«أوزيمانديـاس».. ملك الملوك

لقيتُ رَجُالة قادمًا من بِلادٍ عَتيقة

قالَ لي: ثُمَّة ساقان حَجَريَّتان عِملاقتان لا جِذعَ فَوْقَهُما

تنتصبان في الصحراء. وقُرْبهما وَجْهٌ مُهَشَّم

نِصْفُهُ غارقٌ في الرمال، تَدُلُّ نَظْرَتُه

والتِواءُ شَفَتَيْه وتَغْبيرُ السَّيطرةِ الباردة البادية عليه

أنَّ النحاتَ أجادَ إدراك كُنْه تلك المشاعر

التي ما تزالُ باقية، مطبوعة على هذا الجَماد

اليَدُ التي سَخِرَتْ منها والقلبُ الذي رعاها.

وعلى القاعدة تَظْهرُ هذه الكلمات:

«اسمي أوزيمانديـاس، مَلِكُ المُلوك:

انظرْ إلى مُنجزاتي أيها الجبار وابتئِس!»

ولا شيءَ باقٍ بجانبه، وحول خَرَاب

ذاكَ الحُطام الهائل، عارية وبلا حدود

تمتدُّ الرمالُ المنعزلة والمستوية على مَدِّ البَصَر

(الشاعر الإنجليزي بيرسى شيلي ١١ يناير ١٨١٨)(141).

تحت الشمس الحارقة في البر الغربي، وسط رمال الصحراء وأطلال آثار كانت عظيمة يومًا ما، يجلس رجل ملتحٍ حاد النظرات على رأسه عمامة يرتدي جلبابًا يتوسطه حزام بينما يلتحف بمعطف طويل فبدا وكأنه خرج من قصص ألف ليلة وليلة.

وعلى الرغم من ملابسه فملامحه أوروبية بلا شك، فظهر كأنه أجنبي حاول تقمص شخصية من بلد آخر ولكنه لم ينجح، أفّاق من بين أفاقين كثيرين جاءوا طمعًا في ثروات سريعة، منذ شهور قليلة كان رجل استعراضات في السيرك في إنجلترا من طراز (اللي يحب النبي يصقف) كما نعرفهم بمصر.

بعد رحلة طويلة من مسقط رأسه في (بادوفا)، حيث كان يعمل أبوه حلّاقًا ولديه من

الأولاد أربعة عشر، ومن ثم إقامة في روما حتى الاستقرار في هولندا ليمتهن هناك مهنة أبيه فيعمل حلّاقًا هو الآخر حتى يرتكب هناك جريمة انتهت بهروبه إلى إنجلترا ليعمل (حاوي سيرك)، ومع تنقلات السيرك عبر أوروبا ينتهي به المطاف في مالطة ليجد نفسه على موعد مع «إسماعيل جبل طارق» أدميرال محمد علي باشا الذي كان بمثابة كشاف لخبراء ومتخصصين للمساعدة في مشروع الباشا، وبالفعل يحدث اللقاء ويصبح «بلزوني» على موعد مع الباشا بنفسه ليعرض عليه خبراته.

يصل «بلزوني» إلى القاهرة في عام ١٨١٥، هو الآن في أرض الأحلام العامرة بالفرص في ذلك العصر، عصر محمد علي الذي تلهف على الأوروبيين ليساعدوه في بناء دولة حديثة وتهافتوا هم عليه طمعًا في فرص تجلب الثراء والجاه.

أتى إلى مصر مقتنعًا أن لديه معرفة بالهيدروليكا للمساعدة في نظام الري، وقدم اختراعه للباشا ولكنه لم يئل رضاه، فرفض اختراعه ليصبح «بلزوني» بلا عمل برفقة زوجته الإنجليزية «سارة».

يمسك بلوح خشبي وفي يده الأخرى فرشاة ليرسم مشهدًا يدور أمامه بينما يقطع أفكاره صوت عمال على مقربة منه وهم يرددون: «يا مهوّن.. هوّن علينا»، (يَا مهوّن.. هوّن علينا)، وبدا وكأن العمال يعملون وفقًا لإيقاع معين يتزامن فيه إيقاع عملهم مع ما يُرَدّدونه.

بعد دقائق يبدأ ما يرسمه بفرشاته في الظهور على اللوح، النصف العلوي من تمثال لملك مصري ذي ملامح شابة توحي بعنفوان وبأس بينما وكعادة كل ملوك مصر تعلو شفتيه ابتسامة خفيفة غامضة تخفي وراءها الكثير، التمثال إلى جانبه يرقد على قاعدة خشبية، أسفلها جذوع أشجار لتعمل كعجلات، يقف أمامها عامل ليبدل الجذوع فيضع الأخير مكان الأول كلما حقق زملاؤه تقدمًا بينما يجرون القاعدة بالحبال.

«هيلا هووووووووب».

ينتهي ذلك الرجل من رسم المشهد، فتبدأ أفكاره بالتدفق مع النجاح الذي يحققه العمال والذي سيجلب له بدوره مجدًا يُضاف إلى اسمه، وتتوقف أفكاره عند اسم معين يتردد في عقله منذ شهور»أوزيماندياس»؛ ذلك الملك المصري الأسطوري الذي بلغت شهرته الآفاق، وأصبح مثل أبطال الأساطير الشعبية تحكي عنه الأمم الأساطير.

«يا مهوّن.. هون علينااا».

«رمسيس الثاني»، ذلك الملك الذي يعرف عنه القليل جدًا، وتلك النقوش التي تملأ الأطلال لا يستطيع أحد في ذلك الزمن (زمن ما قبل شامبليون) قراءتها، فلا جدوى من محاولات

البحث، فكل ما سنجد هو الآثار، فلنحصل عليها أولًا ثم يأتي وقت البحث لاحقًا خاصةً أن «سولت» يدفع بسخاء ووعده بمكافأة كبيرة هذه المرة مع اسمه الذي سيوضع بالمتحف البريطاني بجوار هذا التمثال تكريمًا له.

تحت شعار «دعونا نحمي هذا التراث» كانت مصر مرتعًا للأوروبيين الذين يحاول الباشا كسب صداقتهم، فكان «بلزوني» أحد طفيليات هذا الود، بعد رفض اختراعه وتحطم آماله في أن يتخذ مكانه في حكومة الباشا تلقفه «هنري سولت»، القنصل البريطاني آنذاك، ذلك الرجل الذي كرّس وقت إقامته بمصر لهدف أساسي وهو نهب كل ما يمكن نهبه من الآثار بل والتفوق على الفرنسيين في هذا السباق، فوجد في «بلزوني» ضالته ليكلفه بأول مهمة له وهي نقل هذا التمثال.

ترتفع صيحات العمال هذه المرة بنداء مختلف عن سابقيه.. هناك شيء يعيق تقدم العمل، ينظر أمامه فيجد التمثال لا يتحرك والعمال واقفين في مكانهم ورئيسهم لا يتوقف عن الصراخ فيهم وتوبيخهم بالسباب.. هناك مشكلة!

يقبل عليه رئيسهم بنفسه: «يا ريس مجنون! تعالَ هنا عاوزينك».

كان هذا لقبه بين الأهالي الذين رأورا فيه الجنون مع مهمة نقل التمثال التي أجمع الكل على استحالتها وقبلها هو، الجزء العلوي المراد نقله يبلغ من الوزن سبعة أطنان والفرنسيون يعيقون تقدمه فتارة يمنعوا العمال عنه، وتارة يلجئون لتهديده عن طريق نصاب إيطالي آخر يعمل لديهم وهو «برناردينو دورفيتي»، ولكن «بلزوني» تغلب على هذا كله، والمستحيل يقترب من أن يصبح حقيقة والتمثال يتحرك وفي طريقه إلى الميناء.

يترك «بلزوني» الفرشاة واللوح، وينهض ليرى ما هنالك ومع نهوضه تتضح صفة أخرى لديه وهي جثته الضخمة وقامته الفارعة التي تتعدى المترين.. هذه القامة التي جعلت لقبه في السيرك «شمشون الباتاجوني»، (فتوة السيرك).

منذ النظرة الأولى يدرك المشكلة بلا صعوبة، هناك أطلال أعمدة وقواعد تُعيق تقدم نقل التمثال، ولا يوجد طريق آخر!

ما العمل إذن! الفرنسيون أعينهم في كل مكان، و«دورفيتي» أحال حياته جحيمًا لا يُطاق، والوقت يداهمه، الفيضان سيأتي في أي وقت، وسيغمر الأرض بالمياه، ووقتها سيستحيل نقل التمثال، وسيفقد «بلزوني» وظيفته الأولى.

لم يستغرق سوى ثانية واحدة في التفكير بعدها صاح في العمال، «اتحرك.. يلا يلا... كسر هنا».

لم يبذ أن العمال استوعبوا ما يريد فعله، ولكنه لم يعطهم فرصة للتفكير فيتناول المِعْول بنفسه ويبدأ في أولى ضربات تكسير بقايا تلك الأطلال التي كانت آثارًا عظيمة يومًا ما، لا بد من نقل التمثال بأي ثمن، استخدم الفرنسيون الديناميت في السابق لفصل التمثال، والآن هو يكسر بعضًا من أساسات أعمدة المعبد.

مع ضربات مِعْوله تتعالى صيحاته وكأنه يقدم أداءً مسرحيًا تصاعديًا وصرخاته تتكرر في العمال أن يحذو حذوه فيفعلون، يتحول الموضوع إلى سيرك حقيقي.. فيبدو وكأن العمال أفرغوا غضبهم وتعبهم من الشمس الحارقة في هذه العملية المدمرة.

مع كل ضربة مِعْول يبدو أن كل واحد فيهم يسترجع أسوأ ذكرياته ليفرغ غضبه فيما يفعل «تـــن» واحد يذكر أن زوجته عكرت مزاجه هذا الصباح، (تـــن) والآخر يذكر أن رئيسهم وغد، (تـــن) ثالث لا يفهم لم هو غاضب ولكنه يواصل التكسير.

(تن، تن، تن، تن، تن، تن....) يتحول المشهد إلى ضباب بسبب غبار التكسير مع استمرار أصوات المعاول في الخلفية.

سيستغرق عمل «بلزوني» سبعة عشر يومًا مع ما يزيد من مائة وثلاثين عاملًا حتى يستطيع الوصول بالتمثال إلى المرفأ ومن ثم يبحر إلى القاهرة.

سيصل ذلك التمثال المعروف باسم تمثال «ممنون الصغير» وقتها إلى مرفأ القاهرة ليراه المؤرخ الشهير «الجبرتي» هناك قبل أن يغادر أرض الوطن ويسجل لنا شهادته على الرحيل وعلى جهل بني الوطن وقتها بما فقدوا.

«وأحضروا (تلك الطائفة من الإفرنجالإنكليز) أيضًا رأس صنم كبير دفعوا في أجرة السفينةالتي أحضروه فيها ستة عشر كيسًا، منها ثلاثمائةوعشرون ألف نصف فضة وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها؛ وذلك عندهم من جملة المتاجر في الأشياء الغريبة، ولما سمعت بالصور المذكورة فذهبت... إلى بيت قنصل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية، وشاهدت ما ذكرته وتعجبنا من صناعتهم وتشبههم وصقالة أبدانهمالباقية على مر السنين والقرون التي لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب»(142).

يصل التمثال في النهاية إلى المتحف البريطاني ليضاف إلى مجموعة «سولت» بالمتحف، وينشد كبار شعراء الإنجليز قصائدهم بمناسبة وصول ذلك التمثال العملاق لـ«أوزيماندياس» ملك الملوك، بعد سنوات سيزاح الستار عن اللغة المصرية القديمة ليعرف العالم أجمع أن «أوزيماندياس» ما هو إلا «رمسيس الثاني».

«في سكون مِصرَ الرَّمْلي، تنتصبُ متفرِّدة

ساقٌ عِملاقة، إلى البعيد تلقي

الظِلّ الوحيدَ الذي تعرفهُ الصحراء

تقولُ الحجارة: «أنا أوزيمانديـاس العظيم

مَلِكُ المُلوك؛ هذه المدينة العظيمة تبيّن

العجائبَ التي اختزنتها يَداي.. المدينة قد زالت،

ولا شيءَ سِوى الساق باقية لتكشف

مَوقِعَ هذه الـ «بابل» المَنسيّة..

نتساءل، وقد يعبُرُ ثمة صيّادٌ عن

تساؤله مثلنا، حينَ يأتي من البريّة

حيثُ تشمخُ لندن، مطاردًا الدُبّ..

فيرى شظايا هائلة، ويتوقف ليتفكر

بالجنس القويّ وغير المُسجّل

الذي قطنَ حينًا في ذاك المكان البائد».

(الشاعر الإنجليزى هوارس سميث ١ فبراير ١٨١٨)(143).

«بلزوني».. «شمشون البتاجوني»

«كان عملي المستمر هو البحث عن الآثار، والذي قادني إلى تعاملات مختلفة معهم، لأرى الشخصية الحقيقية للأتراك والعرب والنوبيين والبدو وقبائل العبابدي. كنت أختلف عن أي مسافر عادي والذى يدوّن ملاحظاته عن البلاد وآثارها بدلًا من أن يقنع هؤلاء الجهلة المؤمنين بالخرافات أنيقوموا بمهمة صعبة أو عمل شاق»(144).

«بلزوني» عن إقامته بمصر

مع قدوم «نابليون» غازيًا إلى مصر في عام ١٧٩٨، وبعد الاكتشافات التي حققتها البعثة العلمية المرافقة للجيش بدأ الهوس بمصر في أوروبا، وأصبحت فرنسا المحتكر الرئيسي للبحث عن آثار مصر، ومن ثم تهريبها إلى خارج البلاد، وقد ظلّ هذا النفوذ الفرنسي لسنوات طويلة حتى بعد خروج مصر عن السيطرة الفرنسية حتى ظهر البريطانيون وبدءوا يزاحمون الفرنسيين في مجال الآثار المصرية، وعلى الرغم من عدم معرفة أي شخص وقتها بأسرار اللغة المصرية القديمة فلم يكن «شامبليون» قد ظهر بعد إلا أن هذا لم يمنع أوروبا بأكملها من المشاركة في ذلك الهوس.

وقد بلغ هذا التنافس الفرنسي البريطاني أوجه في عصر محمد علي مع رغبته في إقامة نهضة حديثة في البلاد، وكان حائرًا بين فرنسا وبريطانيا، يحاول كسب ودّهما، وكانت الآثار المصرية هي بوابته لذلك.

كان نتيجة هذا التنافس هو ظهور مافيا للآثار على نطاق واسع تورط فيها تقريبًا معظم الأجانب الذين وُجِدوا على أرض مصر، وقد ظهر على الساحة وقتها أول قنصل بريطاني في مصر والمدعو «هنري سولت» الذي استخدم مثل نظيره الفرنسي مقاولين من الباطن للتنقيب عن الآثار المصرية وتهريبها خارج البلاد، وقد تمت تلك العمليات بفرمانات مباشرة من محمد علي شخصيًا مما يعني موافقة حكومية على خروج تلك الآثار في ذلك الوقت!

كانت المهمة فائقة الأهمية لـ«هنري سوت» في مصر هي تجميع أكبر عدد من الآثار المصرية لإرسالها إلى بريطانيا لمنافسة الإيطالي النصاب ذي النشاط الفائق «برناردينو دورفيتي» الذي كان يعمل لصالح الفرنسيين، وقد عثر «سولت» على كنز حقيقي يتمثل في شخص اسمه «جيوفاني باتيستا بلزوني» وهو نصاب إيطالي آخر توافرت لديه كل مقومات الدهاء والمكر والدناءة وحتى القوة الجسدية حيث كان طوله يتجاوز المترين لسرقة الآثار المصرية، كانت معرفة «سولت» بـ«بلزوني» بناءً على توصية من «جون لويس بيركهارد» الذي كان يُعرف في مصر وقتها باسم الشيخ إبراهيم لتحدثه العربية بطلاقة وارتدائه الزي العربي، وكان «بيركهارد» قد رأى تمثالًا مكسورًا يرقد أمام معبد الرامسيوم وهو معبد ملايين السنين (الجنائزي) الذي شيده «رمسيس الثاني»، وكان أرشيفه هو قلب إمبراطورية مصر النابض بوثائقه العلمية الفائقة الأهمية والسرية، أما التمثال فقد وصفه «بيركهارد» وقتها بأنه بالتأكيد أجمل وأكمل تمثال مصري يمكن رؤيته في البلاد وقتها، اتفقت رغبة «سولت» و«بيركهاد» على نقل التمثال وكان «بلزوني» هو المنفذ.

كان المعبد يطلق عليه وقتها «الممنونيان»، وكان يطلق على ذلك التمثال «ممنون الأصغر»؛ حيث كانوا يعتقدون في ذلك الزمن أن هذا المعبد والتمثال يخص «ممنون» ملك إثيوبيا الأسطوري الذي شارك في حرب طروادة.

مع تولي «بلزوني» المهمة من «سولت والتي كانت بفرمان من محمد علي باشا، كان «بلزوني» على موعد مع «رمسيس الثاني» وعائلته في رحلة طويلة جدًا، بدأت بنقل النصف العلوي من التمثال الذي حاول الفرنسيون نقله في السابق ولكنهم فشلوا بعدما تركوا ثقبًا على يمين صدره، وهنا تصدر «بلزوني» المشهد، وتغلَّب على كل الصعاب، وقام بنقل التمثال، وبإتمام المهمة التي ظن الكثيرون أنها مستحيلة لتكون أول محطة في رحلة «بلزوني» الطويلة مع «رمسيس الثاني» وعائلته.

«أبو سمبل» تحت الرمال

بعد النجاح الساحق الذي حققه «بلزوني» توجه إلى النوبة لاستكمال مغامراته وعمليات النهب والسرقة لصالح «سولت»، بينما مع وصول النصف العلوي من تمثال «رمسيس الثاني» إلى المتحف البريطاني كتبت الصحف اللندنية وقتها مقالات تمدح جهود «سولت» في إثراء المتحف!

«في اليوم التالي قمتُ بفحص سريع للمعبد بتلك المدينة، كان مملوءًا بالقمامة يظهر منه رواق، ولكن جمال تيجان الأعمدة ومناظر الأبراج علىالسقف تعلن أنه كان يومًا ما أحد المعابد الأساسية بمصر، إن مناظره وكتاباته الهيروغليفية بشكل ما أكبرمن الموجودة بدندرة، والمأساة الكبرى أن مثل هذا الصرح الجميل يسكنهالعربان القذرون وماشيتهم... بالنظر إلى صرح بهذه العظمة والإتقان والقِدَم، يسكنه أناس نصف همج حشروا أكواخهم بجواره والتيلا تختلف عن أعشاش الدبابير، توضح ملابسهم المتسخةالتباين بينها وبين تلك الصور المقدسة (على الجدران) والتي كانت تحظى بتقدير بالغفي الماضي، يجعلني أشعر بالفرق بين مصر قديمًا وحديثًا».

(من كتابات بلزوني عن معبد إدفو)(145).

كانت وجهة «بلزوني» التالية جنوبًا حتى النوبة، وهناك لم يُخْفِ إعجابه الشديد بمجموعة المعابد التي زارها، وبالطبع قام بسرقة وشحن كل ما استطاعت يده أن تطوله ومع ذلك فكانت حيرته تزداد كلما مضى الوقت عليه وهو يستكشف؛ فالفارق بين مصر قديمًا وحديثًا شاسع ومُخيف، والحضارة المصرية القديمة اندثرت لغتها؛ فلم يكن هناك في ذلك الزمن من يستطيع قراءة الخط الهيروغليفي، لذلك كانت المعلومات المتاحة عن تاريخ مصر وقتها ضئيلة ومعظمها يستند إلى روايات العهد القديم.

مع توغل «بلزوني» في النوبة كانت وجهته الرئيسة هي معبد لم تسجله الحملة الفرنسية في كتاب «وصف مصر»؛ لانه كان مغمورًا بالرمال، يظهر فيه فقط النصف العلوي من تمثال عملاق لم يعلم أحد وقتها حتى إن كان هذا التمثال واقفًا أم جالسًا، هذا المعبد كان «أبو سمبل».

كان رفاق «بلزوني» في «أبو سمبل» ضابطان إنجليزيان هما «تشارلز إيربي» و«جيمس مانجلس»، وقد واجهت «بلزوني» صعوبات كثيرة في إيجاد عمال محليين لمساعدته فأنفق الكثير حتى استطاع بالفعل البدء في إزاحة الرمال عن المعبد والتي لم تكن بالمهمة السهلة.

واجه «بلزوني» صعوبات كان أبرزها ترك العمال الموقع مع بدء صيام شهر رمضان ليتركوه يعمل وحيدًا، وحتى مع نهاية العمل واقتراب «بلزوني» من المدخل ألقوا بالكارت الأخير، وأجروا عِدّة محاولات لتعطيله عن دخول المعبد ليستفيدوا هم مما سيجدونه بالداخل، ولكن باءت جميع محاولاتهم بالفشل..

أخيرًا: استطاع «بلزوني» في صباح يوم ١ أغسطس ١٨١٧ الكشف عن مدخل معبد «أبو سمبل»، والدخول إليه ليزعج أحد أماكن «رمسيس الثاني» للمرة الثانية على التوالي.

«في الصباح الباكر ليوم ١ أغسطس ذهبنا إلى المعبد بروح عالية دعمتهافكرة دخول مكان مكتشف حديثًا، سعينا بقدر استطاعتنا إلتوسيع المدخل ولكن العمال (المحليين) لم يرافقونا كالعادة، على العكس كان واضحًا أنهم يحاولون تعطيلنا بكلطاقتهم عندما أدركواأننا وجدنا المدخل فعلًا، تمنوا أن يوقفونا عن الاستفادةمن (المكان) ولكن المحاولة فشلت.. في وقت سريع استطعنا توسيعالممر، ودخلنا إلى الى أروع وأشمل أماكن التنقيب في النوبة.. مما أدركناه من النظرة الأولى اتضح أنه مكانكبير جدًا، وزاد انبهارنا عندما وجدناه أروعالمعابد؛ فكان ثريًا بالنقوش الغائرة والرسومات والتماثيل العملاقة».

«بلزوني» في «أبو سمبل»(146).

لم يُخفِ «بلزوني» دهشته ولا انبهاره بما وَجَد؛ فقد أيقن أنه عثر على واحد من أعظم معابد مصر على الإطلاق، وقد أسهم في حفظ هذا المعبد الرمال التي غطته بالكامل، فلم يستطع المسيحيون الأوائل تحويله إلى دير مثلما فعلوا في كل معابد النوبة، أما «بلزوني» ورفاقه فقبل رحيلهم من المعبد قاموا بشيئين بخلاف السرقات طبعًا. الأول هو رسم مخطط للمعبد وتوثيقه لأول مرة، والثاني أنهم قاموا بكتابة جرافيتي حمل أسماءهم بتاريخ دخولهم للمعبد، وبعدها عاد «بلزوني» إلى طيبة وحيدًا ليبدأ أحد الفصول الأخيرة من مغامراته في مصر.

طيبة مرة أخرى!

بعد النجاح الساحق المتوالي لـ«بلزوني» في مهامه بدا وكأنه رجل «سولت» المتوج ونجمه الأوحد، أو هكذا بدا لـ«بلزوني» الطموح الذي تجاوزت طموحاته أكثر من مجرد كونه مقاولًا لسرقة الآثار من الباطن.

مع عودة «بلزوني» إلى الأقصر مرة أخرى كان الفرنسيون يُحكِمون سيطرتهم بشكل كبير هناك، ولكن «بلزوني» كان قد حجز مكانه هناك بالفعل بل إنه كانت له علاقات طيبة مع «برناردينو دورفيتي» غريمه المباشر، ولكن فجأة وبينما يخطط لمشاريعه المستقبلية في الأقصر نجده يرسل رسالة لـ«هنري سولت»، يطلب منه حماية حكومية؛ حيث إنه تعرض لإطلاق النيران في طيبة، وكاد يفقد حياته.. وهنا كان رد «سولت» صادمًا، حيث إنه رفض طلبه، وأوضح له بشكل حاسم أن عمله لا يحمل أي صفة رسمية؛ أي أن «بلزوني» عليه أن يعمل على مسئوليته الشخصية!

بشكل ما نجح «بلزوني» في توفيق أوضاعه في الأقصر ولديه هدف جديد، هو جمع البرديات من المقابر.. وقد وجّه جهوده إلى مقابر غرب طيبة ووادي الملوك.

«بعض هذه المقابر الكثيرونلا يتحملون هواءهاالخانق، والذي يسبب الإغماء في أغلب الوقت.. وهذا ليس كل شيء، المدخل أو النفق المؤدي إلى حيث تقع الأجساد (المومياوات) منقور في الصخر مملوء بالرمال، في بعض الأماكنلا يوجد مكان سوى لقدم والتي تجبرك على عبورها فيوضع غريب (زاحفًا) مثل الحلزون.. وبعد عبور تلك الأنفاقتجد بشكل عام مكانًا أفضل للراحة عاليًا بشكل كافٍ يمكنك من الجلوس، ويا له من مكان للراحة! مُحاط بالأجساد وأكوام المومياوات من كل الاتجاهاتوالتي على الرغم من اعتيادي لرؤيتها فقد شعرت بالرعب.. والعربان يمسكون بالشموع أو المشاعل في أيديهم عارون، مغطون بالغبار وكأنهم مومياوات حية!... نشدت مكانًا للراحة وبلغت واحدًا وبينما أجلس لم تتحمل مومياء المصري أسفلي وزني فانسحق ولم أجد معينًا سوى يداي التي لم تساعدني، فوقعت وسط المومياواتالمهشّمة والخرقوالصناديق الخشبية.. كل خطوة خطوتها كنت أهشّم جزءًا من مومياء وبينما أنتقل من مكان لآخرعبر ممر يبلغ طوله عشرين قدمًا تحشر جسدك عبره بالكاد، كان مليئًا بالمومياوات، لم أستطع المرور دون وضع وجهي في وجه (مومياء لمصري)، وبينما الممر يتجه لأسفل ساعدني وزني ولكني لم أستطع تجنب العظام والأرجل والأذرعوالرءوس التي تدحرجتمن أعلى، أكملت من كهف لآخر كلها مملوءةبالمومياوات مكومةبطرق شتى؛ فالبعض واقف، والآخر يرقد، وآخرون على رءوسهم، كان غرض بحثي هو سرقة برديات المصريين والتي وجدت القليلمنها مخفيًا في صدورهم، وتحت أذرعهم

وفوق الركبة وعلى الأرجلمغطاة بطبقات من القماش الذي يغطي المومياء، كان سكان القرنةالذين يتاجرون في آثار من هذا النوع شديديالغيرة من الغرباء، ويحتفظون بالأسرار كلما استطاعوا، يخدعون المسافرينبالادعاء أن هذه هي نهاية الحفرة بينما في الحقيقة هي المدخل».

(بلزوني وسكانالقرنة ومقابر غرب طيبة)(147).

مع تكرار نجاحات «بلزوني» أصبح الموقف مُمِلًا، فكل مكان يدخله يعيث به الفساد كيفما شاء، وينجح في مهمته على الرغم من أي مصاعب، مع حلول شهر أكتوبر نجح «بلزوني» في اقتحام ما يقرب من ٨ مقابر في وادي الملوك، أهمها كانت مقبرة الملك سيتي الأول والد «رمسيس الثاني»، والتي عُرفت وقتها باسم مقبرة «بلزوني»(148)، وهي تحمل الرقم ١٧ في وادي الملوك حاليًا، وكذلك المقبرة التي تحمل رقم ١٦ في الوادي حاليًا وهي مقبرة «رمسيس الأول» جد «رمسيس الثاني»!

لم يكتفِ «بلزوني» بانتهاك آثار «رمسيس» فقط وإنما امتد لأبيه وجده! ولكن هذا الكشف كان آخر علاقة «بلزوني» بـ«سولت».

مع وصول الأنباء إلى «سولت» باكتشاف مقبرة جديدة غاية في الفخامة (مقبرة سيتي الأول)، قام بالسفر إلى الأقصر ومعه سانحون إنجليز (لورد بلمونت وعائلته)، وقام «سولت» بإرشادهم بنفسه بداخل المقبرة وأمامهم قام بتعريف «بلزوني» بأنه (رجله).. سمع «بلزوني» بأذنيه ورأى بعينيه قيمته لدى «سولت» بأنه مجرد أجير لديه، وهنا قرر «بلزوني» العودة إلى القنصلية الإنجليزية في القاهرة ليجد مفاجأة أخرى في انتظاره.

جزاء «سنمار».. «هنري سولت»

في القنصلية عثر «بلزوني» على ما أكد ظنونه، فمجموعة من المقتنيات التي سرقها هو مستعدة للشحن إلى بريطانيا، وكلها تحمل اسم «هنري سولت»، ومعها عثر على المقالات التي تمدح جهود «سولت»، كل الأوراق والوثائق تتحدث عن «سولت»، كل الآثار تحمل اسم «سولت».. «بلزوني» اختفى اسمه من كل السجلات وكأنه لم يوجد قط!!

يبدو أن لعنة «رمسيس» وعائلته بدأت في ملاحقة «بلزوني»!

قام «بلزوني» بقطع الصلة بينه وبين «سولت»، وكان هدفه الأخير في مصر هو إثبات ذاته، لا بد أن يسمع العالم باسم «بلزوني».. وبالطبع لن يتم هذا سوى بعملية إجرامية جديدة أو سرقة كبرى.

كانت وجهة «بلزوني» الأخيرة في مصر هي هضبة الجيزة مع لغز لم يستطع أحد حله، وهو الدخول إلى هرم «خفرع» فيذكر «بلزوني» أنه قام بدراسة الهرم لمدة تقارب الثلاثة أسابيع، بل إنه يقول: إنه فحص الهرم حجرًا حجرًا، وبعمليات حسابية والمعرفة السابقة بهرم «خوفو» الذي كان مفتوحًا وقتها عثر «بلزوني» على المدخل.

ومع وصوله إلى غرفة الدفن كان «بلزوني» مصممًا على أن يكون هذا الكشف له وحده، لن يسمح لأحد بسرقة اكتشافاته أو محو اسمه مرة أخرى ليدوّن على جدران الغرفة العبارة الآتية:

«Scoperta da G. Belzoni, 2 marzo 1818»

(وجدها «ج. بلزوني».. ٢ مارس ١٨١٨).

بعدها عاد «بلزوني» مرة أخرى إلى لندن بعد رحلة أخيرة للواحات البحرية. ليصفي حساباته مع «سولت»، فكتب كتابًا يحكي فيه عن مغامراته في مصر والنوبة وقد لاقى نجاحًا منقطع النظير وقتها، وأصبح «بلزوني» من مشاهير لندن في وقت قصير، ولإثارة انتباه أكثر قام «بلزوني» بفك لفائف مومياء مصرية كان جلبها معه أمام أطباء كلية الجراحين الملكيين فكانت أول مومياء تراها لندن وقتها!

كما أنه قام بعمل معرض بالصالة المصرية بميدان بيكاديلي في لندن لعرض رسوماته من مقبرة «سيتي الأول».

كان ما يرغبه «بلزوني» هو جذب الانتباه واعتراف العالم باسمه واعتراف المجامع الاكاديمية بما أنجز، بل إنه حاول شراء مجموعة «سولت» من المتحف البريطاني ولكن طلبه قُوبِل بالرفض، ليخفت بريق «بلزوني» في لندن رويدًا رويدًا حتى نسيه الناس.. وهنا توجه «بلزوني» في آخر رحلاته إلى أفريقيا لاستكشاف مدينة «تمبكتو» المفقودة، ولكن وعلى حدود بنين حاليًا يتوفى «بلزوني»، وتتخبط المصادر ما بين مقتله على يد قطاع الطرق أو وفاته بالزحار، ليلقى مصيره في ٣ ديسمبر ١٨٢٣.

حقيقة الأمر فإن نهاية «بلزوني» كانت عادلة مع كل ما اقترفه في حق آثار مصر بشكل عام، وفي حق آثار بطل كتابنا «رمسيس الثاني» وعائلته بشكل خاص، وحتى يومنا هذا لا تزال الآثار التي سرقها في المتحف البريطاني تحمل اسم «هنري سولت».

برحيل «بلزوني» ومع مرور السنين ونشأة علم المصريات يُعترف به في الأوساط العلمية، ومن ثم الاحتفاء به في وطنه الأم «إيطاليا» ليعطوه لقب «بلزوني العظيم»!

أعطوه هذا اللقب على الرغم من كل ما قام به -هو وغيره- داخل مصر، جرى الاحتفاء به وتخليد ذكراه، بينما من أزعجهم من مرقدهم لا يزال أمامنا الكثير ليحتفي بهم بنو وطنهم.

«معابد القرنة، الممنونيانومدينة هابو تشهد على امتداد هذه المدينة العظيمة علىهذا الجانب (البر الغربي)، التصويرات العملاقة التي لا مثيللها في سهول طيبة، وعدد المقابر التي نُقِرت في الصخور، والمقابر الواقعة بوادي الملوك ورسوماتهاوتماثيلها ومومياواتهاوتوابيتها وتصويراتها، كلها أشياء تستحق إعجاب المسافر والذي دون فشل سيتعجبكيف لأمة كانت بهذه العظمة أقامت هذه الصروح الهائلةأن تقع في طي النسيان، حتى لغتهم

وكتاباتهما أصبحت مجهولة لنا بشكل كامل!».

«بلزوني» عن إقامته بالأقصر(149).

---

139 AP Archive, Ancient mummy returns from US https://www.youtube.com/watch?v=pFPmT9DHpbg

140 Reeves, Wilkinson, The Complete Valley of the Kings, P100.

141 "Ozymandias" by Glirastes in The Examiner, London, Sunday, January 11, 1818, No. 524, page 24.

http://www.alnoor.se/article.asp?id=51881 ترجمة غسان نامق

142 كولا إليوت، صراعات حول الآثار المصرية، ص٨٧.

143 (1818, February 1). The Examiner (London), p. 73.

http://www.alnoor.se/article.asp?id=51881 ترجمة غسان نامق

144 BELZONI, G (1820). NARRATIVEOF THE OPERATIONS AND RECENT DISCOVERIES WITHIN THE PYRAMIDS, TEMPLES, TOMBS, AND EXCAVATIONS, IN EGYPT AND NUBIA; AND OF A JOURNEY TO THE COAST OF THE RED SEA, IN SEARCH OF THE ANCIENT BERENICE; AND ANOTHER TO THE OASIS OF JUPITER AMMON JOHN MURRAY.P VII

145 BELZONI, G (1820). P.57

146 BELZONI, G (1820, P.211

147 BELZONI, G (1820). P463

148 Reeves, Wilkinson, The Complete Valley of the Kings. P58.

149 BELZONI, G (1820). P38.

خاتمة: وداعًا رمسيس

«حورس الثور القوي المشرق في الماعت، المنتمي للسيدتين الذي أخضع بقوته أرض تمحو (ليبيا)، حورس الذهبيسيد الخوف عظيم الملك، ملك مصر العليا والسفلى روح «رع» محبوب الآلهة، ابن «رع مر إن بتاح» (محبوب بتاح) الراضي بالماعت».

ألقاب تتويج «مرنبتاح».

العام (٦٧) والأخير من حكم «رمسيس الثاني»، فصل (آخت) الفيضان، الشهر الأول، اليوم التاسع عشر.

منذ أيام قليلة تدفق الفيضان حاملًا الخير لربوع مصر حتى أصبحت أشبه بالبحر تتلألأ فوق مياهه أشعة الشمس الذهبية، فيضان كاسح مُبشِّر بالأمل والطمي الغزير والخير الذي سيعقبه لتزدهر الأرض بالخضرة وتمتلئ المياه بالأسماك، وبينما الفرح والسرور والاحتفالات تشمل أرض مصر كلها، يدينون بالفضل للإله، ولملكهم و«سر ماعت رع» الذي لم يحنث بوعده في فيضان غزير قط طوال سنوات حكمه، لم يعرفوا ملكًا غيره طوال سنوات عديدة، أجيال تعاقبت على أرض مصر ولم تزَ على عرشها سواه حتى أصبح أعظم حكامها على الإطلاق.

لن يتوقع هذا الشعب السعيد بفيضانه الوفير أن هذا آخر أعوام «وسر ماعت رع بن سيتي بن با رعمسو بن سيتي» الذي لم تنجب مصر مثله منذ زمن الإمبراطور «تحتمس الثالث»، ذلك الملك الذي خلد أصوله بشرق الدلتا وأعاد لإلهها «ست» هيبته ومكانته بعدما نسبه الهكسوس لأنفسهم، فإذا بـ«رمسيس» يُعيده إلى أحضان مصر مرة أخرى ليُصوّره وكأنه رسالة سلام لكل البلدان التي عبر فيها ست الحدود وأصبح إلهًا يُعظَّم فيها.

«أمر جلالته بصنع تلك اللوحة العظيمة من الجرانيت، باسم آبائه العظماء.. في العام (٤٠٠) اليوم الرابع من الشهر الثالث من فصل الشمو منحكم ملك مصر العليا والسفلى.. ابن رع محبوبه (الإله) (ست نوبتي) جاء الأمير الوراثي وعمدة المدينة، الوزير، حامل المروحة على يمينالملك، رئيس رماة الأسهم، كاتب الملك،قائد الخيالة، كبير كهنة كبش منديس، كبير كهنة ست، كبير أنبياء كل الآلهة،«سيتي»، «با رعمسو» ابن سيدة الدار «تيا»... قائلًا: التحيات لجلالتك «ست» يا ابن «نوت» عظيم القوى في قارب ملايينالسنين، المطيح بالأعداء أمام قارب رع، عظيم الرعب، فلتمنحني حياة سعيدة...».

(لوحة الأربعمائة عام)(150).

أما في القصر الملكي فكان المشهد مغايرًا تمامًا، يجتمع صفوة الأطباء الذين لطالما سافروا خارج أرض مصر وعالجوا أصدقاءها ورعاياها وصنعوا المعجزات باسم بلادهم ولكنهم هذه المرة عاجزون عن اتخاذ قرار حاسم بشأن «وسر ماعت رع»، الذي يرقد طريح الفراش منذ سنوات طويلة، عمره الآن تعدى التسعين ويزيد، وشعره الذي كان يتألق بالحمرة في الماضي غزاه الشيب، مفاصله تئنُّ وشرايينه متصلبة، ذلك الملك الذي كان شمسًا ساطعة في شبابه وذراعه قوية أصبح محني الظهر فاقدًا لحواسه، فلا يرى سوى مشاهد ضبابية، وسمعه أصبح ثقيلًا جدًا، بينما لم يعد يستطع الشم، أما عن التذوق فحدّث ولا حرج؛ فأسنانه وصلت إلى حالة بالغة من السوء مع الكثير من الخراريج التي يبدو أنها لوّثت دمه في طريقها إلى تسميمه.

إن «وسر ماعت رع» يلفظ أنفاسهالأخيرة!

ولد الوهن، وحل الهرم

وجاء الضعف وعادت حيرة الطفولة

واختفت القوة لأن قلبي متعب

خرس الفم، ولن يتكلم ثانية

وغارت العينان، وصمّت الأذنان

وأصبح النوم عسيرًا، يومًا بعد يوم

وكثر نسيان القلب، ولم يعد يتذكر الأمس

ووهنت العظام من تقدم العمر (طول السنين)

وصارت الأنف مزكومة، لا تستطيع التنفس

وأصبح القيام والقعود صعبًا

والجيد أصبح سيئًا

وفقدت حاسة التذوق

ما يفعله العمر بالإنسان: يكسر القلب بأي شكل

(من تعاليم الحكيم المصري«بتاح حتب»)(151).

يجتمع حوله أحباؤه المقربون في حزن شديد، فلم يتوقعوا ذلك أبدًا، كان يملؤهم الأمل

أن «رمسيس» سيعيش ليتجاوز عامه العاشر بعد المائة وهو سن الحِكمة المقدسة في مصر القديمة ليضاف ذلك إلى سجل انتصاراته ومعجزاته، ولكن يبدو أن الإله قد حدّد اقتراب موعد الرحيل.

ها هو الأمير «مرنبتاح» الابن الثالث عشر لـ«رمسيس» وريث العرش وقائد الجيش وأقوى رجال الدولة في ذلك الوقت يتقدم المشهد وقد تعدى عمره الستين عامًا، ومعه من تبقى من إخوته على قيد الحياة، بينما الأحفاد يملئون المشهد حول الفراش منهم من بلغ منتصف العمر، ومنهم من لا يزل طفلًا، لم يعد يستطيع التعرف عليهم، فكل من يتذكرهم قد غادروا هذه الحياة، يلقي «رمسيس» بنظره قيرى وجوهًا يعرفها ولكنه لم يعد يستطيع تذكر الأسماء!! مهلًا هناك وجه مألوف جدًا طاعن في السن هو الآخر لم يتميزه «رمسيس» ولكنه يذكر ذكرياتهما معًا في شبابه الأول حينما كانا رفيقين صغار السن في قصر أبيه «سيتي»!

إنه «باك إن خونسو»، ذلك الرجل الورع الذي كرّس حياته للإله آمون في معبده حتى أصبح الآن كبير الكهنة بعدما بلغ من الكبر عتيًا، إنه الرجل الذي أشرف يومًا على تشييد المسلتين العظيمتين أمام معبد الأقصر والتي رحلت واحدة منها إلى فرنسا بأمر من محمد علي.

أين «باسر»؟

نعم.. نعم، هذا كان اسمه.

ذلك المخلص العزيز لِمَ لا يراه «وسر ماعت رع» بجواره؟ لقد رحل هو الآخر عن عالمنا منذ زمن طويل» ولكن «وسر ماعت رع» لم يعد يستطيع حتى استرجاع الذكرى، لم يبقَ من «نفرتاري» و«آمون حر خبش إف» وحتى ابنه الأثير «خع إم واست» سوى ذكرى مبهمة، بينما الأمير «مرى أتوم» أصبح أبوه يخلط بينه وبين أخيه الأكبر القائد العسكري «رمسيس» الذي يرقد في الغرب الجميل مع بقية أفراد الأسرة، حقًا لم يبقَ الكثيرون ممن عاصروا «رمسيس» في شبابه.. أنا متعب للغاية وجسدي لم يعد يستطع احتمال هذه الآلام التي لا تهمد للحظة يغمض «وسر ماعت رع» عينيه في مرة لم يعلم أنها ستكون الأخيرة، بينما تنساب في عقله لمحات خاطفة فيتذكر معلّمه «تيا» زوج أخته يُلقّنه الدرس تلو الآخر ويذكر أمامه «خاتوشا» لأول مرة في حياته، يتذكر «باسر» رفيقه المخلص وهو يضع التاج فوق رأسه أمام أبيه «سيتي»، يتذكر حنو أبيه ورفقه به وجده «بارعمسو» الذي كان يرى فيه أمل تلك البلاد، يرى أباه «آمون» وهو يقف خلفه ويعضده قائلًا: لا تخف يوم «قادش» بينما ذراعه القوية تؤازر ذراع «رمسيس» فيصرع من الأعداء العشرات، يتذكر وجهًا جميلًا رافقه لفترة كبيرة من حياته «نفرتاري»، ولكنه لم يعد الآن يستطيع حتى تذكر اسمها، يمر أمام عينيه أبناؤه الذين

أحبهم وأحبوه، وأول ولي عهد له «آمون حر خبش إف» وهو يعطيه الأوامر يوم حصار «مؤاب» و«إدوم»، بينما «خع إم واست» وهو طفل على عجلته الحربية يوم رافقه في النوبة ومعه.. يا إلهي إن حتى مجرد التفكير متعب للعقل والجسد معًا.. روحه تعيش آخر لحظاتها بداخل ذلك الجسد المتعب فيرى «رمسيس» نفسه يوم أن جرى خلف الثور حول السور في عيد «سد» (اليوبيل) ومع شروق الشمس يرفع بيديه عامود «جد» والشمس ترسل أشعتها على الأرض لتعلنه ملكًا متجدد الحيوية يعطي أرض مصر الحياة.

مهلًا!

إن الشمس تشرق بالفعل وروحه ترتفع مع شروقها إلى عنان السماء ليتردد في ذهنه صوت قادم من بعيد:

«حورس الثور القوي عظيم الملك، المنتمي للسيدتين عظيم احتفالات الحب سد مثل «بتاح تا تنن»، حورس الذهبي ثري السنين مثل «أتوم»، ملك مصر العليا والسفلى «وسر ماعت رع مرى آمون»، ابن رع.. رع مسو (رمسيس) حاكم هليوبوليس».

يتجلى أمامه آخر مشهد في حياته بملك متوج بنفس تيجانه ينادونه بنفس اسمه «رع مسو» وأمامه طفلان حملا أسماء أبنائه فأكبرهما يُدعى «آمون حر خبش إف» والصغير اسمه «خع إم واست»، وقبل أن يستطيع أن يتبين شخصية ذلك الملك، يغشى النور عيني «رمسيس»، يعقب ذلك ظلام تام، بعدما تركت «كاؤه» الملكية جسده ليرحل «وسر ماعت رع» إلى الغرب الجميل.

بعد أعوام مديدة من الانتصارات والمِحَن تصعد روح «وسر ماعت رع» إلى بارئها تاركًا وراءه إرثًا ثقيلًا سيحمله من بعده ابنه «مرنبتاح»، وأجيال طويلة من الملوك ستحاول الحفاظ عليه بلا جدوى، وبعد خمسين عامًا من وفاته ستتحقق آخر رؤى «رمسيس» قبل مماته في ملك عظيم آخر حمل نفس اسمه «رمسيس الثالث»، والذي سيتخذ من «رمسيس الثاني» قدوة له في كل شيء حتى أسماء أولاده لتطلق عليه كتب التاريخ في النهاية آخر أبطال مصر، بينما يأتي من بعده ثمانية ملوك حملوا اسم «رمسيس» بدورهم لم ينجحوا في أن يكونوا حتى ظلًا من سلفهم العظيم، سيبقى إرثه وألقابه التي لقبها له المصريون إلى الأبد وسيعرفونه بـ«الابن البار لمصر»، «رمسيس الأكبر».

«إنني آتٍ إلى جوارك، فأنت الذي أنجبتني، ليتك تنعم عليّ بالبركات كما تفعل مع ابنك «حورس»، أعطني الازدهار والحياة، حياة مديدة وملكًا يدوم طويلًا... وطوال عهديفسوف تكون راضيًا عن هذا البلد (مصر) بلدك أنت، فإن فترة الحياة المديدة والحكم المديد للملك

«وسر ماعت رع ستب إن رع» الملك العظيم سوف تضاعفها من أجلي.. فما فعلته لمعبدك.. أكثر فائدة مما فعله الملك «وسر ماعت رع ستب إن رع» الإله العظيم طوال ٦٧ سنة من حكمه».

(رمسيس الرابع ـ لوحة من «أبيدوس» مكرسة للإله «أوزير»)(152).

سترحل روح «رمسيس» إلى السماء بينما يبقى جسده على الأرض بغد رحلة مُذهِلة أخرجه فيها المفسدون من الأرض من بيت أبديته في وادي الملوك ليخبئه الكهنة المخلصون في مخبأ جمع بينه وبين أبيه «سيتي» وجده «بارعمسو» ليعود المفسدون في الأرض كعادة كل زمان لإزعاجهم جميعًا مرة أخرى فيذهب «با رعمسو» في رحلة مذهلة خارج أرض الوطن ويبقى مجهولًا لسنوات حتى يعود مرة أخرى فيلتقوا جميعًا على أرض مصر بين جدران متاحفها في انتظار الموكب الملكي الذي سيأخذهم ليرقدوا معًا جنبًا إلى جنب في المتحف القومي للحضارة المصرية بقلب القاهرة.

أما عن وعد «رمسيس» بإشراقة أبيه «رع» على وجهه مرتين في العام في الموعد المحدد الذي اختاره بنفسه في الحادي والعشرين من أكتوبر وفبراير في «أبو سمبل»، يعود لتحقيقه أحفاده المخلصون فتشرق الشمس على وجه تمثاله الضخم في وسط البهو العظيم للمتحف المصري الكبير في الموعد والزمان ليبقى اسم «رمسيس» مخلدًا بين أبناء وطنه يذكره بالخير المخلصون منهم(153).

إنه «سعيد»، ذلك الأمير الطيب

فالموت مصير رحيم

سلالات تمضي

وأخرى تبقى

منذ زمن الأسلاف

الآلهة التي كانت من قبل ترقد فيأهراماتها

والنبلاء المباركون أيضًا كانوا يرقدون في مقابرهم

ومن شيدوا هذه المقابر، أماكنهم ذهبت!

ماذا حلَّ بهم؟

ماذا عن أماكنهم؟

تداعت حوائطهم، وذهبت أماكنهم

ذهبت، وكأنها لم تكن موجودة

وكأنهم لم يكونوا موجودين

وحتى نرحل حيثما رحلوا

اتبع قلبك ما دمت حيًا

(جزء من أنشودة عازف الهارب مقبرة الملك «إني إيت إف» (أنتف)، بردية هاريس) (154).

---

150 Al Ayedi, Abdul Rahman (2000). THARU: THF, STARTING POINT ON THE "WAYS OF HORUS", A thess submitted in conformity with the requirements for the degree of Master of Arts, Graduate Department of Near and Middle Eastern Civilizations, University of Toronto.

PP36, 37.

151 John L. Foster, Ancient Egyptian Literature: An Anthology, 2001.P 187.

152 كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة ص ٤٢٤.

153 الوطن، ٢١ أكتوبر ٢٠٢٠، التفاصيل الكاملة لنجاح تجربة تعامد الشمس على وجه "رمسيس" بالمتحف الكبير. https://www.elwatannews.com/news/details/5007323

154 Ancient Egyptian Literature: An Anthology 179.

الملاحق

قائمة المراجع:

تمهيد

• Ikram, S. 2018. 'From Thebes to Cairo: the Journey, Study, and Display of Egypt's Royal Mummies, Past, Present and Future', in "Polymatheia. Studi classici offerti a Mario Capasso I Paola Davoli and Natasha Pelle, eds. Lecce: Pensa Multimedia, 867-83.

(Ramses II _ The great Journey), Documentary, Noubelcourt Interview https://www.imdb.com/title/tt6830934/

• Brier, Bob (1999). Egyptian Mummies: Unraveling the Secrets of an Ancient Art Brockhampton

• Reeves, Nicholas. Wilkinson, Richard H, (2008). The Complete Valley of the Kings: Tombs and Treasures of Ancient Egypt's Royal Burial Site.

• The New York Times, The Mummy of Ramses II is Flown To Paris for Treatment of Decay, September 27, 1976, Page 7.

• The New York Times, Paris Mounts Honor Guard For a Mummy, September 28, 1976.

• أسماء أبو اليزيد. مفيدة حسن الوشاحي، أحمد عبد الرسول وخبيئة الدير البحري (دراسة تاريخية).

Minia Journal of Tourism and Hospitality Research Vol. (6), No. (2/2), December, 2018

• زاهي حواس، قصة كشف أثري مثير، الشرق الأوسط، ١٨ أغسطس ٢٠١٦.

https://aawsat.com/node/717231

• زاهي حواس، سر كشف المومياوات الملكية، الشرق الأوسط، ١٠ أكتوبر ٢٠١٩.

https://aawsat.com/node/1938631

كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥.

• بيتر فرانس، اغتصاب مصر (كيف جرد الأوروبيون مصر من تراثها)، ترجمة محمد مستجير، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

الفصل الأول

• Dodson, Aidan (2009). Amarna Sunset: Nefertiti, TutankhamunAyHoremhebandthe Egyptian Counter Reformation.

• Moran, William L. (1987) The Amarna Letters.

• Fletcher, Joanne (2000). Chronicle of a Pharaoh, The intimate life of Amenhotep III, Oxford university press 2000.

• Dodson, Aidan. Hilton, Dyan (2004). The Complete Royal Families of Ancient Egypt: A Genealogical Sourcebook of the Pharaohs.

• *Cruz Uribe, Eugene (1978). "The Father of Ramses I: OI 11456". Journal of Near Eastern Studies.*

• Egyptian Journal of Archaeological and Restoration Studies "EJARS", Volume 2, Issue 1, June - 2012: pp: 61. 67, THE BASE OF A STATUE OF RAMSES I, Faheed, H. Lecturer Egyptology dept., Faculty of Arts. Sohag Univ., Sohag, Egypt.

https://www.osirisnet.net. Ramses I Tomb, KV16

• كلير لالويت، طيبة أو نشأة إمبراطورية، ترجمة ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥.

• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة، ترجمة: ماهر جويجاتي، المركز القومي للترجمة ٢٠٠٩.

• يان اسمان الموت والعالم الآخر في مصر القديمة ج١، ترجمة محمود محمد قاسم، المركز القومي للترجمة ٢٠١٧.

• يان اسمان الموت والعالم الآخر في مصر القديمة ج٢، ترجمة محمود محمد قاسم، المركز القومي للترجمة ٢٠١٧.

• كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات (مرجع سابق).
• كنت كتشن، «رمسيس» فرعون المجد والانتصار، ترجمة د. أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.
• كريستيان نوبلكور، توت عنخ آمون حياة فرعون ومماته، ترجمة أحمد رضا ومحمود خليل النحاس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.
• أحمد صالح، التحنيط فلسفة الخلود، الطبعة الأولى ٢٠٠٠.
• عبد الحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة ٢٠٠٥.
• عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة ج٢، الكهنوت والطقوس الدينية، الطبعة الثانية ٢٠١٠.
• عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة ج٣ الفكر الديني، الطبعة الثانية ٢٠١٠.
• باهور لبيب، صوفي أبو طالب، تشريع حور محب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.
• سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٥، السيادة العالمية والتوحيد.
• صفاء محمد، سبابيت، أدب الحكمة في مصر القديمة (عن ترجمات ميريام ليتشتهايم وكيلى سمبسون) ٢٠١٥.

الفصل الثاني

• Maspero, Gaston (1889).Les momies royales de Deir El_Bahari.

MEMNONIA, BULLETIN ÉDITÉ PAR L'ASSOCIATION POUR LA SAUVEGARDE DU RAMESSEUM, XXVII - 2016, MUSTAPHA AGHA AYAD'S HOUSE INSIDE LUXOR TEMPLE, Sylvie WEENS.

• Smith, G.Elliot, (1912) The Royal Mummies (Catalogue General Des Antiquites Egyptiennes Du Musee Du Caire, Nos 61051- 61100: Service Des Antiquites De L'Egypte).
• Loti, Pierre, La mort de Philae (1909).

Smith, G.Elliot, (1912) The Royal Mummies (Catalogue General Des Antiquites Egyptiennes Du Musee Du Caire, Nos 61051- 61100: Service Des Antiquites De L'Egypte).

- Harris, James E. Weeks, Kent (1973), X_Raying the Pharaohs.
- Harris, James E. (1980), An X_Ray Atlas of the Royal Mummies.

(Ramses II _ The great Journey), Documentary, Giscard d'Estaing Interview https://www.imdb.com/title/tt6830934/

- Noblecourt, Christian Desroches With L.Balout et C.Roubet, La momie de Ramsès II, Museum national d'histoire naturelle, Paris, 1985.
- Bucaille, Maurice (1990), Mummies of the Pharaohs Modern Medical investigation, translated by Alastair D.Pannell.
- Tyldelsey, Joyce (1999), Mummy:Unwrap Ancient Secret.
- Hawass, Zahi. Saleem, Sahar (2016), Scanning the Pharaohs: CT Imaging of the New Kingdom Royal Mummies.
- Brier, Egyptian Mummies.
- Ikram, S. 'From Thebes to Cairo.
- AP Archive, Hair and funeral cloth from mummy of Ramses II returned from France, https://www.youtube.com/watch?v=rVNqvsRAdYk

- كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات.
- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: حسن خالد، الطبعة الثالثة ١٩٩٠.
- موريس بوكاي، القرآن الكريم والإنجيل والتوراة والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٤.
- زغلول النجار، مصارع الظالمين في القرآن الكريم (من آيات الإعجاز التاريخي في القرآن مصارع الظالمين فرعون وهامان وقوم لوط وعاد وثمود).
- القناة ٩، د. زغلول النجار يوضح الإعجاز العلمي في جثة فرعون، وكيف تسبب هذا الأمر في إسلام أشهر جراح في فرنسا https://www.youtube.com/watch?v=[illegible]
- قناة زغلول النجار الرسمية على موقع يوتيوب: قصص الأنبياء | شعيب وموسى

عليهما السلام وحقيقة هامان وفرعون.

https://www.youtube.com/watch?v=whDm_191zM&t=2482s

• كيف استطاع العلم التحقق من جثة فرعون؟

https://www.youtube.com/watch?v=m1Y10ifndqg

• لقاء مسجل على قناة مسلم: قصة إسلام الطبيب موريس بوكاي.

https://www.youtube.com/watch?v=0t962UhzCFM

• أسماء أبو اليزيد، مفيدة حسن الوشاحي، أحمد عبد الرسول وخبيئة الدير البحري.

• سعيد أبو العينين، التلفزيون الفرنسي اتهم الملك «رمسيس» باضطهاد اليهود فاحتجت مصر، الوفد ١٥ مايو ١٩٨٨.

• رجب المرشدي، عودة ٢٠ عينة من مومياء «رمسيس الثاني» و«مرنبتاح»، روز اليوسف ١١ أبريل ٢٠٠٧.

• الشرق الأوسط ١٧ مارس ٢٠٠٧

https://archive.aawsat.com/details.asp?section=54&article=410895&issueno=10336#.YAy1LbXVJdg

• بي بي سي عربي ١١ أبريل ٢٠٠٧.

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world_news/newsid_6543000/6543643.stm

• الدستور ١١ أبريل ٢٠٠٧.

https://www.addustour.com/articles/936076-خصلات_شعر_رمسيس_الثاني_المسروقة_تعود_للقاهرة

• الوفد ٢٣ مارس ١٩٨٨، سعيد أبو العينين، لماذا طلب «ديستان» من السادات تقديم مومياء الملك «رمسيس» في عرض مسرحي في باريس؟

• المصري اليوم، زاهي حواس، الشيخ علي جمعة مرة أخرى: «رمسيس الثاني» فرعون موسى، ١٩-٠٥-٢٠٢٠.

https://www.almasryalyoum.com/news/details/1979104

• The New York Times, Ramses' Illness Was Fabricated, Scientists Allege, November 8, 1976, Page 7.

• *The New York Times, French_Egyptian Study Says 60 Types of Fungi Are Threatening Mummy, February 13, 1977, Page 48.*

مراجع الفصل الثالث:

• Herbert Ricke, George R. Hughes, and Edward F. Wente, Oriental Institute Nubian Expedition, OINE 1. *The Beit*

.Wali Temple of Ramesses II el
• Lichtheim, Miriam (1976), Ancient Egyptian Literature, Volume II: The New Kingdom.
• Kitchen, K.A., Ramesside Inscriptions, Translated & Annotated, Translations, Volume III, Blackwell Publishers, 1996.
• Pithom and Raamses: Their Location and SignificanceE. P. UphillJournal of Near Eastern StudiesVol. 28, No. 1 (Jan., 1969), Published By: The University of Chicago Press.
• Al_Ayedi, Abdul Rahman (2000). THARU: THF, STARTING POINT ON THE "WAYS OF HORUS", A thess submitted in conformity with the requirements for the degree of Master of Arts, Graduate Department of Near and Middle Eastern Civilizations, University of Toronto.
• OIP 107. Reliefs and Inscriptions at Karnak, Volume IV: The Battle Reliefs of King Sety I, Oriental Institute Publications (OIP) (1986).
• W. J. Murnane, Studies in Ancient Oriental Civilization (SAOC) 42, *The Road to Kadesh: A Historical Interpretation of the Battle Reliefs of King Sety I at Karnak. (Second Edition Revised)*, Chicago: The Oriental Institute1990.
• Studies in Ancient Oriental Civilization (SAOC) 19, Keith C. Seele, The Coregency of Ramses II with Seti I and the Date of the Great Hypostyle Hall at Karnak, University of Chicago Press, 1940.
• Bryce, Trevor (2005), The Kingdom Of the Hittites, Oxford University Press, New Edition.
• Studies in Ancient Oriental CivilizationSAOC 55, For His Ka: Essays Offered in Memory of Klaus Baer. D. P. Silverman, ed. 1994, R. K. Ritner. "Denderite Temple Hierarchy and the

Family of Theban High Priest Nebwenenef: Block Statue OIM 10729.

• Snape, Steven (2014.), The Complete Cities of Ancient Egypt.

• Ian Shaw, Egyptian warfare and weapens, shire publication LTD 1991.

• Eric P. Uphill, Egyptian towns and cities, Shire publications LTD 2001.

• Nardo, Don (2006). Ramesses II: Ruler of Ancient Egypt (Rulers of the Ancient World).

• Macquitty, William (1978).Ramesses the Great: Master of the World.

• Dodson, Aidan. Hilton, Dyan (2004). The Complete Royal Families of Ancient Egypt.

• سيرج سونيرون، كهان مصر القديمة، ترجمة: زينب الكردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

• أدلوف إرمان، هرمان رانكه، مصر والحياة المصرية. ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢.

• سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٦، عصر «رعمسيس الثاني» وقيام الإمبراطورية الثانية.

• كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات.

• عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة ج٢.

• كنت كتشن، «رمسيس» فرعون المجد والانتصار.

• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة.

الفصل الرابع

• Gardiner, Alan, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II (1975).

• Breasted, James Henry, Ancient Records of Egypt; Historical Records (1906).

• Lichtheim, Miriam (1976), Ancient Egyptian Literature,

Ninth Year, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 10, Twenty No. 3 (Jul., 1951), pp. 137-145, The University of Chicago Press.

https://www.osirisnet.net, Rekmire Tomb TT100, Autobiography of the Vizier Rekhmire,

The duties of the Vizier, PP1:14.

- John K. Mcdonaldk, (1996) House of eternity, the tomb of Nefertari.
- Nelly Shafik Ramzy, THE GENIUS LOCI AT THE GREAT TEMPLE OF ABU SIMBEL.

HERMENEUTIC READING IN THE ARCHITECTURAL LANGUAGE OF ANCIENT EGYPTIAN TEMPLES OF RAMSES II IN NUBIA, 17 December 2016.

- Mary Katrina Shank, The Meaning of the Reliefs at the Temple of Abu Simbel, History 438, Prof. Benedict Lowe, November 15, 2009.
- Reeves, Nicholas. Wilkinson, Richard H, (2008). The Complete Valley of the Kings.
- Dodson, Aidan. Hilton, Dyan (2004). The Complete Royal Families of Ancient Egypt.
- Tyldesley, Joyce. Chronicle of the Queens of Egypt. Thames & Hudson. 2006
- Macdonald, John (1992), In the Tomb of Nefertari: Conservation of the Wall Paintings.
- Weeks, Kent (1998). The lost tomb.
- https://www.louvre.fr/en/oeuvre_notices/apis_bull.
- Dodson, Aidan(1999), Canopic Equipment from the Serapeum of Memphis.
- كريستيان ديروش نوبلكورو أسرار معابد النوبة، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود،

المجلس الأعلى للآثار ٢٠١٠.
• زاهي حواس، أبو سمبل، معابد الشمس المشرقة، دار الشروق ٢٠٠١.
• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة.
• عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة ج٢.
• كنت كتشن، «رمسيس» فرعون المجد والانتصارات.
• عبد الحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة.
• كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات.
• سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٦، عصر رعمسيس الثاني.
• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة.
• أسماء أبو اليزيد، مفيدة حسن الوشاحي، أحمد عبد الرسول وخبيئة الدير البحري (دراسة تاريخية).

بيتر فرانس، اغتصاب مصر.

الفصل السادس

• AP Archive, Ancient mummy returns from US https://www.youtube.com/watch?v=pFPmT9DHpbg
• The Mummy Who Would Be King (2006), Documentary, guest interviews, https://www.imdb.com/title/tt0497415/
• Lost royal mummy discovered in Niagara to be celebrated

https://www.niagaranow.com/news.phtml/2869-lost-royal-mummy-discovered-in-niagara-to-be-celebrated#:~:text=Twenty%20years%20ago%2C%20the%20search, to%20Egyptologists%2C%20since%20the%201860s.&text=She%20recalls%20the%20description%20on, "A%20prince%20of%20Egypt.

• Rose, Mark, Mystery Mummy, A royal body may be that of Rameses I, but can we ever be sure?, Archaeology Archive, Volume 56 Number 2, March/April 2003, https://archive.archaeology.org/0303/abstracts/mummy.html
• Emory University Magazine: https://www.emory.edu/EMORY_MAGAZINE/winter2004/mummy_3.html

https://www.emory.edu/EMORY_MAGAZINE/autumn2002/enigma.html

• «Ozymandias» by Glirastes in The Examiner, London, Sunday, January 11, 1818, No. 524, page 24.

http://www.alnoor.se/article.asp?id=51881 ترجمة غسان نامق.

• 1818, February 1). The Examiner (London), p. 73.

http://www.alnoor.se/article.asp?id=51881 ترجمة غسان نامق.

BELZONI, G (1820). NARRATIVEOF THE OPERATIONS AND RECENT DISCOVERIES WITHIN THE PYRAMIDS, TEMPLES, TOMBS, AND EXCAVATIONS, IN EGYPT AND NUBIA; AND OF A JOURNEY TO THE COAST OF THE RED SEA, IN SEARCH OF THE ANCIENT BERENICE; AND ANOTHER TO THE OASIS OF JUPITER AMMON JOHN MURRAY.P VII.

• Reeves, Wilkinson, The Complete Valley of the Kings.

• إليوت كولا، صراعات حول الآثار المصرية، علم المصريات، الولع بمصر، مصر المعاصرة، ترجمة: سحر توفيق، المركز القومي للترجمة ٢٠١٦.

• عبد الحليم نور الدين، اللغة المصرية القديمة، الطبعة الثالثة.

• بيتر فرانس، اغتصاب مصر.

• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة.

• كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات.

• عبد الحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة.

• أسماء أبو اليزيد. مفيدة حسن الوشاحي، أحمد عبد الرسول وخبيئة الدير البحري (دراسة تاريخية).

الخاتمة:

• Foster, John L., (2001) Ancient Egyptian Literature: An Anthology.

• Al_Ayedi, Abdul Rahman (2000). THARU

• الوطن، ٢١ أكتوبر ٢٠٢٠، التفاصيل الكاملة لنجاح تجربة تعامد الشمس على وجه «رمسيس» بالمتحف الكبير.
https://www.elwatannews.com/news/details/5007323
• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة.
• كلير لالويت، إمبراطورية الرعامسة.
• كريستيان نوبلكور، «رمسيس» فرعون المعجزات.
• عبد الحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة.
• كنت كتشن، «رمسيس» فرعون المجد والانتصارات.

الأشكال والصور

إمتداد الإمبراطورية المصرية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد

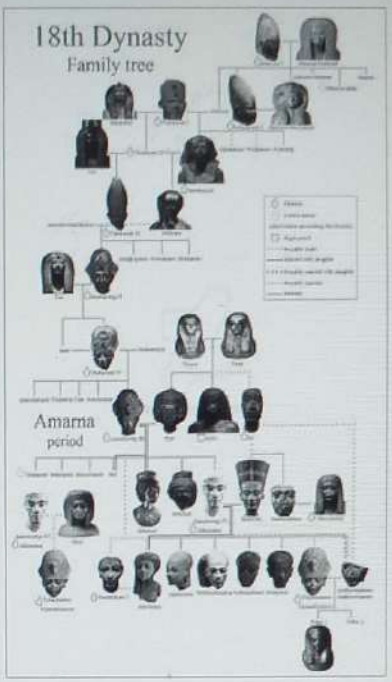

شجرة عائلة الأسرة الثامنة عشر في مصر.

حور محب على اليسار قائداً للجيش، وعلى اليمين بعد تتويجه ملكاً.

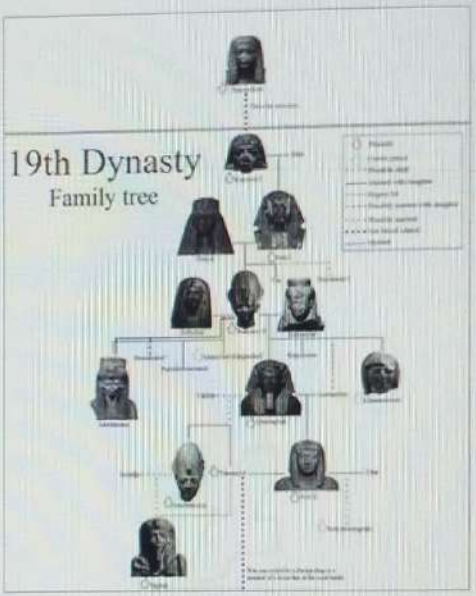

شجرة عائلة الأسرة التاسعة عشر فى مصر.

تمثال لرمسيس الأول قبل توليه عرش مصر.

أحمه عبه الرسول عنه مدخل حَبيبة الدير البحري.

من اليمين: علماء الآثار جاستون ماسبيرو، إيميل برووجش، أحمد كمال.

فك لفائف مومياء رمسيس الثاني.

لوحة لكاتن رمسيس الثالث. قبل قد تداخلت التوميا.

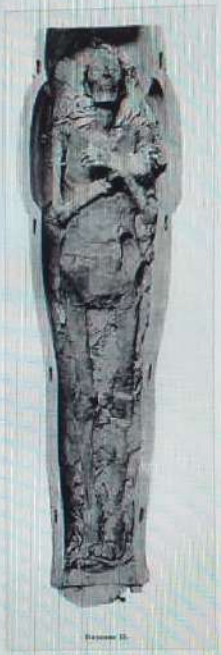

موميا* رمسيس الثانى بعد ألف الفنانف، جرانفون إليوت سميث.

صورة بالأشعة السينية لرأس مومياء «رمسيس الثانى» تعود لعام ١٩٦٧، توضح حالة أسنانه التى لربما كانت سبباً فى وفاته فى النهاية

الفتحة التى صنعها المحنطين فى جمجمة الملك «مرنبتاح» والتى بنى عليها «موريس بوكاى» إفتراضه المزعوم لإثبات خيالاته الخاطئة بأن «مرنبتاح» هو «فرعون» حيث زعم أنها نتيجة ضربة أودت بحياته بينما هى فتحة مصنوعة عن عمد كجزء من عملية التحنيط.

وصول رئيس الكنغو برازفيل
مع فريدريك تومباكي وأعضاء موكبه

موسوكا رئيس الكنغو أثناء زيارته لمطابعة طرشت مع قطاع
من فريق العمل الفرنسي بمطابعة فريدريك تومباكي وأعضاء وفده

فاروق حسنى وزاهى حواس والعينات التى عادت من فرنسا
ومنها خصلات شعر رمسيس التى سرقت فى عام ١٩٧٦.

الملك سيتى الأول يعود من حملته على كنعان يقتاد الأسرة
عبر مدينة وقلعة ثارو، معبد الكرنك.

الملك «سيتي الأول» والمنظور على مدينة «قادش»،
معركة «قادش» الأولى «الغرب».

القائدان «حتيا» زوج إبنة «سيتي الأول» يصاحب أمه «أمون
واح سو» أمام الملك «سيتي الأول» وإبنه «رمسيس الثاني»
في طنوفاته بمقابر «ب ر ا ت ا» بمرقاة. شيفاتور.

الملك «سيتي الأول» والهجوم على مدينة «قادش»، معركة «قادش» الأولى، الكرنك.

الكاتبان «تيا» (زوج إبنة سيتي الأول) يصاحب أبيه «آمون واح سو» أمام الملك «سيتي الأول» وإبنه «رمسيس الثاني» في طفولته، معبد «أبيدوس» شيكاغو.

جداريات معبد بيت الوالى، وحملة رمسيس الثانى وابنائه
«آمون حر خبشى إف» و«خع إم واست».

«رمسيس الثانى» وتعيين الكاهن «تب ونن إف» فى منصب النبى
الأول للإله «آمون» فى الكرنك.

إستجواب جنود «السالشو» الذين خدموا الجيش المصري والذين لقبوا «قاشر». معبد أبو سمبل.

إستجواب جواسيس الحيثيين وإكتشاف «رمسيس» لفخ «موتالي».

رسم توضيحي لمراحل معركة «قاشر».

قطع أبادي الأمعاء من الحيثيين. معركة قاشر. معبد أبيدوس.

الحيثيين يفتشوا أمتعة وبقايا على ضفاف نهر حرفه من الغياب. بينما يساعد بعضهم زملاؤهم المتعثرين في العبور على جسور النهر. معبد الرامسيوم.

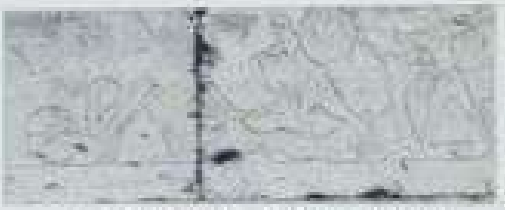

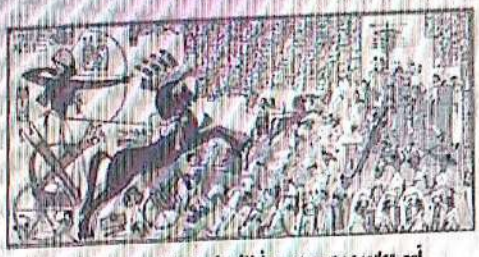

أسر «ابور» و«رمسيس» وأبنائه بخصلات الشعر الجانبية التي تميزهم يتصدرون ساحة المعركة.

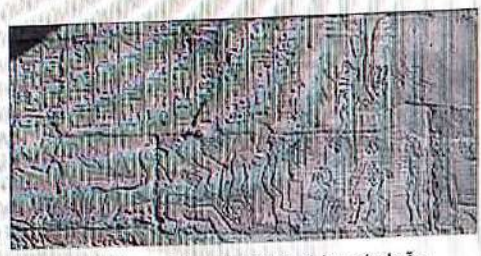

سقوط «ابور» على اليمين، بينما على اليسار فارس حيثي يفر على متن عجلته الحربية وسهم أطلقه «رمسيس» أصابه في مؤخرته.

إحدى النسخ الحيثية من معاهدة السلام مع مصر، متحف إسطنبول.

قصر مشوى « ورسيس » وأبناؤه يلاحقون الشعب الداخية على
تمثالهم يكسرون ساعة فيرقة.

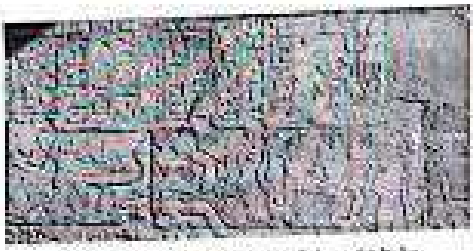

سقوط حائط على الوجين جالسة على اليسار قدرس حيوان يكر على
على حدائقه الحديثة وحدود الحقلة حدده مرسيس « أصدقه في مؤتمرك

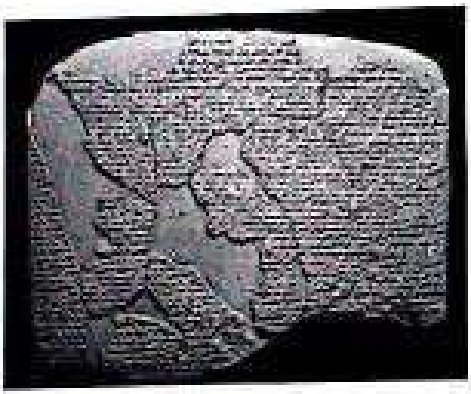

إحدى الشخصيات المتعلقة من معابد « أبو سمبل » مع معبد « ملك إسطنبول »

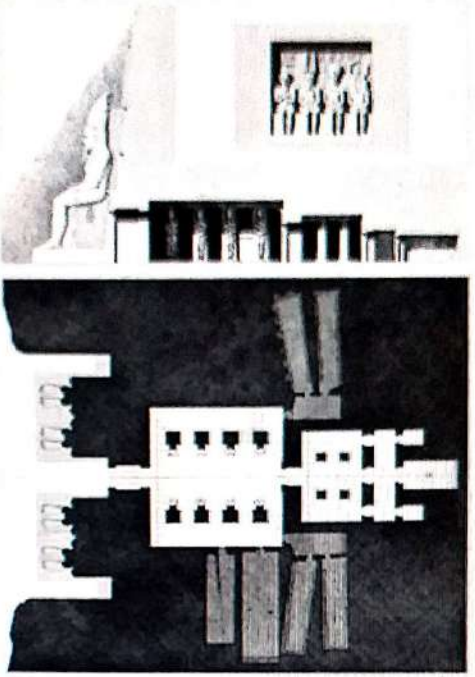

تخطيط ورسم توضيحى لمعبد أبو سمبل الكبير.

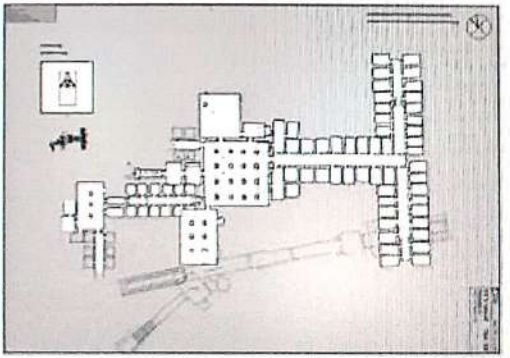

مخطط لمقبرة رقم ٥، أكبر مقابر وادى الملوك، مقبرة أبناء «رمسيس الثانى».

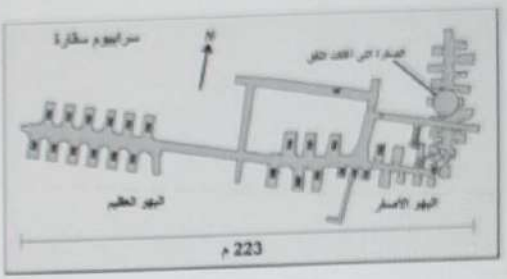

مخطط سرابيوم سقارة.

موميا الفيل ترجع لعام ٢٥٠ ق.م بسقارة، تيماجيرا فيوزا، كلكتا.

لوحة تمثل «جيوفانى بلزونى» يستعرض لونه فى السيرك.

لوحة لعملية سرقة ونقل تمثال «رمسيس الثاني» من معبد
الرامسيوم على يد «جيوفاني بلزوني».

توقيع «بلزوني» بداخل غرفة «في هرم الملك «خفرع» بهضبة الجيزة.

تطبيق تعامد الشمس على وجه تمثال «رمسيس الثانى» يوم ٢١ فبراير ٢٠٢١ فى محاكاة لظاهرة التعامد بمعبد «أبو سمبل» الكبير العظيم، المتحف المصرى الكبير.

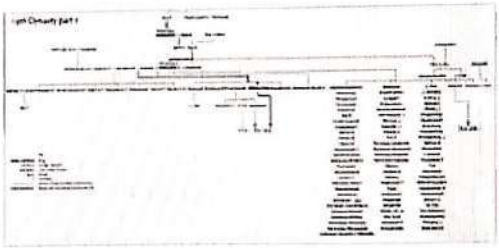

After Dodson, Aidan :The complete royal families of Ancient Egypt

شجرة عائلة « رمسيس الثانى » الملكية